الدكتور توفيق الطويل

قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة

الطبعة الثانية

١٣٦٥ - ١٩٤٦

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

القاهرة
مطبعة التوكل بالجماميز
١٩٤٦

إلى :

ع . ح .

رمز إعجاب ،

ش . ط

توفيق الطويل

قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة

الطبعة الثانية

١٣٦٥ - ١٩٤٦

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

مطبعة التوكل : ٣٣٤ شارع الخليج المصرى

مقـــــدمة الطبعة الثانية

هذا كتاب فُصّـلت فيه آيات النضال العنيف ، الذى استمر بين القرطاجيين والرومان ، منذ نيّـف وعشرين قرنا من الزمان ، واستمر قائمـا نحو مائة وعشرين عاما ، تغذيه وقدة الطموح إلى المجد ، وتذكـى نيرانه هوجاء المطامع والأحقاد ، حتى نزف المقاتلون دما وجهـدا ومالا ، وانتهى بأروع مأساة عرفها تاريخ الدنيا بأسرها : أمة تفنى فى ساحة الجهاد ، وتتلاشى من الدنيـا جلجلة أهلها . . . كانت ملء الوجود سمعا وبصرا . فأضحت مجرد ذكرى يحكيها التاريخ . . ! !

وفى سيرة هذا النضال الدامى وجوه من العبر ، تتخطى المكان وتتجدد مع الزمان ، أظهرها ما يتصـل بسنن النزاع على البقاء ، وأساليب النجاح والإخفاق فى كفاح الشعوب ، والكشف عن مكان البواعث الروحية والمثل العليا من حياة الجماعات ـ فى تطورها إلى الكمال ، وانحدارها إلى الاضمحلال . .

* * *

وقد كان لتأليف هـذا الكتاب قصة . . ! ذلك أنى وضعته منـذ بضعة أعوام ، إجابةً لطلب لجنة نهضت لإصدار سلسلة من المؤلفـات ، تبسط جهاد الشعوب فى سبيل استقلالهـا ومجدها ، مساهمةً منها فى إعداد الشعب إعدادا قوميا صحيحا . . وقد أقبلت على إعداد هذا الموضوع راضيا مغتبطا ، لأنه فوق طرافته بكر لم يطرقه أحد من أهل البحث فى لغـة الضاد ، وصببته فى قالب من القصص التاريخى ، تغذيه أحداث مستقاة عن أوثق المصـادر التاريخية ، واختتمته بفصل عن تحليل الكفاح وردّه إلى بواعثه وعلله ، مع بيان وجه العظة فى سيرته . . . ولما استوفيت إعداده ، تبينت فجأة أنه الكتيب الوحيد الذى تمخض عنه مشروع تلك اللجنة . . ! وكنت إبان هذه الفترة ، قد اشتركت مع فئة من أصدقائى فى إنشاء « لجنة الجامعيين لنشر العلم » وشرعنا فى تنفيذ برنامجها الضخم بترجمة « تراث الإسلام » ، فلما أخذت المطبعة فى إخراجه ، دفعت بكتابى إلى لجنتنا لتقوم بنشره . . . وقد كان ، فصدر الكتاب مع تراث الإسلام فى شهرين متتاليين .

وكانت طبعته الأولى مزودة بعدة خرائط وبضع عشرات

من الصور الفنية ، تمثلت فيها وجوه من الطمع والجشع عند قادة الحروب وزعماء الجماهير ، وتجسمت فيها أساليب النضال عند الشعوب ، فاضطرنى ضياع قوالبها - كليشيهاتها - عند إعادة الطبع - إلى الاقتصاد فيما أتخيره منها - تمشيا مع مقتضيات الأزمة الخانقة ، التى أسفرت عنها هذه الحرب الطاحنة .

وعند صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، كانت الكتب فى كساد ملحوظ ، ولكن جمهور القارئين قد استقبله استقبالا رائعا أثار كل دهشة ، إذ نفدت نسخة فى أقل من أربعة أشهر . . ! وعندئذ ألحّ علىّ الكثيرون فى أن أعيد طبعه ، ولكنى تريثت هذه الأعوام كلها عامدا . . ! ثم بدا لى آخر الأمر أن الكتاب لم يزل بعدُ مثار الرضا والإعجاب عند صفوة قرائه - أو هكذا قيـــل لى . . ! ! فاعتزمت إعادة طبعه ، وخُيل إلىّ أن طبيعة موضوعه ، والغاية من إصداره ، تقتضيان الإبقاء على أسلوبه ومنهج بحثه . . ! ! فأبقيت على الكتاب روحا وجسما - مع استثناء بضع جمل قصيرة وألفاظ قليلة ، أشار بتغيير بعضها مشكورا - رعايةً لدقة التعبير - زميلنا الأستاذ زكى على ، أستاذ التاريخ القديم المساعد بجامعة فاروق

وإعادة الطبع فى هـذه الآونة ، يُـقوّى مبرراتها عندنا ، اعتقادنا بأن العالم العربى كله ـ ومصر فى طليعته ـ قد وطن العزم على أن يستقبل « الآن » حياة النضال جادا ، صلب القنـاة قوىّ الروح وثاب الطموح ، فمن الخير لأهله وللأجيال المقبـلة من أبنـائه ، أن يغمرهم فيض من الـكتب ـ التى يحتمل أن تهديهم إلى مواطن السداد فى الـكفاح الموفق ، وتجنبهم مظان الاستهـداف للزلل فى التنازع على البقاء ، إذ ليس أجدى على الأمم ـ فى مجال التربية الوطنية والقومية ـ من إلمام أهلها ببواعث النضال وأهدافه ، فى حال انتصاره وإخفاقه ـ كما تتـكشف عنها حياة الشعوب المجاهدة ، التى سجلت بدمائها على صفحة الزمن تاريخها . . . وإنا لنرجو أن يكون هذا الـكتيب ، جهدا متواضعا فى مجال المساهمة فى إعداد بنـاء جديد ، لعالم عربى جديد ؟

الاسكندرية فى { صفر ١٣٦٦ هـ
فبراير ١٩٤٦ م

توفيق الطويل
بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

مقدمة الطبعة الاولى

للأستاذ الجليل

محمد فريد أبو حديد

مازال الناس يستلهمون التاريخ ويستمدون منه العبرة كلما ألجأتهم ضرورة فى حاضرهم إلى ذلك ، فإن تجربة العصور فى حاضرها لا تغنى الناس إذا شاءوا التماس الحكمة الاجتماعية أو استبانة القانون الإنسانى ، وذلك أن حوادث السنين لا تتصل نتائجها بمقدماتها إلا بعد مضى القرون ، ولا تكمل عبرتها إلا بعد توالى الأجيال ، وليس فى تكرار التمثل بِعبَر الزمان إعادة ، ولا فى تعدد النظرات إليها إباحة لها أو ابتذال ، فإن الحادثة الواحدة قد تنطوى على ما لا حدّ له من العظات ، وقد يتناولها الناس فى كل عصر فيجد كل منهم فيها ناحية من المعنى مخالف لما وجده سواه من معانيها .

ولقد كان النضال بين قرطاجنه ورومة أحد هذه المواقف التاريخية الفذة التى هزّت العالم هزة قوية فى إبانها ، وما زالت

العصور التالية ترجع إليه وتلتفت صوبه ، وكل منها يشير إلى مايبتغى من عبرة فيه أو يتحدث عنه حديثاً يوحيه إليه موقع الضوء عليه فى ناظره .

وهكذا كان شأن الأستاذ « توفيق الطويل » مؤلف هذا الكتاب عند ماتناول بالبحث هذا النضال .

لقد نظر المؤلف الفاضل إلى تلك الحرب التى يسميها التاريخ بالحرب البونية كما نظر سواه إليها ، ووصفها ورسم لنا منها صورة خاصة لاأظن أنها تشابه صورة أخرى رسمها أحد فى لغة العروبة

فهو قد استدرج الذهن من موقعة إلى موقعة ، ومن صورة إلى صورة ، حتى بلغ به النهاية فأشار إليه مومئاً إلى ماتحت قدميه، فإذا بالعبرة التى كان يرمى إليها ماثلة واضحة لا يستطيع أحد أن يخالف فيها .

ولقد كانت الشعوب الإنسانية منذ القدم ينافس بعضها بعضاً فى كل ميادين النشاط والمطامع ، فلقد كانت تتنافس فى امتلاك الأراضى وفى الانتفاع بالمراعى ، وكانت تتنافس فى القوة والمنعة ثم هى تتنافس اليوم فى كل هذه المعانى بوسائل سلمية تارة وحربية أخرى ، غير أن ذلك التنافس الإنسانى كانت له مظاهر عدة ، فقد كان يحدث بين وحدات القبائل الصغيرة فى دائرة محدودة كما

كان يحدث بين الأجناس والشعوب فى دوائر أوسع ، فإنا لا نكاد نجد عصراً خلا من محاولة شعب من شعوب الأرض سيادة سائر الشعوب ، ونبوغ شعب آخر يتصدى له بالدفاع ، فاذا بشعوب الأرض موزعة بين الزعيمين المتناضلين حتى ينتهى الأمر بإذعان أحدهما أو انقراضه وضياع سلطانه . وقد حاول بعض علماء التاريخ أو الاجتماع أن يخلصوا من استقراء ما حدث من ذلك النضال فى كل العصور إلى أن أجناس العالم بينها طائفتان كبريان لا تفتأ تميل إلى النزاع والنضال على سيادة الأرض ، فيسمون طائفة من الطائفتين شرقا والطائفة الأخرى غرباً ، ويقول هؤلاء العلماء إن النضال بين هاتين الطائفتين دائب مستمر استمرار الليل والنهار ، فقد يحدث أن شعبين من طائفة واحدة يثوران حينا للنضال ثم لا يلبثان أن يستقرا على نوع من التفاهم والتجاوز ، فى حين أن الطائفتين الكبريين لا يستقر بينهما النضال ، بل لا تزالان تتصاولان وتتصارعان فاما إحداهما سيدة غالبة والأخرى تناضل فى سبيل الحياة تجاهها ، وإما أن تنقلب الآية فتصبح السيدة مسودة والمستضعفة سيدة . وهؤلاء العلماء يجعلون قرطاجنه ورومة رمزين لهاتين الطائفتين الكبريين فى العصور التى سبقت الميلاد بقرنين أو ثلاثة . كما أنهم يجعلون

حرب الفرس واليونان رمزاً لذلك النضال قبل ذلك، وحرب العرب والروم ثم الفرنج رمزا له فى العصور الوسطى.

ومهما يكن من أمر هذا الرأى فإنا لا نستطيع أن نغضى عما فيه من الضعف والتعسف، فالحقيقة التى لا شك فيها هى أن أمم الأرض تتنازع وتتناضل فيما بينها، وأن ما بقى بعد ذلك من التحديد ناشىء من الظروف والحوادث. ولقد كان نضال قرطاجنه ورومة بغير شك من أروع مواقف النزاع العالمى، ولكن لم تكن رومة لتمثل عند ذلك شيئا اسمه الغرب، ولم تكن قرطاجنه تمثل شيئا اسمه الشرق، فقد كانت مصر عند ذلك تحت سلطان البطالسة العظام، وما كانت قرطاجنه إلا مدينة نامية تستولى على المال وتستخدمه فى سبيل بسطة سلطانها بأن تسخر الجيوش لتنتصر لها فى حروبها، وما كان لمثل هذه المدينة أن تكون زعيمة الشرق أو الآخذة بزمامه فى نضال السيادة العالمية، بل لقد كانت مصر أجدر منها بذلك وأحرى.

ويلوح لى أن المؤلف الفاضل لا يذهب مع أصحاب الرأى المتقدم، فانه وإن علم أن قرطاجنه لها رحم بالساميين لم يجعلها ممثلة الشرق فى نزاع الأجناس، بل نظر نظرة أخرى تختلف كل

الاختلاف عن تلك الوجهة التى أشرنا إليها ، فهو لا يتعصب لها ولا يراها تمثل مثلا من أمثلة الشرق العليا ، بل إنه لينظر إلى المثل العليا لرومة على أنها أقرب إلى تمثيل مُـثل الإنسانية عامة . وهو يتحدث عن حوادث نضال قرطاجنه وروما حديث من يريد أن يتغلغل دون السطح ليتخذ من بحثه عظة تنفعنا فى حاضرنا ، فهو يريد أن يوجه أنظارنا إلى أن قرطاجنـه قد فنيت لأنهـا جديرة بالفناء ، وأن رومة قد بقيت ونمت لأنها كانت جديرة بالبقـاء والنمو ، ثم هو يشير لنا وهو يسير فى حديثـه إلى الأسرار التى أهّـلت كلا من المدينتين إلى مصيرها وجعلتها جديرة بمـا نالها .

خلفت الأساطير قصتين عن منشأ المدينتين المتناضلتين ، وما أحرى هاتين الأسطورتين ان تـكونا مختصرا لتاريخهما ، فرومة تنشـأ فى العراء وتغذوها الوحوش ثم ترويهـا الدماء ، ولـكنها ترفض الاستكانة الى الدعة ويطلب أهلها العيش فى ظلال المكاره ، فلا تزال مثلها العليا الخشونة والقوة والقسوة . وقرطاجنه تنشأ هرباً من مطامع الطامعين لتنفرد فى مأمن تتمتع فيه برغد العيش وذكريات السعادة ، ولـكنها لا تلبث أن تحرق نفسها دفاعا عن مطامع جديدة اتجهت إليها من ناحية أخرى ـ وما كان التاريخ

ليحدثنا عن المدينتين إلا هكذا إذا شاء اختصار حكاية كل منهما في كلمات قليلة .

وإنه لمن ألذ المطالعات أن يتتبع القارىء وصف هذا الكتاب لحوادث تلك الحقبة من الدهر ، فان فيه خصالا ثلاثاً تسمو به : دقة في البحث ، ونفوذ في النظر ، وجمال في الأسلوب .

وإني لأنتهز هذه الفرصة لتهنئة مؤلفه تهنئة حارة على ما أصاب من إجادة وتوفيق ؟

محمد فريد ابو حديد

قصة الكفاح

بين روما وقرطاجنه

نشأة قرطاجنـــة

آذن بالرحيل النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد ، بعد أن استوفى مليك ، صور ، أنفاسه ، وخلف وراءه فتى يافعا تقلد الملك بعده في فيض من الطموح والجشع ، وفتاة يتمشى الجمال الفتان في كيانها ، وتشيع الأنوثة الناضجة في جسمها ، فبنى بها خالها أسرباس Acerbas وهو كاهن مهيب الجانب موفور الحظ من إكبار الناس ، لا يعلوه بين الشعب إلا المليك وحده ، وكان إلى هذا ثريا عريض الثراء تملكه الجزع على أمواله الطائلة ، فغيبها في أحشاء الأرض بعيدا عن مسكنه ، حتى لا تمتد إليها يد أثيمة تبغي العبث بها ، أو تقع عليها عين باغيـة تريد العدوان عليها .

وكان يشتد به القلق ويثور بخاطره الجزع ، كلما ذكر الملك وما يضطرم في نفسه من جشع ، فخافه خوفا شديداً وإن كان ابناً لأخته وأخا لزوجته ، لأن بريق الذهب كثيراً ما يسـفّ بحرمة الرحم إلى مرتبة النسيان ، ويهوى بالنفوس إلى درك الاتهام ، ويهبط بقداسة الأخلاق إلى مواطىء النعال .

وطار نبأ الكنز المغيب في جوف الأرض حتى اتصل بسمع الملك

فحرك لامتلاكه رغبته ، وإن تخطى فى سبيله ماتعارف عليه الناس من مُثُل حسنى ومبادىء عليا ، فأمر بذبح خاله «أسرباس» توطئة لأشباع نهمته وإرضاء شهوته . . !

واستشاطت زوجة القتيل غضبا وأجنَّها الألم لهذه الخطيئة التى أقدم على ارتكابها أخوها ، فعافت مرآه ، وأشاحت بوجهها عنه ، واستوحشت نفسها من نفسه ، مرضاة لأنوثتها ، واستجابة للعدالة حين تحتقر الزوجة التى ترى مصرع زوجها فتحتمل فجيعتها فيه ، ولا تثور على قاتله ولو كان أقرب الناس إليها . . فإن عاطفة الزوجية أحرى بالأعزاز وأخلق بالرعاية من الأحساس بالأخوة ، إن كان لا بد من إيثار واحد على الآخر . . !

وهكذا قضت « إليسا Elissa » — وكان هذا اسمها — أياما ، ركدت فيها علاقتها بأخيها ، واكفهر بينهما جو المودة حتى عزّ عليها احتماله ، فاصطنعت البشر وأقبلت عليه توهمه بأن خطيئته قد درست فى نفسها وعفى عليها النسيان ، كانت تبتسم فى وجهه وفى جوفها بركان ألم يضطرم ويهمّ بأن يلقى ناره وحممه ، حتى قالت له ذات يوم : لقد احتملت من أجل زوجى فوق ما أطيق من لوعة وألم ، واعتزمت ألا أحرك فى نفسى الأسف على

فائت ، وأن أستقبل حياة جديدة في ظلالك فأفارق مسكني — مبعث القلق ومثار الذكريات الأليمة التي لا تنقطع - وأفد على بيتك وأعيش في كنفك ، وأستمد من حياتي معك ما ينسيني لوعة الماضي وألم الذكرى .

فشاع الرضا في نفس الملك ، وتوقع أن يصيب — فوق مرضاتها عنه — ما خلفه لها زوجها الصريع . . واطمأن إليها حتى غفلت عينه عن رقابتها ، وأرسل خدمه ليمدوها بالعون في نقل متاعها ، فهيمنت على شعورهم وكسبت عطفهم حتى استحالوا أعوانا لها على تنفيذ الخطة التي دبرتها للفرار . . !

وأبحرت بما تملك من كنز ومتاع إلى « قبرص » مصطحبة في ركابها من سرها أمرهم وأعجبها سلوكهم ، ثم شدت رحالها من هذه الجزيرة حاملة معها فئة من حسان العذارى ليتزوج منهن رجالها . . . فلما بلغ الملك فرارها ، اهتاج غضبا واعتزم أن يطاردها أنى حلت حتى يظفر بها ويطعنها الطعنة التي تلحقها بزوجها.. !
وقاتل الله المال — مبعث الطمع الذي لا ترده صلات رحم ، ولا يدفعه سلطان مبدأ . . !

وتوسلت إليه أمه أن يعدل عن قتلها ، والتمست عنده العفو

عنها وغفران مسلكها ، فاستجاب لها مخافة أن تلحقه لعنة الآلهة ويدركه انتقامها — بهذا تنبأ له العرافون ، وأنبأوه نبأ المدينة التي ستنشئها أخته بعد حين ، وحذروه من مقاومتها وأعلنوه بالشر ينتظره في غده ، إن مانع في تأسيس هذه المدينة التي سيقدر لها أن تكون أعظم مدن الأرض حظا وأوفرها في القوة نصيبا .

ثم تقدمت « إليسا » أو ديدو Dido -كما كانوا يسمونها أحيانا- إلى إفريقيا ، ووجدت أن الناس بها يميلون للأغراب ويحنون إلى لقياهم ، ويقبلون على التجارة عن رضا وشغف ، فابتاعت قطعة أرض تربض على خليج تونس في شاطىء إفريقيا الشمالي ، وتعاقدت مع ملاكها — اللوبيين — على أن تدفع لهم ثمنها أقساطا سنوية حتى يتم سداده .

ووفدت على هذا المكان كثرة من أهل البقاع المجاورة واتجرت معه ، واشتهر بين الناس أمره وذاع نبؤه ، ودرجت في حجره مدينة جميلة أطلقوا عليها اسم قرطاجة أو « قرطاجنة » Carthage أي المدينة الجديدة .

وازدهرت المدينة بعد هذا وشاع أمرها طولا وعرضا ، وكان الناس يتسابقون في الحديث عن ملكتها « إليسا »

ويتبارون في الكلام عن فتنة جمالها وعذوبة صوتها ورشاقة قوامها وظرف حديثها ولدونة جسمها وغير هذا ـ وإن لم يكونوا قد رأوها بعد . . .!

واتصلت أحاديثهم بملك المغاربة فأرسل في طلب الذين يتزعمون المدينة الجديدة ، وقال لهم حين مثلوا بين يديه :

عودوا إلى مليكتكم وسلوها رأيها في زواجي بها ، فإن أبت فقد وطنت العزم على أن أثير في وجهها حربا ضروسا، تملأ بالها قلقاوضيقا،وتنتهى بمدينتها الناشئة إلى الخراب العاجل .

فلما عاد الرسل احتالوا في عرض هذا المطلب على مسمع الملكة ، وقالوا لها إن مليك المغاربة يبحث عن فرد أوتى القدرة على تهذيب شعبه ، وتعليمه كيف يستقبل الحياة برفق ، ويضرب في زحمتها بدعة ، ويتصل بأهلها في وداعة ، ولكن منذ الذى يهجر وطنه إلى شعب بربرى يشبه أبناؤه الوحوش خشونة وجفافا ، ليهذب مشاعرهم ويرقق طباعهم ويحمل نفسه هذه المشقة كلها . . ؟

وكانت الملكة قد أجَنَّها الفخر بوطنها الجديد ، وملأ الاعتزاز به شعاب نفسها ، فكانت تكثر من الحديث في أمره ، وتطيل التغنى بمستقبله ، والترنم بالمجد الذى ينتظره . وتغتنم كل

فرصة لتبث هذا الروح فى نفوس المتصلين بها ، حتى يشيع هذا الإحساس فى شعبها ، فلما سمعت حديث الملك الذى يبحث عن فرد يجعل شعبة أحسَّ بالحياة وأشد تحركا لها واستعداداً لتلقى مؤثراتها ، قالت لمحدثيها : إنّ احتمال الحياة العسرة الثقيلة ليهون فى سبيل الوطن ، وما يعود على الأمم المجاورة من خير على يدنا ، مردُّه لنا ومرجع فضله إلينا ، ومن كَرِه الاستجابة لخير الوطن وضاق بها وإن كلفته العسر ، فقد أثِمَ ولزمته الخطيئة .

فقالوا لها حكمت بلسانك يامليكة البلاد ، ومن أشار بأمر كان أحرى باتباعه ، ثم بسطوا لها حقيقة الأمر وأنبأوها بما يراد بها ، فأحست بأن ردها قد أوقعها فى الشرك وأحاط عنقها بالأغلال ، فهى لا تملك العدول عن ردها ، لأنها كانت تكبر عهدها ، وتحترم وعدها ، وتعتبر نفسها مَثَل الشعب الأعلى الذى به يقتدى وعلى هداه يسير... ولكنها لاتستطيع الاستجابة لهذا الاثم ، فما جشمت نفسها مشاق السفر واحتملت أخطار الاغتراب إلا مرضاة لزوجها فى قبره ، وحرصا على حرمة ذكراه . وتكفيرا عن ذنبها فى عجزها عن الثأر من قاتله ، والآن يراد بها أن تقدم على الزواج من غيره ، وتستبيح لنفسها العدوان

على ذكراه ، فما أحرج المأزق وما أضيق السبيل إلى الخلاص منه . . ؟

والتزمت الصمت قليلا ، ومر بخاطرها طيف زوجها الذى فجعها فيه جشع أخيها ، فحركتها الذكرى إلى الحنين إليه والتأسى عليه ، وشاع الحزن فى نفسها ، ودب الدمع إلى عينها ، فحاولت حبسه ، ولكنها انفجرت باكية ترثى زوجها ، وتندب مصيرها ، وكل جارحة فى جسمها تنضح لوعة وتفيض ألما . ثم طلبت إليهم أن يمهلوها ثلاثة أشهر تشبع فيها رغبتها فى التأسى وحنينها إلى تقديس الذكرى .

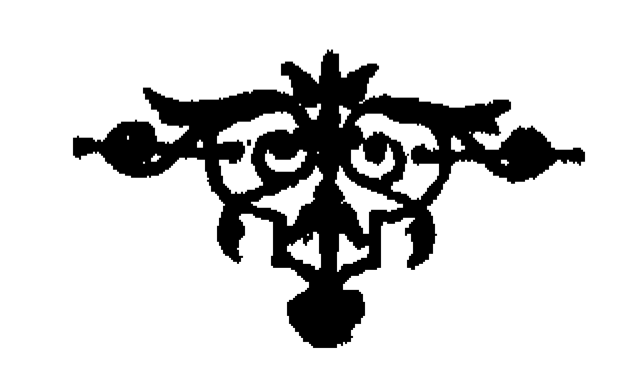
وقبل انتهاء الأشهر الثلاثة أقامت فى أحد الميادين كومة وقيد كبرى ، وأشعلت النار فيها ـ على مرأى من شعبها ـ وقدمت لها القرابين من شياه وثيران ، فلما التهمت النار ضحيتها تقدمت « إليسا » إلى كومة الرماد الذى خلفته النار وارتقتها والسيف إلى جانبها ، ثم اتجهت إلى الشعب الذى كان يحوطها ويلتف حولها ، وألقت عليه نظرة ملؤها الحسرة والألم وقالت :

« أتطلبون إلى أن أذهب إلى زوجى . . ؟ ها أنذا ذاهبة . . . ثم استلت سيفها من غمده وغيبته فى صدرها ، وخرت على

الأرض جثة هامدة ملطخة بالدماء . ! !

* * *

هذه هى نشأة قرطاجنة كما روتها لنا أساطير الأولين ، أدى إلى تأسيسها وفاء الزوجة لزوجها ، والحرص على البر بوعدها والوفاء بعهدها . . . فلنمض إلى سيرة حياتها ومصير جهادها ـ كما يحكيه لنا علماء الاجتماع وأهل التاريخ ، لنرى ما تفضى إليه الجهود الجبارة عند من يعوزه احترام النفس ، وينقصه إكبار الكرامة ، ولتتكشف لنا نواميس البقاء فى تنازعه ، وتتبدى أمامنا قوانين الجهاد فى انتصاره وإخفاقه، ولتتضح لنا مكانة « البواعث » من مصير كل كفاح ، ولنعرف بعد استعراض هذه المأساة نصيب مصيرها من العدالة وحظه من الانصاف :



كيف كان يحيا أهلها

تجارتهم — أسطولهم البحرى — صفاتهم رجالا و نساء —
بيوتهم — حضارتهم — اتصالهم بالمصريين والاغريق
دينهم — ماديتهم — زواجهم — جيشهم
— نظام حكمهم —

شبَّت قرطاجنة ودب النضج فى جسمها ، وراحت بحكم موقعها تتجر مع البلاد الدانية والبقاع القاصية ، حتى أصابت الغنى الذى ملأها شعوراً بتفوقها على جيرانها ، ومال بها إلى الجور على أملاكهم والسعى لاستعمار بلادهم . . ! وقد دفعتها طبيعة حياتها إلى بناء أسطول بحرى هيأ لها سيادة الدنيا بأسرها فى فنون التجارة والملاحة ، فترامى اسمها إلى سمع الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، حتى أقبلوا عليها من مختلف البقاع وشتى الأجناس — ولو قدر لك أن تتجول فى طرقاتها لرأيت أخلاطا عجيبة من مصريين وسودانيين ويونانيين وقرطاجنيين وبرابرة وأسبان . . . على أن فى وسعك أن تميز القرطاجنى من بين هؤلاء جميعا من غير جهد ولا مشقة ، فهو يطالعك بشعره القصير ولحيته الطويلة ووجهه الناطق بالطيبة ، ويقبل عليك فتأخذك الروائح العطرية المنبعثة

من جسمه، وتدهشك الجواهر الثمينة التي يحلى بها نفسه . . !
ويزيدك معرفة به غطاء رأسه الشبيه بطربوش العامة عندنا،
وحذاؤه الذي يماثل « الصندل » في وقتنا الحاضر، وثوبه الفضفاض
المهلهل الذي كان يشبهه الرومان بلباس الحمام . . أكل هذه دلائل
تنم عنه، مشيرة إليه دالة عليه، وإن كانت طبقتا الأثرياء والعبيد
تختلفان عن هذا الوصف اختلافاً يبرره التفاوت في المال، فالأغنياء
يتشبهون بالأغريق والمصريين - في أول أمرهم - ويحتذون مثالهم،
ويلتمسون عندهم وسائل الظهور بمظهر الأرستوقراطية والترف،
ويترفعون عن الاتصال بغيرهم من عامة الناس. أما العبيد من أسرى
الحروب فتنطق وجوههم بآيات الضنك ومعالم الضعة وسمات
الفاقة . . . .

أما النساء فهن في مستوى العبيد والخدم أو ما يقرب من
ذلك، فإذا استثنيت الثريات اللائي يحاكين الإغريقيات في
مظهرهن، ويتاح لبعضهن العمل مع الرجال في المراكز الملحوظة
في الكهنوت، عرفت أن القرطاجنيات تثقلهن الواجبات وتعوزهن
الحقوق - شأن النساء في جميع الشعوب التي ينقص النضج نهضتها -
على أن أهم ما يلفت نظرك إليهن، ويشغل ذهنك بهن :
جواهرهن الكريمة ورائحتهن الزكية .

فإذا تركت المارات في مسيرهم ، وتيامنت بنظرك أو تياسرت ، راعتك كثرة المحال التجارية والحوانيت الشبيهة بالصوامع ، تملؤها السلع وتكظها البضائع ، وقد جلس فيها ملاكها متربعين يساومون عملاءهم في تباطؤ وإسراف من غير ملل ولا يأس .

فإذا ضقت بهذه الشوارع الضيقة التي لا يكاد نور الشمس أن يهتدي إليها ، وتسللت إلى البيوت لتعرف ما تنطوي عليه من ناس وأحداث ، رأيتها مقامة من حجر تعلو في الجو ست طبقات أو أكثر من ست ، في سقوف مسطحة ونوافذ من خشب ، وأدهشك ازدحامها بالسكان وامتلاء الحجرة الواحدة بأسرة كبيرة يتكدس أفرادها بين جدرانها كما تفعل النمال في جحورها ، يفترشون أرضها كلما ناموا حتى يحين موعد العمل .

على أن البيوت تتمايز في مستواها بتمايز الأحياء - شأن سائر المدن في مختلف العصور - فإنك إن مضيت إلى حيث يقيم الأغنياء في « حي مجارا » طالعتك آيات العز ومعالم الترف وروائع الفن ، فترى في البيوت آثار الحضارتين : المصرية والإغريقية ، إذ كان أهل المدينة يفزعون إلى مصر أول الأمر يلتمسون عندها ما يشاءون من مظاهر الحضارة ، ثم جنحوا إلى بلاد اليونان يستعيرون

منها مايلائم ثراءهم ويوافق ترفهم ويناسب عزهم . . . وعلى هذا عاشوا حتى قضوا نحبهم ، فلم يعرف لهم تاريخ الفكر أثرا أدبياً خلفوه ولا علما تركوه ، اللهم إلا وصف رحلة إلى المناطق الحارة فى إفريقيا ، وكتاب يتضمن معلومات عامة عن الزراعة ، أما فيما خلا هذين الأثرين فقد كانوا ينقلون . . . فى غير حماسة فلا يحسنون النقل . . !

فإن أقمت بينهم عرفت أن لهم ديناً يتمكن من نفوسهم ويتسلط على قلوبهم ويتحكم فى الكثير من مظاهر حياتهم . . كانوا يقدمون لمعبودهم الأكبر Moloch أو Baal Hamman الضحايا عن سعة لا تعرف تردداً ولا إبطاء ، وقد سجل التاريخ كثيرا من هذه المآسى المروعة ، فقد قدموا للنار حين حاصر أمتهم قائد الأغريق أجاثوكل Agathocles مائتى طفل من أنبل الأسر ، وخف ثلاثمائة رجل إلى التطوع يومئذ فرحين لأنهم سيكونون قربانا للمعبود الأكبر ، عساه أن ينقذهم مما هم فيه من ضيق .. ! وتقديم الأطفال للنار على مذبح المعبود كل عام ، كان من أقوى العادات الدينية الشائعة بينهم ، وثمة آلهة أخرى لا نرى بأساً من إهمال الحديث عنهم . . .

وستعرف قبل أن تبرح البيوت أن الزواج بالأجنبيات قد

فشى بينهم ، وإن غلبت عليهم عادة الاكتفاء بزوجة واحدة ، وأن الجو الذى يتنفسه الأولاد منذ الصغر كان يغريهم بحب المال ، ويصور لهم الذهب كأعلا مثل الحياة وأنبل ما فيها من مطامح . . فكان طبيعياً أن تنتشر الرشوة بينهم ، وقد بلغ من شيوع هذه العادة عندهم أن كان العرش والقيادة بين ما يباع ويشرى من الوظائف فى مجلس الشيوخ ـ صاحب الحق فى الهيمنة على شؤون البلد كما ستعرف الآن . . . ! بل أفضت بهم عبادة المال إلى الاستغناء عن جيش ثابت يحفظ كيانهم ويرد عادية أعدائهم ، فإن أكرههم نضال الحياة على قتال شعب من الشعوب ، استأجروا له من الجنود المرتزقة من يقوم بقتاله ، حتى يلزمه الطاعة ويكرهه على الخضوع ، فإذا انتهت الحرب انحل الجيش ولم يبق فى الأمة إلا ثلة من الشرطة تتولى حفظ الأمن العام . . !

وقد تهيأ لقرطاجنة بمرور الزمن نظام للحكم عرض له بالثناء أرسطو فى كتاب السياسة ، فتولى أمرها :

(١) ملوك يرقون الحكم بالانتخاب ــ لا بالوراثة ولا بالأقدمية وإن كان شرطهم الأول أن يكونوا قد انحدروا من أسر ممتازة ، وكانت سلطتهم ضيقة النطاق ونفوذهم خافت الصوت ــ وإن خلو تاريخ البلد من طاغية يحكم بأمره لشاهد صدق ما نقول .

(٢) ويليهم فى المرتبة قادة الحرب، وكانوا ينوبون عن الملوك إذا خلا العرش منهم، بل كانوا يشغلون الملكية والقيادة معا فى بعض الأحايين.

(٣) ويليهم مجلس الشيوخ Senatus بهيئتيه: البرلمان أو الهيئة التشريعية كما نسميها اليوم، ويتألف من ثلاثمائة عضو بينهم رءوس الأسر الممتازة بالثراء، ومجلس آخر يمثل الوزارة (أو الهيئة التنفيذية فى عصرنا) وهو خمسون عضواً ينتخبون من بين الهيئة الأولى - وتاريخ نظام الحكم فى قرطاجنة يقول إن مجلس الشيوخ كان لا يساير الزمن ولا يتكيف بتطوراته.

(٤) ثم مجلس عام للشعب يتولى النظر فيما قد يعرضه عليه مجلس الشيوخ من جلائل المسائل والمشكلات، وكانت سلطته محدودة ورأيه استشارياً.

وربما عرفت من هذا الوصف أن السلطة الفعلية فى حكم البلد كانت فى يد مجلس الشيوخ، الذى تسلطت عليه طبقة الأشراف، أى أرباب المصالح وأصحاب الأموال. وسنرى أثر هذا بيّناً فى توجيه السياسة أيام هانيبال...

هذا طرف من أساليب العيش وألوان الحياة عند أهل قرطاجنة، ذكرناه فى إيجاز لعله يعيننا على فهم هذا الشعب واستيعاب نفسيته، وتقدير المصير الذى ينتهى إليه إذا اتقدت نار الكفاح

نشأة روما ونموها

أقبل النصف الثانى من القرن الثامن قبل الميلاد على مليك «ألبالنجا» Alba Langa – إحدى قرى اللاتيوم – وهو يتأهب للقاء ربه ، فلما وافته المنون اغتصب ملكه ابنه الصغير أموليوس Amulius وتولى الحكم على كره من أخيه نوميتر Numitor – وكان لهذا الأخير ابنة قد تهيأ لها من الجمال الناطق ما أغرى بها أبناء السماء ، رآها ذات يوم إله الحرب : مارس Mars فهويها وأحبها ولبث فى عشرتها حتى رزقت منه بطفلين : روميلس Romulus وريمس Remus : فأمر المليك بوضعهما فى سلة وإلقائهما فى نهر التيبر عسى أن يموتا غريقين . . ! ولكن الأقدار شاءت أن يفيض النهر ، وأن تحمل مياهه السلة إلى تل على الشاطىء ، وتستقر بالطفلين على أديم الأرض على كثب من شجرة تين ، وأن تفيد على هذا المكان ذئبة ظمأى فتحمل السلة إلى كهفها ، وتقوم باطعام الطفلين وأداء ما تستقيم به حياتهما من مطالب، وهمت الذئبة ذات يوم بإرضاع الطفلين، فمر بها راعى نوميتر (المليك الذى اغتصب حقه

فى حكم البلاد) فانزعجت الذئبة وولت هاربة ، فحمل الراعى الطفلين إلى بيته ، وأودعهما فى رعاية زوجته وأبنائه ، فشبا يحملان لهذه الأسرة الحب والعطف والتقدير ، حتى إذا اعتدى على رب الأسرة أحد رعاة المليك أموليوس Amulius اهتزت النخوة فيهما ، واتقد الغضب فى نفسيهما ، وانطلقا إلى الباغى ليسوماه العذاب ، ولكن ريمس Remus قد وقع فى كمين أعده لهما العدو وحمل إلى مدينة ألبالنجا ، ومثل بين يدى المليك الذى راعه نبل مظهره فسأله عمن يكون ، وعرف منه أنه حفيد أخيه الذى أمر بإلقائه فى اليم يوم ولد . . ! وكان الراعى قد انطلق فى صحبة روميلس Romulus وعدة من رجاله إلى إنقاذ الأسير من أيدى الأعداء ، واشتبك الفريقان فى عراك عنيف أبدى فيه روميلس من البسالة ما مكنه من أن يصيب النصر ويأسر المليك ويستل أنفاسه من صدره ، ويقيم على البلاد نوميتر - جده وصاحب الحق الشرعى فى حكمها - فلما استوى الملك الجديد على عرشه أخذ يهيء لحفيديه (روميلس وريمس) حياة تفيض بالخير والعز والهناءه ، ولكن سرعان ما أحسا الملل من هذا العيش الهنىء وجنحا إلى حياة تحفها الأخطار وتحوطها المكاره ، فوطنا العزم على العودة إلى التل السالف الذكر - مدرج حياتهما الأولى ومهد طفولتهما الملأى بألوان الضنك والضيق - وشدا الرحال إلى هذا المكان وعقدا النية

على أن يقيما فيه مدينة تحمل اسم واحـد منهما . فأصر كلاهما على أن يكون هو صاحب هذا الاسم ، واتسعت بينهما فرجة الخلاف، ثم اتفقا على أن يكلا الأمر لآلهة السماء ، وانتظرا ما تشير به الآلهة ، ثم زعم ريمس ذات يوم أنه رأى فى السماء ستة نسور تحلق فى الجو ، وبينما روميلس ينصت لحديث أخيه إذ لاحت منه التفاتة إلى السماء ، فرأى فيها اثنى عشر نسرا تحوم فى فضائها العريض ، فاعتبر هذا إذناً من الآلهة بإطلاق اسمه على المدينة الجديدة ، وهمّ ببنائها من غير تردد ولا تباطؤ ، فأقام أكواخا فى مساحة تبلغ الستة أميال مربعة ، وأحاطها بسور يحميها عادية الأعداء ، وأطلق عليها اسم « روما » وكان ريمس مغيظا محنقاً فتخطى السور هازئاً وهو يقول : أهذا هو السور الذى أقمته ليحمى مدينتك ، ويقيها بغى المعتدين ويصد عنها عدوان المهاجمين . . ؟ فاتقد أخوه غضباً واستحل دمه ، وطعنه طعنة أردته على الأرض قتيلا .(الصورة ص ٣٥) ودفنوه على كثب من شاطىء التيبر ، فكان هذا أول دم أريق على أرض روما .

وتولى روميلس حكم مدينته ، واهتم بأمرها ، وبذل الجهود الجبارة فى تعميرها ، وإغراء الناس على العيش بين جدرانها ،

فجعلها ملاذا للمجرمين وملجأ للهاربين من عبيد جيرانه ، فقويت المدينة واشتد بأسها وكثر أهلها ، ووضحت الحاجة إلى وجود نساء بها ، فأرسل ملكها إلى الجيران ينشد مصاهرتهم ، فأبوا عليه ذلك إباء شديداً ، وعافوا أن يكونوا أصهاراً لعصابة من اللصوص والمجرمين ، فضاق الملك بهذا وخشى أن يؤدى خلو مدينته من النساء إلى خرابها العاجل ، فهدته الحيلة إلى خير وسيلة تمكنه من الظفر بهذا الجنس الذى لا تحلو الحياة بغيره ، ولا يستقيم العيش من دونه ، فأعد حفلا يقوم فيه رجاله بضروب الألعاب الغريبة الجذابة ، ودعا إلى الحفل جيرانه من قبائل السابين Sabine فأقبلوا على مشاهدة هذا الحفل فى صحبة نسائهم وبناتهم كما كانت تقضى التقاليد عندهم ، وأكرم أهل المدينة وفادتهم ، وبالغو فى الترحيب بهم والاحتفاء بمقدمهم ، وساروا فى صحبتهم يطلعونهم على أسوار المدينة وبيوتها وسائر ما بها ، حتى إذا فرغوا من هذا مضوا بهم إلى الحفلة ليشاهدوا الغريب من الألعاب ، وبينما الحفلة قائمة تثير فى نفوسهم الإعجاب باللاعبين ، وتستهوى أفئدتهم وتستوعب شعورهم إذ بروميلس يشير إلى رجاله إشارة خفية فينقضون على المدعوين بسيوفهم ،



« فاتقد أخوه غضبا واستحل
دمه وطعنه طعنة أردته على الارض
قتيلا . . . »

يثيرون الرعب فى قلوبهم ، وينشرون الجزع فى نفوسهم حتى ولىّ الضيوف الأدبار . فاستولى أهل المدينة على بناتهم ولاذوا بهن فراراً . . .

ثم جمع الملك كافة من أسر رجاله من فتيات ، واعتذر إليهن عن قسوته فى الظفر بهن، مبرراً موقفه بكبرياء آبائهن الذين رفضوا المصاهرة فى تعنت وإصرار ، ثم أخذ يصب الاطمئنان فى آذانهن ، ويغريهن بحياة الزوجية وما تنطوى عليه من ضروب النعيم وألوان السعادة ، ويعدهن بالحرص على ما يكفل لهن الهناءة حتى انتزع من قلوبهن الجزع واستل من نفوسهن الوهم والفزع

ولكن آباء الفتيات كانوا يتميزون غيظا لهذه الخيانة الفاجرة، ويهتزون من فرط الغضب لهذا الغدر الذى أفقدهم فلذات أكبادهم، فجيشوا جيوشهم وجمعوا جموعهم وانطلقوا إلى روما لاسترداد بناتهم ، وغسل الأهانة التى لحقت بهم . . وثارت الحرب فى عنف بالغ وقسوة فائقة ، وانتصر الرومان فى بدايتها فحمل روميلس أسراه وغنائمه ومضى بها إلى الكابيتول ، وأقام معبدا للأله جوبيتر قدم له الضحايا والقرابين . . ولبثت الحرب قائمة تلتهم المقاتلين عن سعة حتى تهيأ النصر للسابين ، واستولوا على قلعة

روما فاشتعل روميلس من وقدة الغضب وانطلق كمن به مسّ من الجنون ينشد العون من جوبيتر، ويميل على رجاله فى هياج بالغ ويبث الحماسة فى نفوسهم، حتى اتقدت الحرب ناراً حامية، تتأجج فى غير رفق ولا رحمة. وبينما الرءوس تطيح والجثث تهوى على الأرض فى غير انقطاع أو اتئاد، إذ بالنساء فى روما وقد انطلقن إلى ميدان القتال وألقين بأنفسهن وسط السيوف والخناجر، ضارعات باكيات يلتمسن إيقاف الحرب، لأن فيها قتل أزواجهن أو هلاك آبائهن، وليس فى أحد هذين المصيرين ما يرضى عواطفهن ...! وأخذن يولولن قائلات للمقاتلين من كلا الجانبين: إنا لنؤثر الموت الزؤام على العيش الهنىء أرامل من غير أزواج، أو يتيمات من غير آباء . . . ! وساد الصمت ميدان القتال، ونشر السلام أجنحته، واستلّ من القلوب الضغائن والأحقاد . . . وكان شياطين الجحيم ملائكة رحمة وصفاء . . . ! (الصورة ص ٣٩)

ثم استكان السابين للرومان، وخضعوا لزعامتهم وساروا فى ركابهم مختارين، فازدادت روما قوة ومناعة، وتألق اسمها بين جيرانها، واستقرت على الأرض قدمها وامتدت إلى الأفق البعيد

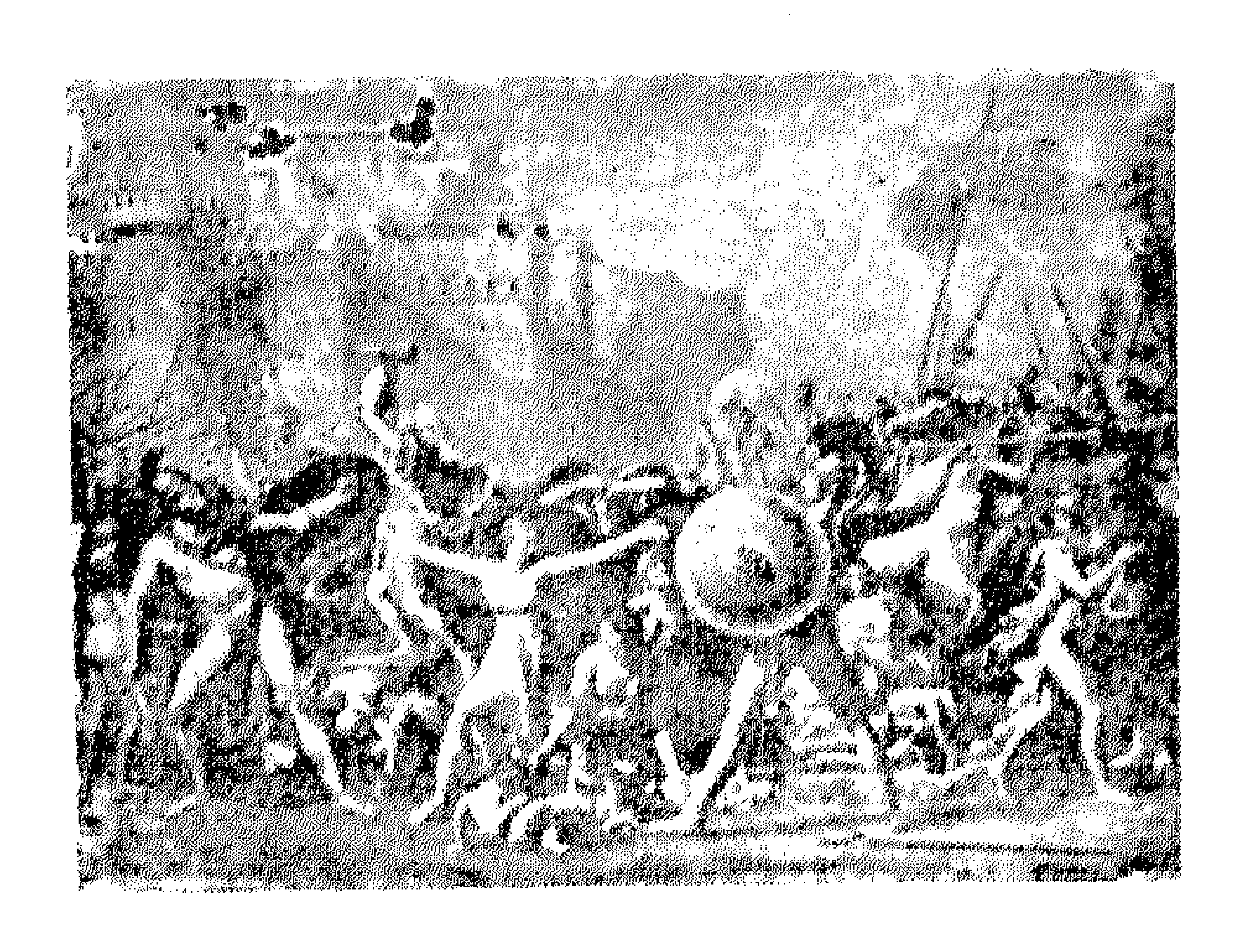
مطامحها وآمالها . ولبث روميلس يتولى حكمها أربعين عاما حافلة بغنائم الحرب وخيراتها . ثم جمع شعبه فى ساحة القتال ذات يوم فثارت ريح صرصرعانية أظلمت الجو وأحالت النهار ليلا دا كنا فولى الشعب الأدبار حتى إذا سكنت العاصفة عاد إلى الميدان يلتمس مليكه روميلس فلم يعثر له على أثر . . ! لقد حمله أبوه « مارس » إله الحرب فى عربته إلى السماء . . !

ثم ظهر روميلس لأحد رجاله ذات يوم وقال له :

قل لشعبى أنه يكف عن البكاء فى طلبى ، وأنه يعيش ما امتزجت به الحياة يهوى الحرب ويعشق النضال ، فبهذا وحده تنال روما حظها فى القوة ونصيبها فى العظمة وتضحى سيدة الدنيا بأسرها . . . فإن رغب الشعب عن حياة الكفاح المحض أفل مجده وغربت شمسه واضمحل بين الشعوب اسمه . .

عرف الشعب أن زعيمه قد بات إلها ..! فأقام له معبداً وراح يقدم له الضحايا والقرابين، ويسعى جاداً لتحقيق مطلبه فى سيادة الأرض فى شتى آفاقها ومختلف ساحاتها .

* * *



انفجر بركان الحرب من أجل
النساء . . . وبقدرتهن ساد السلام
ميدان القتال . . . . فكان أبالسة
الجحيم ملائكة رحمة وصفاء . . !

هذه هى نشأة روما كما روتها لنا بعض أساطير الأولين ، أدى إلى تأسيسها ميل عن العيش الرغيد والنعيم الموفور ، وإيثار حياة تحفها الأخطار وتهددها المكاره . . .

ويتبدى لنا من استعراض المرحلة الأولى من حياة روما ، ما كان عليه أهلها من بسالة وقوة ، وما كان يضطرم فى نفوسهم من الحرص على وجودهم ، والميل إلى العدوان على جيرانهم ، والرغبة فى تهيئة الجو الملائم لمطامحهم وآمالهم ، ولو تخطوا الحدود وامتهنوا الحقوق وانتهكوا الحرمات . ! ولم لا . . ؟ إن روما قد تولى بناءها ابن إله الحرب . . وكانت آخر وصية أوصى بها أفراد شعبه بعد أن رفعه أبوه إلى السماء أن يعيشوا عباد حرب وقتال ، وأنذرهم بسوء المصير إن جنحوا عن التزام النصيحة ـ وفى الحق لقد سجل التاريخ صدق هذه النبوءة ، فقال إن روما قد تأهبت للغروب شمسها ، وتهيأ للمغيب مجدها ، ودبت إلى جسمها الشيخوخة حين شملتها رفاهية أدت بشعبها إلى احتقار الحرب والميل عن الانخراط فى سلك الجندية ، واعتبار مثل هذه الأمور من شأن العبيد والأسرى وحدهم .

على أن الرومان قد حرصوا على التزام الوصية التى أوصاهم

بها زعيمهم مدة طويلة من الزمان ، فلبثوا يثيرون العثير في وجوه جيرانهم ، وينشرون الجزع في بلادهم ، حتى تمكنوا من الظفر بولاية « اتروريا Etruria » في شمال بلادهم ، ثم قاوموا أهل الغال الذين زحفوا من شمال نهر البو وهاجموا روما وعاثوا في أرضها فسادا ، ثم عاد الرومان إلى قتالهم وصراع من انضم إليهم من أهل اتروريا وبلاد الأغريق وغيرهم .

وكانت تارنتوم Tarentum بجنوبي إيطاليا لم تخضع للرومان بعد ، واستعانت عليهم بالأغريق ، نخف لنصرتها بيروس Pyrrhus مليك إبيروس Epirus - في الشمال الغربي من بلاد الأغريق - وصارع الرومان صراعا عنيفاً تبدت فيه شدة مراسهم وصلابة قناتهم ورصانة كفاحهم ؛ فلما واتاه النصر في موقعة هرقله ، أرسل إليهم رسله يعرضون الصلح ويطلبون إيقاف الحرب ، وعرض الرسل هذا المطلب في مجلس الشيوخ الروماني ، ومال بعض الأعضاء إلى التسليم والأذعان ، فروّع هذا الموقف « أبيوس كلوديوس كايكس » Appius Claudius Caecus وهمّ بالاعتراض نخانته قواه ولم يقوَ على النهوض ، لأنه كان رجلا مسنا حلت الشيخوخة جسمه ، وأوهن الهرم عظامه ، فحمله بعض

الأعضاء إلى منصة الخطابة ، وانطلق فى شيخوخته البادية يستفز المجلس ويستثير نخوته ، ويستنكر مرضاته عن مطالب العدو ، ويطالب الأعضاء بالامتناع عن المفاوضة حتى يتم الجـــلاء . !! ويدفعهم إلى إثارة الحرب الضروس قائلا لهم :

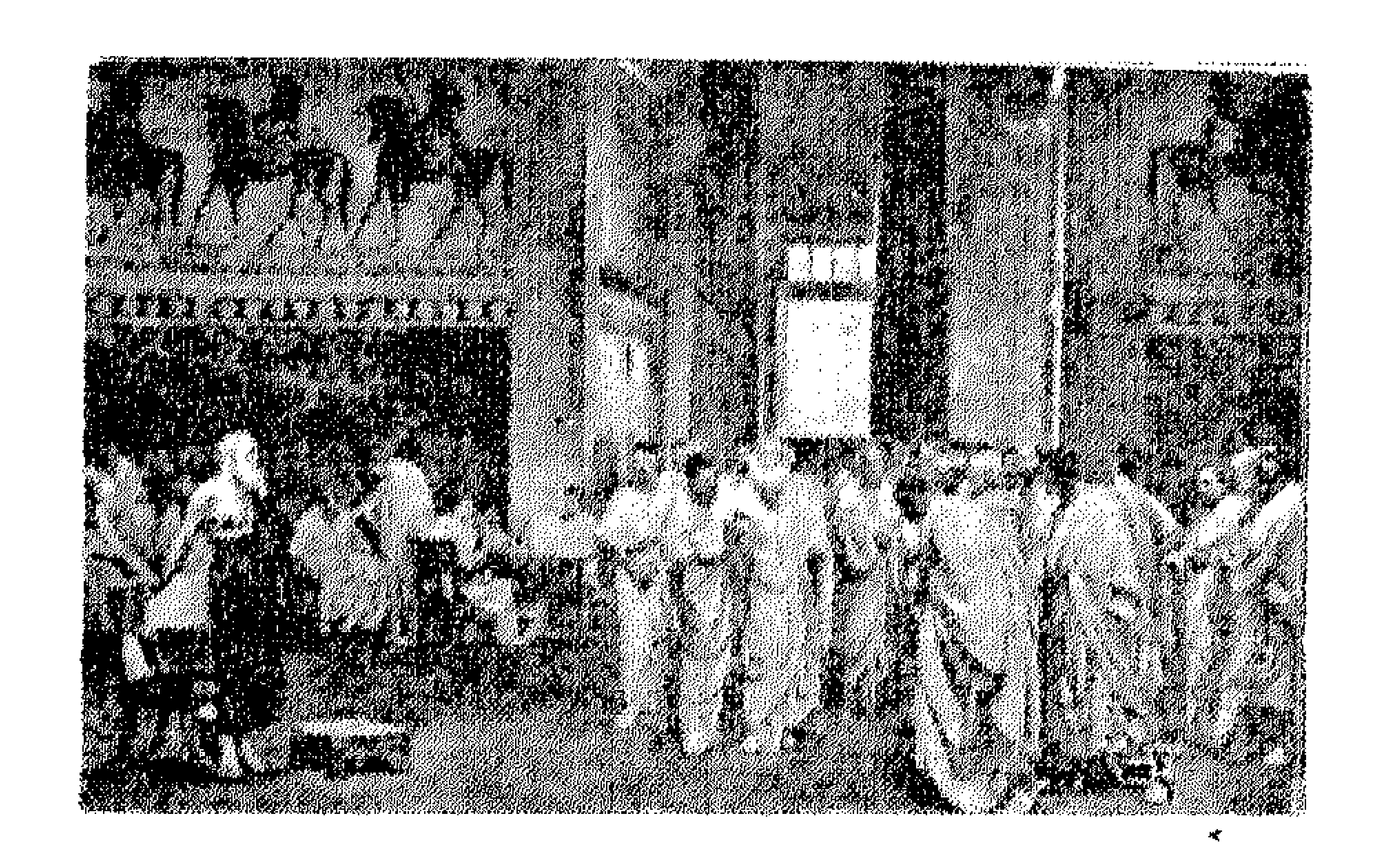
« ينبغى أن يكون ردنا على مطلب الأغريق : أن إيطاليا بأسرها ملك لروما وحدها، وروما لا تأذن لعدو من أعدائها، أن يقدم على التفاوض مع نوابها ، وقدمه لا تزال على أرضها . . . ! » (الصورة ص ٤٣)

فاستجاب المجلس لرأيه ، وعاد النضال عنيفا قويا حتى انتهى بإخفاق « بيروس » وسيادة روما على إيطاليا بأسرها

واتسعت رحاب الأمل وامتدت آفاق الطموح ، وأحست روما بأن نبوءة معبودها (روميلس) فى سيادة الدنيا بأسرها قد آن لهـا أن تتحقق . . لا بل هى قد تحققت فعلا فليس على ظهر الأرض كلها أمة تعدلها الآن قوة وعظمة ونفوذاً . . وإن أهلها لعباد حرب وأبناء نضال ، فلن يأذنوا لشعب تظله السماء أن يهدد

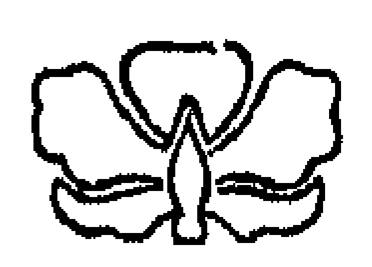
في مجلس الشيوخ الروماني :

« ابيوس كلوديوس » الطاعن في السن يحمله الاعضاء إلى منصة الخطابة ليخطب قائلا : ينبغي ان يكون ردنا على الاغريق : إن إيطاليا بأسرها ملك لروما وحدها ، وروما لا تأذن لعدو من أعدائها ، أن يقدم على المفاوضة مع نوابها ، وقدمه لا تزال على أرضها . ! »



سيـــادتهم او ينازعهم سلطانهم إلا إذا باتوا كلهم جثثا هامدة وأشلاء متناثرة . . .

وإذا لم يكن على سطح البسيطة كلها أمة تقوى على صراعهم حتى تفنيهم وتهيل التراب على جثثهم ، فأى شعب هـذا الذى سيقدر له أن يستجيب لوسوسة الشيطان الخناس وينساق أمام مطامعه ويلق بنفسه إلى جحيم النضال مع الرومان . . ؟!



هــــذا هو الشعب !

موقع قرطاجنة ـ زراعتها ـ ملاحتها ـ تجارتهـا وآفاقها ـ ملاءمة الشر لطبيعة الأقوياء ـ بعثاتها لاستكشاف المناطق المجهولة ـ مستعمراتها فى افريقيـا الشمالية ـ فى صقلية ـ احتكاكها بالاغريق فى صقليـة ـ أجاثوكل ـ بيروس ـ طبيعة القرطاجنيين

وشاء ربك أن تكون قرطاجنة أجمل ثغر على شاطىء إفريقيا الشمالية، يهيمن على اتصال الشرق بالغرب، فيبسط لأفريقيا يمناه، وينشر لأوربا يسراه، ويجمع من كليهما ما فاض عن حاجته فتحمله سفنه وتمضى به إلى حيث يشتد الطلب عليه، وتمس الحاجة اليه .

وكان نهر مجردا Mejerda ينساب على كثب من المدينة ويتدفق فى أرضها، يسقى مواتها ويمد بالحياة أرضها، فاهتزت الأرض وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

ومضى أهل هذا البلد الأمين فى ركب الحياة، منشغلين بالتجارة منصرفين إلى الملاحة، يشتد بهم الطمع ويتسع أمامهم أفق الأمل، فيضربون فى آفاق الأرض ويسيرون فى مناكبها

وينتشرون فى فضائها حتى يبلغ بهم التجوال ساحل إفريقيا الجنوبى ويستقر بهم عندما نسميه اليوم رأس الرجاء الصالح وسيراليون جنوبا ، وينتهى بهم التطواف إلى التوغل فى أسبانيـــا وفرنسا وانجلترا شمالا . . ! وقد استطاعوا بهذا أن يستوردوا العاج والجلود من لوبيا ، والعبيد من السودان ، وشجر الأرز من صور والبخور واللبان من بلاد العرب ، والنحاس من قبرص ، والحديد من إلبا ، والصفيح من كورنوول Cornwall بانجلترا ، والنبيذ من بلاد الأغريق ، والفضة من أسبانيا ، والذهب والأحجار الكريمة من جزائر ملابار Malabar والشمع والعسل من قورسيقه والراتينج من شمال إيطاليا ، والكهرمان من البلطيق ، والكبريت من صقلية . . .

وهكذا استغلت قرطاجنة خصوبة أرضها ووفرة منتجاتها ، وخبرتها بالبحرية ونبوغها فى الملاحة ومهارتها فى التجارة حتى أقبل عليها الغنى وأدركها الثراء ، ودفع طموحها للتحليق وحرك جناحيها للطيران . . . .

وإذا دبت القوة فى شعب من الشعوب اندفع بطبيعته إلى الجور على حقوق الضعفاء من جيرانه ، والسعى فى مناكب الأرض طلبا للاستعمار والعدوان ، ورغبة فى الفتك بمن لا يقوون على احتمال هجومه ، ليغتصب ملكهم ويتسلط على أموالهم وينعم

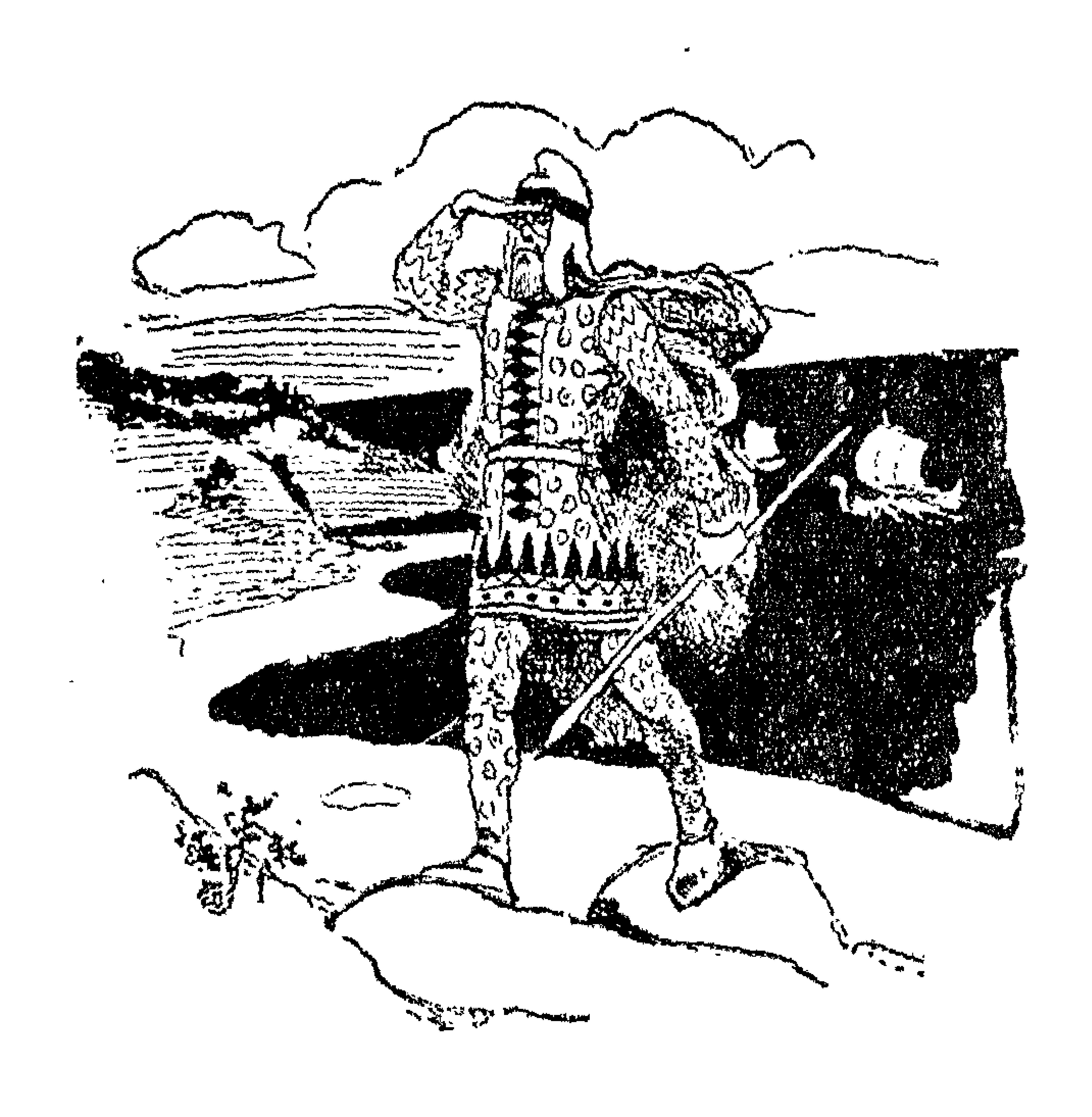
فى ظـلال خيراتهم ، ولو حاول القوى أن يحرص على حقوق الضعفاء ويلتزم حيـاة الدعة والهدوء ، لتـكلف أمراً لا تحتمله طبيعته ولا يتمشى مع فطرته .. ! فالطبيعى أن يوجد فى الدنيـا بغى وظلم واستعمار وفتك وعدوان ، وغير الطبيعى حقا أن تخلو الحياة من هذه الظواهر الـكريهة وفى الدنيا قوى وضعيف .. ! !
وقد أحست قرطاجنة ـ بعـد أن أصابت الغنى ـ بأن القوة تدب فى كيانها ، فمالت بطبيعتها إلى الجور على الضعفاء من جـيرانها ، وأرسلت بعوثها تعمل ـ بأمر الحـكومة ـ على استكشاف المناطق المجهولة ، وإقامة المراكز التجارية فى رحابها ، واستعمار البلاد الضعيفة وامتصاص الرزق من نتـاج أرضها وجهود أبنائها ، (الصورة ص ٤٩) وقد خلفوا فى معابدهم وصفاً لبعض هذه الرحـــلات وتحديد المواقع التى مروا بها ، وأقاموا سلطانهم فى ميادينها .

وقد تمـكنوا بعد حروب أثاروها فى وجه القبائل المجاورة لهم ، أن يسيطروا على شاطىء إفريقيـا الشمالى كله ـ على وجه التقريب ـ وإن أقاموا على سداد إيجار الأرض التى أسسوا عليها مدينتهم حتى جاء عصر هسدروبال وهملـكار ـ واستطاعوا أن يتخطوا البحر إلى صقلية وينشروا طيلسانهم على الجناح الغربى منها ، فيدر عليهم الخير الوافر والرزق الواسع .

وقد كانوا في استعمارهم قساة غلاظ الأكباد ، لا يحتلون بلدا إلا فرضوا الذل على أهله ، ووضعوا يدهم على كافة ماتنتجه أرضه ، وأخذوا يمتصون ماله ويرتشفون خيراته ، حتى يصيبه الفقر ويدركه الضنك ، فدرت عليهم هذه الطريقة الذهب الكثير والمال الطائل - وإن دفعوا ثمنها باهظا حين شغلتهم الحروب مع أعدائهم الأقوياء فيما بعد .

وقد تهيأ لقرطاجنة هذا السلطان الواسع النطاق دون أن يكون لها جيش من أبنائها ، يتولى الذود عن كيانها ، والسعى لتحقيق أطماعها ، فقد كانت تعتمد - كما ألمعنا من قبل - على الجنود المرتزقة تستأجرهم بالمال ، وترسلهم إلى الميدان حتى إذا وضعت الحرب أوزارها ، سرحت الجيش وعاشت قانعة بقوة من الشرطة تقوم بحفظ الأمن العام ...

ولكن لا ينبغي أن ننسى أن هذه الجنود المرتزقة كانت تواقة للدم نزاعة للشر محبة للقتال ، ولهذا كانت خطرا يهدد الأعداء ... وبقوتها سارت قرطاجنة في مشارق الأرض ومغاربها حتى انتشر اسمها ، وعلا في الآفاق ذكرها ، واستقر في مختلف البقاع سلطانها .



وانتشرت بعوث القرطاجيين فى مناكب الأرض لاستكشاف المناطق المجهولة ، واستعمار البلاد الضعيفة ، وامتصاص الرزق من نتاج أرضها وجهود أبنائها .

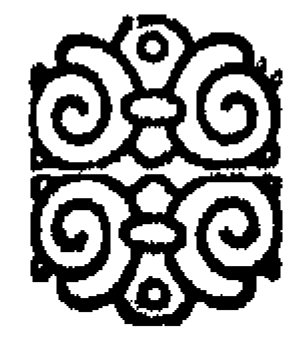
وقد عرفت أن قرطاجنة قد عبرت البحر إلى صقلية واستقرت في جناحها الغربي . ولكن الأغريق قد خفوا ـ بعد قرنين من الزمان ـ إلى صقلية وراحوا ينشرون على أرضها علمهم، ويخضعون مدنها وثغورها لسلطانهم ، ثم ساروا غربا وهددوا الجناح الصغير الذى تسوده قرطاجنة ، فانتظرت هـذه حتى إذا هاجم الفرس بلاد اليونان ، اغتنمت الفرصة واشتبكت مع الإغريق في صقلية في قتال عنيف ، طال أمده واشتد عذابه بين انتصار وإخفاق ، ويأس ورجاء ، حتى تولى أمر الإغريق أجاثوكلس Agathocles ولازمه النصر حتى فكر في غزو قرطاجنة ، فمضى إليها وقرع أبوابها وشدد الحصار على أهلها وكاد أن يلزمها طاعته ، ولكن القرطاجيين دحروه وأكرهوه على التفكير في الهرب ، وعلم بذلك جيشه فثار عليه وتولى قتله انتقاما لنفسه . .

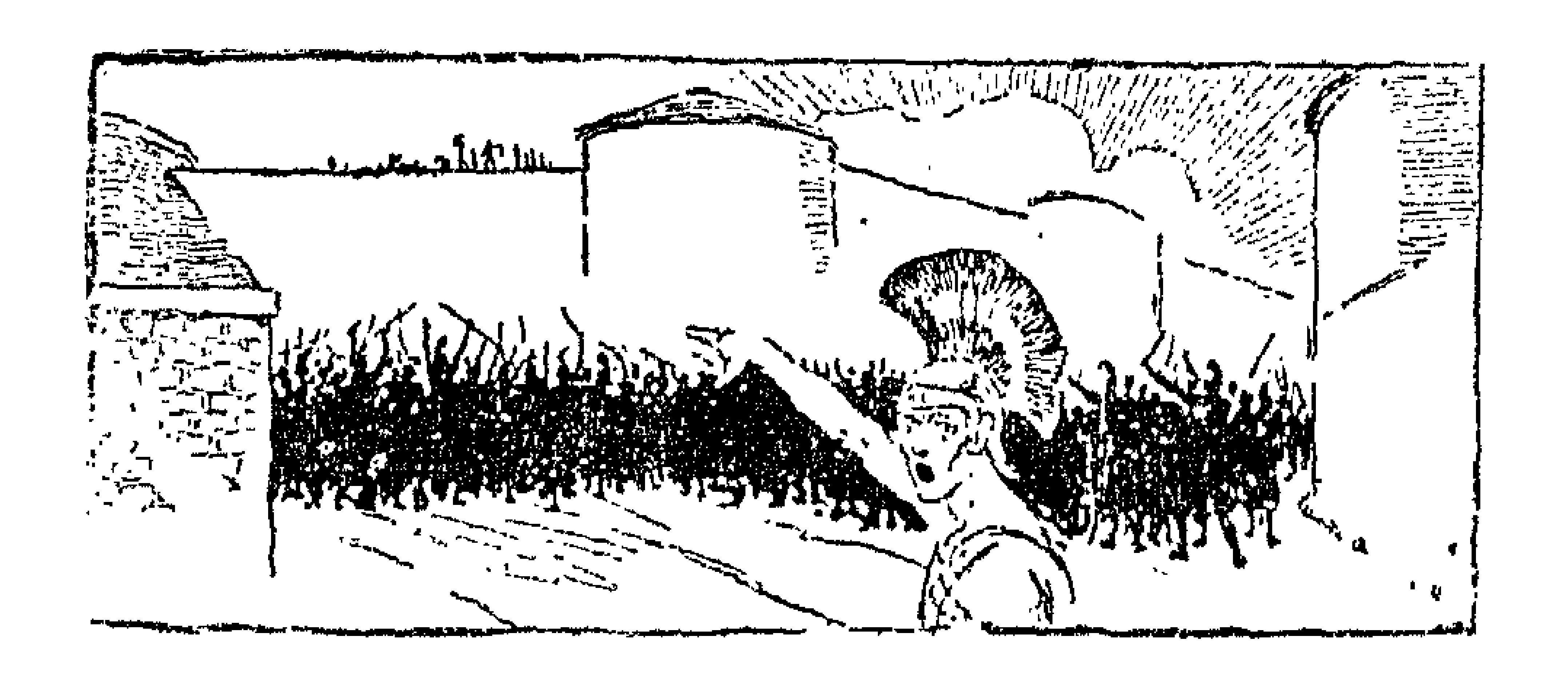
ثم قاومت قرطاجنة أقوى قادة الإغريق وأخطرهم شأناً : « بيروس » Pyrrhus الذى كان لا يقنع بما أصاب سلفه الأسكندر الأكبر من مجد وما استحوذ عليه من نفوذ ، ويأبى إلا أن ينشر على الدنيا بأسرها سلطانه ، ودامت الحرب بينه وبين القرطاجيين في ميادين صقلية حتى انتهت بإخفاقه واضمحلال آماله . فعاد إلى إبيروس ـ إحدى مقاطعات الأغريق ـ مغيظا محنقا .

ودب الغرور فى قرطاجنة وملأ أهلها شعورا بالقوة واعتزازا بالنفس واطمئنانا من خبايا المستقبل .

* * *

وبهذا وجد الشعب الذى تدفعه طبيعته وتسوقه ظروف حياته إلى نضال الرومان . . . حقيقة هو شعب تجارى يتخذ الحرب أداة لفتح الأسواق واستعمار البلاد وجلب الذهب وتهيئه الجو المشبع بالغنى والثراء ، ولكنه يستطيع بأمواله الطائلة أن يستأجر من الجيوش الجرارة ما يكفل له السيادة ويضمن لسلطانه الذيوع ويهدد الرومان بالويل العظيم والشر المستطير . . ولكن أين يكون احتكاك الشعبين . . ؟؟





والتقت عند أرض صقلية مطامع المدوين . . . . فويل للمغلوب . .

أصلح الميادين للاحتكاك

إخفاق بيروس ـ خواطره يوم أقبـل على صقلية ـ محاورته مع سنياس الفيلسوف ـ موقع صقليـة بالنسبة لقرطاجنة ـ خطورتها على روما ـ معاهدات الود بين القرطاجيين والرومان

انطلقت السفينة تمخر المـاء وتشق العباب حاملة بيروس Pyrrhus بعد أن استنفد الجهد فى الظفر بصقلية ، واستفرغ الوسع فى التسلط على موارد الرزق فى مدنها ، والتمتع بخصوبة أرضها ووفرة نتاجها واعتدال جوها والانتفاع بموقعها ، ولـكنها امتنعت عليـه فارتدّ إلى بلاده كسيح الأمل واهن الرجاء ـ على نحو ما عرفت من قبل .

مضت السفينة فى طريقها ورأسه يزدحم بذكريات جهاده وصراع أسلافه من حكام الإغريق وقادتهم، طافت بخاطره آماله يوم أقبل على هذه الجزيرة موفور الرجاء فى امتلاكها والتسلط بعدها على قرطاجنة وروما، والظفر بسيادة الدنيا وجعلها فى حوذة الإغريق . . . وإنه ليذكر المحاورة الممتعة التى دارت بينه وبين ناصحه الفيلسوف سنياس Cineas ويذكر كيف حاول هذا أن يصور له الحياة أبسط مما يفهمها أهل الحرب وعباد النضال، ليثنى عزمه عن السعى لتحقيق هذا الحلم الذى يطوف بخاطره ويشغل قلبه وعقله معا(١)

---

(١) لا بأس من أن نورد المحاورة فى إيجاز :

سنياس — إن الرومان يامولاى أهل حرب وأبناء نضال ، وإن علمهم ليخفق على بقاع رحبة الآفاق ، فلو قدر لنا أن ندحرهم ونلزمهم طاعتنا فماذا نفيد من وراء انتصارنا . .؟

بيروس — سؤال سهل الجواب، لن يقوى على الوقوف فى وجهنا بعد اندحارهم اغريق ولا برابرة ، فنسود ايطاليا بأسرها من غير منازع ، ونصيب ثراءها الطائل ، ونحمل اسمها الذائع ، ونتمتع بعظمتها الفنية . .

سنياس — (بعد صمت قليل) وإذا استولينا على ايطاليا كلها فماذا تفعل بعد يا مولاى . . ؟

بيروس — على مقربة من ايطاليا تقوم « صقلية » وهى تنشر

إنه ليذكر هذا ويلتفت وراءه فتصافح عينه شواطىء صقلية وهى تهمّ بالاختفاء عن ناظريه ، فيردّ بصره وقد اهتز كيانه من فرط الأسى وفيض الألم ولذعة الإخفاق ، قائلا لرفاقه :

« ما أروعها من حلبة للصراع، نتركها بين قرطاجنة وروما »

وكانت صقلية تمتاز - إلى جانب ما أسلفناه لك فى مستهل هذا الفصل - بموقع لا نظير له فى ربط أوربا بأفريقيا وتيسير الاتصال بينهما ، وهذا هو الذى استهوى قرطاجنة وملأ قلوب أهلها بالرغبة فى امتلاكها ، ليتيسر لهم إقرار السلطان التجارى

ذراعيها لاستقبالنا ، وهى على ما تعرف من عظمة وثراء ، ثم هى فى اضطراب واضح منذ مصرع أجاثوكل - تعوزها الحكومة وينقصها القادة . .

سنياس - إذا قدر لنا يامولاى أن ندحر صقلية و ننشر على أرضها علمنا ، أتقف حروبنا عند هذا الحد . . ؟

بيرس - إن السماء لتبارك جهودنا ، فما الذى يمنعنا من المسير الى افريقيا ، ونشر سيادتنا على قرطاجنة نفسها . . ؟ واذا تهيأت لنا سيادة هذا البلد عدت الى بلاد اليونان وفرضت سيادتى على الاغريق جميعا . .

سنياس - من غير شك . . . ثم ماذا بعد . . ؟

فضحك الملك وقال : ثم نهدأ بعد هذا ونستريح . .

فأجابه الفيلسوف - وما الذى يمنعك يا مولاى من أن تهدأ الآن وتستريح . . . !

وتمكين السيادة البحرية ، فكافحوا الإغريق هذا الكفاح الممض الذى ألمعنا إليه من قبل ، ثم امتلأوا بعد النصر إحساسا بأنهم أحق شعوب الأرض قاطبة بامتلاك صقلية بأسرها . . . ولكن صقلية لا تبعد عن شواطىء إيطاليا أكثر من ميل أو ميلين ، فاذا استطاعت قرطاجنة أن تظفر بها وترفع العلم فوق أرضها فقد هددت روما فى إيطاليا وأنذرتها بسوء المصير .

وحقيقة إن قرطاجنة كانت على وفاق مع روما منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، وأن الصلة بينهما فى صقلية كانت تقوم على معاهدة من الود قد كفلت لكلتيهما الطمأنينة والأمان ، ولكنا نعرف أن المصلحة وحدها هى التى تحدد آجال المعاهدات وتتحكم فى علاقات الشعوب .

* * *

قرطاجنه فى مقتبل فتوتها ، وروما فى مستهل شبابها ، وصقلية ـ مفتاح السيادة ـ لا تبعد عن الأولى أكثر من خمسين ميلا ، وعن إيطاليا أكثر من ميلين . . فالنضال بين هذين الشعبين قد أصبح قضاء لا مفر منه ولا حيلة فى رده . . وكان بيروس على حق يوم قال لرفاقه :

« ما أروعها من حلبة للصراع نتركها بين قرطاجنة وروما » .

* * *

عرفنا الآن أصلح ميدان لبقر البطون وفصل الرؤوس وإزهاق النفوس وإهراق الدماء ، وبقى علينا أن نعرف السبيل إلى احتكاك الشعبين ، أو الظرف الطارىء الذى يهيء الجو لهذا الكفاح المنتظر :



كيف احتك العدوان

اللذة الفنية فى فعل الشر ــ قطاع الطرق فى مسانا ــ حصار « هيروس » لهم ــ انقسامهم حزبين ــ التماس النجدة من قرطاجنة وروما ــ روما بين التردد والاقدام ــ مسارعة قرطاجنة الى ارسال النجدة ــ اجتماع أهل مسانا للمشاورة فى أمرهم ــ القبض على قائد الاسطول القرطاجنى ــ انتصار الرومان ــ عودة القتال ــ انضمام « هيروس » لروما ــ حصار أجريجنتوم ونجدة قرطاجنة ــ بناء أول اسطول رومانى ــ بدء الصراع على أديم المـاء

كان فى جزيرة صقلية آلاف من الجنود المرتزقة الذين انحدروا عن أصل إيطالى ، وقـد كثر عديدهم واشتد بأسهم حتى خافتهم الحـكومات ، وخشى النـاس شرهم ، لا ينتظمون فى الحرب عن فقر ومسغبة ، بل رغبة فى إشعال نارها ، وميلا إلى خوض غمارها ، فلما عزّ عليهم إشباع رغبتهم فى أوطانهم ، خفوا إلى القتـال فى جانب روما أو فى صف قرطاجنة ، فى سبيل أجر يتناولونه ، أو أملا فى نصر يصيبونه ، فلما مات طاغية هذه الجزيره « أجاثوكل »

Agathocles الأغريق ، أعلن الاستقـلال منهم من كانوا فى خدمته ، وانطلقوا يعيثون فى الأرض فسادا ، ويتبارون فى إلقاء الرعب فى قلوب الناس ، فهبطوا مدينـــة « مسانا » Messana ووزعوا شرورهم على أهلها فى غير شح ولا تقتير . ثم استبدلوا بها كل ما أصابته أيديهم من غنائم وأسلاب ، وتقاسموه فيما بينهم - والدنيا للأشرار .. هم أقدر من الأخيار على ملاقاة التيار وخوض العبـاب ومكافحة اللجة الطامية ، والضرب فى الزحمة المزهقة . وصيحتهم تعلو - وإن قـل عديدهم - على صوت الأبرار ، لأن الفوز فى الدنيـا للجرأة والإقدام والتبجح ، وحظ الأشرار من هـذا أوفر من حظ الأطهار . . وقد تثور الأقدار على الأشرار فتعجل حسابهم وتسارع إلى تعذيبهم ولماتزل الدنيا مستقراً لهم..!

وهكذا قيضت الأقدار لقطاع الطرق الذين أنزلوا « بمسانا » شرهم قائداً جريئـا هو « هيرو » Hiero - حاكم سيراكـوز Syracuse إحـدى مدن الجزيرة - وسلطه عليهم فتطلعوا إلى النجدة - وكانوا حزبين يختصمان فى غير رفق : تجنح الرغبة بأحدهما إلى الاستغاثة بروما ، ويميل ثانيهما إلى طلب النجدة من قرطاجنة، فسارع الأول إلى الاتصال بالرومان وأعلن خضوعه لهم ملتمسا

معونتهم ، فحار الرومان فى هـذا المطلب الجديد ، وترددوا فى الاستجابة له ، لأنهم كانوا قانعين بسيادتهم لإيطاليا ، لا يرغبون فى التسلط على ما وراء شواطئها جنوبا ، ولا يميلون إلى تعريض جيوشهم لأهوال الحرب فى صقلية ، فكانت هذه القناعة من جانبهم غير طبيعية لا تتفق مع دولتهم الفتية ، ولا تلائم موقفهم الدقيق من قرطاجنة ، وإن كانت تتناسب مع طبيعة الاتزان الذى لازمهم فى شتى مراحل حياتهم ، ولم يفارقهم حتى فى أمس الأوقات حاجة للتطير والجزع

فكر الرومان فى أن يتجاوزوا حدود إيطاليا بعد أن بلغتهم دعوة الأشرار ، وخافوا إن هم رغبوا عن إجابة المطلب أن تسارع قرطاجنة إلى التسلط على « مسانا » وتخطيها الى سيراكوز لتنشر طيلسانها على صقلية بأسرها ، وتصبح مصدر الفزع للرومان ومبعث القلق الدائم . . ولكنهم ـ رغم هـذا ـ لم يتسرعوا فى بحث المطلب وشغلوا به مجلس الشيوخ جلسات طوالا رأى فيها الأعضاء شبح قرطاجنة الرهيب ينذرهم بالشر ، ويسلط عليهم الوهم والجزع .

ولما كانت روما فى هذه الأيام على مودة مع « هيرو » الذى

يتولى حصار هؤلاء الأشرار، وكان مجلس الشيوخ لا يميل إلى التحالف مع شراذم من قطاع الطرق، فقد أطال النظر فى إجابة المطلب حتى تخطت المسألة جدران المجلس، وساهم الشعب فى بحثها فلم يتردد فى الموافقة عليها والدعوة لها. وعلى هذا استقر الرأى العام فى روما. وسارت النجدة إلى قطاع الطرق . . .

أما الحزب الثانى من الأشرار فلم يسلم بموقف خصمه وأرسل فى طلب العون من قرطاجنة، وسرعان مارحبت بالدعوة وخفت إلى إجابتها وأبحر أسطولها إلى الميناء، وحط جيشها على قلعتها قبل أن تبلغها نجدة روما، وعقد القرطاجيون مع « هيرو » صلحا توقعوا بعده نصرا مبينا . . فعقد أهل المدينة اجتماعا للنظر فى أمرهم، والتشاور فى مصيرهم، والتعرف إلى وجه الحق فى موقفهم وموقف الشعوب المختصمة منهم، فحضر الاجتماع قائد الأسطول القرطاجنى رغبة فى صيانة الصلح الذى عقد مع « هيرو » وحرصا على سلامة نصوصه، إذ كان يخشى أن يثور المجتمعون به، ويعلنوا احتجاجهم عليه، وعصيانهم له، وتطوعهم للدفاع عن أنفسهم، وبذلك يقوى جانب روما ويشتد أزر من تولى دعوتها من الأشرار، فهاج المجتمعون لمرآه، وثاروا فى وجهه وقبضوا عليه . . فأما زميله « هانو » Hanno قائد الجيش

فقد قبل تسليم القلعة بشرط أن يأذنوا له في العودة إلى وطنه على رأس جنده . . ! وأثبت القائدان ـ بهذا الموقف ـ أنهما قصيرا النظر تعوزهما الحكمة ، وينقصهما العزم .

وبسط الرومان سيادتهم على « مسانا » من غير ثمن . . . باهظ أو رخيص . . !

فأحنقت هذه الهزيمة أهل قرطاجنة ، وساءهم من قائدهم « هانو » قصر نظره واعوجاج مسلكه وسوء تقديره ، مما أدى إلى انتصار العدو من غير جهد ولا مشقة ، فعمدوا إلى تعذيبه ـ وكانت هذه عادتهم مع من يخطئه التوفيق من قادتهم ـ ثم حاصروا المدينة حصاراً شديداً ، وكان الرومان يميلون للانسحاب لو وافق « هيرو » على إبقاء اللصوص الذين أسلفنا الحديث عنهم من غير إقلاق ولا إزعاج ، فلما رفضت شروط الصلح الذى تقدموا به سارعوا إلى إعلان الحرب وأنزلوا « بهيرو » هزيمة شفعوها بنصر على الجيش القرطاجنى حتى اضطر إلى رفع الحصار..!

ولكن قرطاجنة قد أبت الاستكانة للهزيمة ، فأرسلت جيشاً لجباً وأشعلت النار من جديد ، واختار « هيرو » الجانب الأقوى فسارع للانضمام إلى روما ، وأضحى من أشد حلفائها

تأييداً لها وانتصاراً لقضيتها . . ! وتبعه فى ذلك كثير من مدن قرطاجنة وصقلية . .

ومضى الرومان إلى أجريجنتوم Agrigentum - وكانت قرطاجنة قد جعلتها قاعدة أعمالها الحربية ، ومستقر ذخائرها ، ومستودع آمالها - فحاصروها حتى أدرك جيشها القحط ولحق به السوء ، فلما أرسل إلى قرطاجنه يطلب المدد ، أرسلت إليه الفيالق تترى ، واشتعلت نار حمى وطيسها وطال عذابها وكثرت ضحاياها ثم خمدت بعد حملهم على جناح الخيال ، وحلق بهم فى فضاء الأمل العريض وأشرف بهم على قرطاجنة ، وكشف لهم عن مدى الخطر الذى ينتظرهم على يدها ، فأحسوا بأنهم لا يملكون العيش الرغيد والمستقبل السعيد ما تنفس هذا العدو الحياة إلى جوارهم ، فكم كانوا يخشون على شواطئهم وهى ملك لهم من هجمات أسطوله واعتداءاته ، فكيف يفكرون فى استعمار جديد وهم لا يأمنون على أنفسهم عاديته . . ؟ فجنحت بهم الرغبة إلى بناء أسطول يقاوم قرطاجنة - أميرة البحر - وينزل بأسطولها الشر ، ولكن أين هذا الأمل العريض القلق من أسطول قرطاجنة الذى يلاطم اللجة الطامية ، وينثر الرعب فى النفوس ، ويلقى الرهبة أينما حل وأنى كان . . ؟ لقد كانت سفنه من النوع الضخم ذى الخمس

(أو الثـلاث) طبقات Five-banked vessels بينما لا يملك الرومان سفينة صغيرة . . !

وشاءت الأقدار أن تسوق عاصفة شديدة عاتية إحدى سفن قرطاجنه إلى شواطىء الرومان ، فتقع تحت يدهم فى وقت قد اشتد فيه الظمأ إلى بناء أسطول ينشر طيلسانهم أنّى اتجهت رغبتهم وحيثما مالت بهم مطامح الوطن ، فاتخذ الرومان هـذه السفينة نموذجا يبنون أشباها لها حتى توافر لهم فى بضع أسابيع - لعلهـا لم تتجاوز الأربعة - مائة سفينة من هذا النوع الضخم ، وعشرين من ذات الطبقات الثلاث - ولم يكتفوا بتقليد النموذج ومحاكاة أجزائه ، بل أضافوا إلى سفنهم من الأدوات ما مكنها من تعطيل حركة السفن المعادية ، والظفر بها إن اشتبكت معها فى صراع ..!

وسرعان ما واجه قرطاجنة هذا الأسطول الجديد ، فألقى فى نفوس قادتها الدهشة وأشاع فى كيانهم القلق . . واشتبك مع أسطولها فى ما يلى Mylae سنة ٢٦٠ ق . م فإذا سفنها الأمامية فى قبضته تحاول الخلاص على غير جدوى ، حتى التمس قائدها سبيل النجاة بما بقى له من بوارج ، وعاد إلى وطنه حيث استقبله الشعب استقبالا يليق بهزيمته ، فقبض عليه وصلبه وتولاه بعذابه . . !

الرومان فى إفريقيا

. موقعة إكونومس . « هانو » يطالب مواطنيه بالتأهب للقاء العدو — قيادة الاثرياء لحركة الدفاع — انتصار رجيلس Regulus — حلفاء قرطاجنة ورعاياها يتمردون على حكمها . شراء النصر بالمال . « رجيلس » فى سجون قرطاجنة خمس سنوات — انتدابه سفيرا لمفاوضة قومه — يقسم على العودة من تلقاء نفسه — يطالب مجلس الشيوخ باثارة الحرب — المجلس يقرر بطلان القسم — رجيلس يخطب فى مجلس الشيوخ مستنكراً تملص الاعضاء من قدسية العهد — رجيلس بين القلب والواجب — انتقام زوجته . موقفه بين الخلق والمنطق .

أسكرت روما أنباء النصر ، فاعتزمت أن تشعل الحرب فى شمالى إفريقيا ، لتهاجم العدو فى وطنه ، وتصب فى قلبه نارها وعذابها ، وهيأت لذلك أسطولها وحشدت جموعها وتأهب القرطاجيون للقائها عند رأس إكونومس Economus فى شاطىء صقلية الجنوبى ـ ودات معركة دامية انتهت باستيلاء الرومان على أربع وستين بارجة بملاحيها، وغرق مائة سفينة لقرطاجنة، وفرار بقية الأسطول فى شتى المناحى ملتمسا النجاة من جحيمه . فأما

الرومان فلم يفقدوا غير ست وعشرين سفينة غرقت جميعها . .

ولم يبق على روما بعد هذا النصر إلا مهاجمة العدو فى دياره ، فسارع « هانو » إلى قرطاجنة وطلب إلى مواطنيه أن يهيئوا أنفسهم للدفاع قبل أن ينزل بهم الشر الزاحف والخطر الداهم ، وكانت قرطاجنة قد خسرت بقسوتها محبة رعاياها وخلفتهم على أهبة الثورة فى وجهها ، وأصبحت بعد فقدان ممتلكاتها ضعيفة لا عون لها ولا حول تدفع به عن نفسها ـ ولو سارع الرومان إلى حصارها بعد المعركة الأخيرة من غير تباطؤ . لكان من المحتمل أن يستولوا عليها ، ويفرضوا سلطانهم على أبنائها من غير جد ولا عناء . ولكن الغنائم والأسلاب خدعتهم وفوتت عليهم فرصة لا تعرض فى حياة الشعوب إلا لماماً .

وكان الأثرياء لا يحتملون هذا العدوان الذى أنزله بهم الجيش الرومانى حين اعتدى على أملاكهم وسلب أموالهم واستباح حرماتهم ، فكانوا ينادون بالقتال ويطالبون الانتقام العاجل عن لهفة وشغف ، واستجاب الشعب لدعوتهم وخف إلى الميدان ، يدفعه الأقدام ويحفه الأمل وتحوطه الرهبة ، ولكن قائده « هملكار Hamelcar أخطأ فعسكر فوق تل على كثب من المدينة

فاض نصف قوته ـ فيلة وخيلا ـ معطلا لا يقوى على الحراك فوق هذا التل ، وفطن لهذا رجيلس Regulus قائد الرومان ، فتقدم لحصار التل ، وأنزل بمن يعتلونه هزيمة أعقبها الاستيلاء على مكان لا يبعد عن قرطاجنة بأكثر من خمسة أميال . . !

وترامت إلى الأفق البعيد أنباء النصر ، وحلقت فوق رعايا قرطاجنة وحلفائها ، فأوحت إليهم بالثورة فى وجهها ، وشرع الأفريقيون فى نهب ممتلكاتها ، واستباحوا حماها بشراهة لم تتوفر عند الرومان ـ ألد من تحمل الأرض لها من أعداء . ولم يبقَ لهذا الشعب إلا مدينته الزاخرة بجموع الهاربين الذين أقبلوا عليها من شتى البقاع المجاورة ، وكان القحط ينذرها بشره وويله . .

وكان رجيلس قد خشى أن تنقضى سنة خدمته قبل أن تزفر الحرب نفسها الأخير ، فأرسل فى طلب الصلح من قرطاجنة ، فاستجابت له وخفت إلى التعاقد معه ، ولكن البطل قد تشدد فى وضع نصوص الصلح مخافة أن يأبى المجلس فى روما إقرارها.. فأعلنت قرطاجنة رفضها للشروط المجحفة معتزمة أن تستميت فى الدفاع اتقاء لما قد يحيق بها من شر ويحط عليها من عدوان . .

وكان التردد فى التضحية إيذاناً بالهوان المقبل والذل الزاحف الجيش يعوزها والعدو على أبوابها ، فلوحت بثروتها الطائلة ، للجنود المرتزقة ثم صبتها فى جيوبهم عن غير شح ولا تقتير ، فانهالوا عليها وانتظموا فى صفوفها للدفاع عن كيانها ، وكان بينهم اكزانثيبوس Xanthippus وهو قائد وفد على قرطاجنة من أعظم مدرسة فى الدنيا لتخريج رجال الحرب وأهل المعمعة «اسبرطه» فلما بلغته قصة الهزائم التى حاقت بهذا البلد رغم ما توافر له من قوات جبارة ، أعلن لأصدقائه أن مصدر الهزائم عوز فى مهارة القادة ، ونقص فى خبرتهم الحربية واضطراب فى طريقة تنظيمهم للجيش وملاقاتهم للعدو ، ثم شرع فى تدريب الجند وتهيئتهم للقتال ، وإذا به يستثل إعجابهم به وإكبارهم له ، ورغبتهم فى الانضواء تحت علمه ، فقاد هذا الجيش وقد بلغ عديده اثنى عشر ألفاً من المشاة وأربعة آلاف فارس وعدداً ضخما (يبلغ المائة) من الفيلة ومضى بهم جميعا إلى ساحة القتال .

واضطرمت نار الحرب ، فصرع العدو وأهلك من رجاله اثنى عشر ألف مقاتل وطارد ألفين من الفارين ، وأسر نصف ألف وألقاهم فى غياهب السجون ـ وكان بينهم « رجيلس » بطل

روما الذى أصاب من سمو النفس ويقظة الضمير وقداسة الكرامة أوفر نصيب . . ولما انطفأ نجم طالعه فى زحمة الهزيمة الأخيرة ، زج به أعداؤه إلى السجن فاستقر فى ظلامه خمس سنوات طوال . . !

وقيل إن قرطاجنة قد انتدبته سفيراً يفاوض باسمها قومه ، فأرسلته فى وفد يطلب فى جملة مطالبه إيقاف الحرب وافتداء الأسرى أو استبدالهم ، وأذنت له فى ذلك بعد أن أقسم ليعودن للأسر من تلقاء نفسه إن ضل سبيل التوفيق فى مسعاه - أملا فى أن يضعف هذا القسم من شدة قومه ، ويدفع بهم إلى التسليم بمطالبه ، حرصا عليه واتقاء للشر الذى ينتظره . .

فلما أقبل البطل على مجلس الشيوخ فى روما امتنع أول الأمر عن دخوله ، معتذراً بأنه أسير قرطاجنى لا حق له فى حضور الجلسات . . ! ثم وقف تحت قبة المجلس استعداداً لأداء رسالته . ولكنه استحيا أن يطلب الصلح مرضاة لعدو يكرهه ، ويرجو اليوم الذى لا يسمع فيه صوته ولا يرى فيه رسمه ، فنادى فى المجلس باستئناف الحرب حتى يتيسر للوطن أن يملى شروط صلح ميمون تتناسب مع سلطانه ولا تمس أطماعه بسوء !

ورحب بنصيحته الأعضاء الذين آذاهم كفاح العدو وملأهم ضيقابه ورغبة فى الانتقام منه . .

ولكن « رجيلس » قد أقسم ليعودن إلى قرطاجنة أسيراً من تلقاء نفسه إن أخفق فى مسعاه . وها هو ذا قد أقبل على قومه وامتنع عن مفاوضتهم فى الصلح وتمادى فطالبهم باستئناف القتال فماذا هو فاعل فى يمينه إذن . . ؟

ولكن ماله والتفكير فى يمين أقسمها تحت تأثير طغيان العدو الجائر ، وبطش الآسر الظالم . . ؟ هكذا يقول مجلس الشيوخ فإذا تطلع أعضاؤه إلى كبير الكهنة الجالس بين صفوفهم يمثل الدين ، ألفوه راضياً عن رأيهم مغتبطا بموقفهم . .

وليس فى هذا الأفتاء ما يستدعى الدهشة أو الرزانة ، فإن الشعوب إذا اضطرمت بينها نار القتال واندلعت ألسنتها ، كان من حقها أن تثور على بعض الفضائل التى تعارف عليها الناس فى وقت السلم . .

وكان « رجيلس » على علم بما ينتظره فى قرطاجنة من عذاب أليم إن ألقت به الأقدار فى يدها ، وإذا كانت تصلب قائدتها الخاسرين وتسومهم عذابها وتصليهم نارها ، فإن انتقامها من

أسراها الذين يحبطون خططها لأشد هولا وأكبر ويلا . .

وإذا كانت غضبة الضمير تصدر عن الشعور بسلطان العرف ـ كما يذهب بعض العلماء ـ فها هو ذا الجمهور قد أفتى ممثلا فى برلمانه ورئيس كهنته بسقوط اليمين الاضطرارية . .

وإذن فليهدأ « رجيلس » بالا وليقر نفسا وليطمئن ضميرا فلا وزر عليه ولا جناح . .

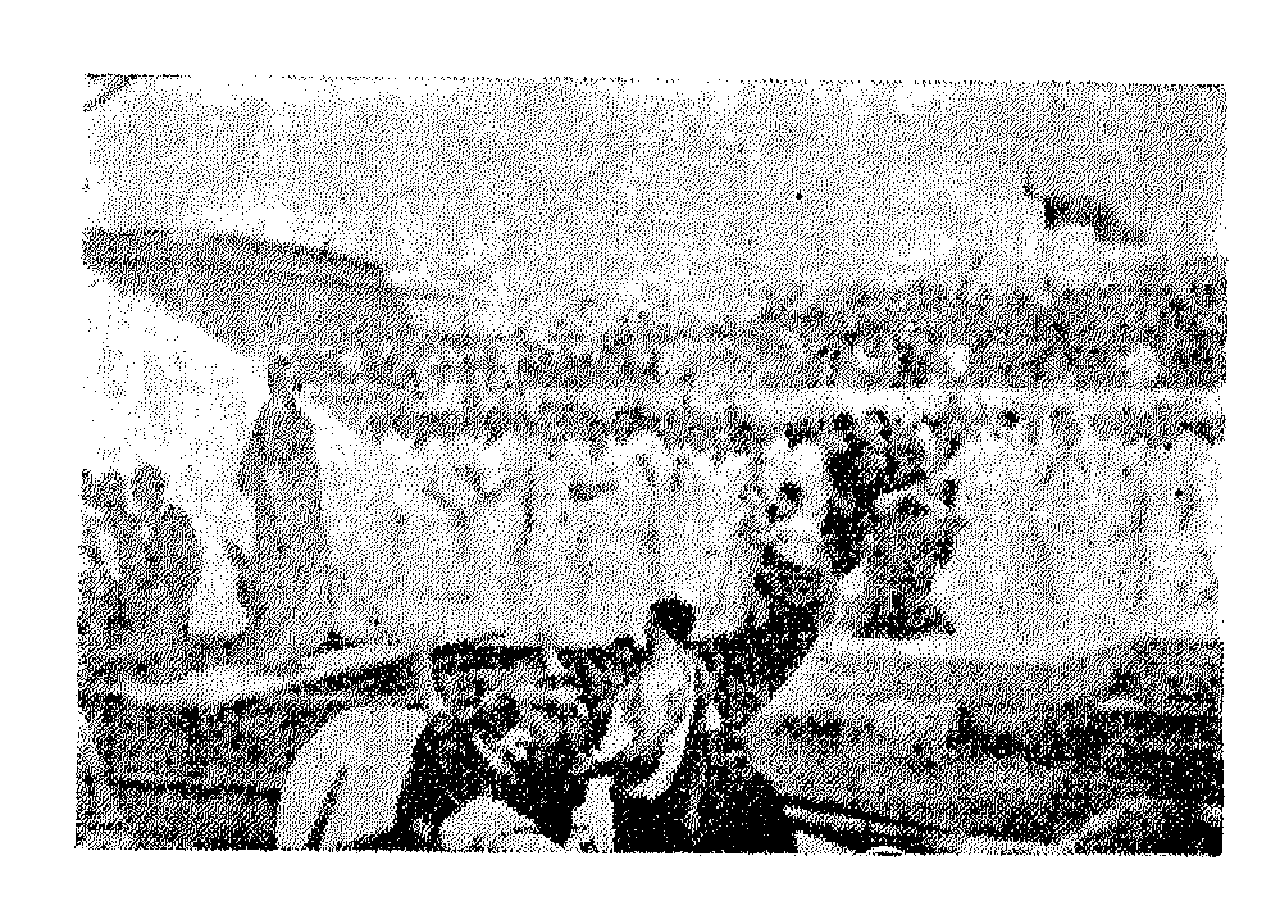
ويستقر المجلس عند هذا الرأى السديد والحل الموفق استمرار الحرب ورفض تبادل الأسرى أو افتدائهم ، وسقوط اليمين الاضطرارية :

فإذا انتهى الأعضاء إلى هذه النتيجة فقد أطلق البطل لسانه يجلجل فيهم كالرعد قائلا لهم :

« **أو أجمعتم اذن على فضيحتى** . . ؟ أنا لا أجهل أن العذاب الأليم فى عودتى ، والموت الرهيب فى انتظارى . . ولكن ما العذاب وما الموت إذا قيسا بخسة النفس وضعة الضمير وخلف الوعد وجرح الكرامة . . ؟ ! إنى وإن كنت الأسير فى زمرة الأعداء ، لأحمل بين جنبي نفس رومانى ، وقد أقسمت أن أعود فقد وجبت على العودة وأصبحت فرضاً لازبا وقدرا محتوماً . .

فى مجلس الشيوخ الرومانى :

« رجيلس » يخطب : « أو أجمعتم على فضيحتى . . . . ؟ . . . انى وان كنت الاسير فى جماعة الاعداء ، لاحمل بين جنبى نفس رومانى . وقد أقسمت أن أعود من تلقاء نفسى ، فقد وجبت على العودة وأصبحت قدرا محتوما . . »



فلأرجعن إلى الأعداء ولتفعل السماء ماتشاء . . !(الصورة ص٧١)

فأيقنت زوجته بانعقاد نيته على البر بيمينه والرضا بهلاكه ، مرضاة لضميره واستجابة لشرفه ، فهالها أمره وأحنقها مصيره ، وتقدمت إليه ضارعة تسكب على قدميه دمعها ، وتلتمس منه البقاء مرضاة لولديها ، ولكنه أشاح عنها بوجهه ، ومضى إلى لقاء موته . . !! (الصورة ص٧٣)

فإذا بلغ قرطاجنة ونبئت بما كان من أمره تولته بعذابها فى وحشية بالغة حتى نفدت أنفاسه وأسلم روحه . .

وكان مجلس الشيوخ فى روما قد سلم زوجته أسيرين من اشراف قرطاجنة رهينة عندها ، لتضمن سلامة زوجها ، وتطمئن على مصيره . . فلما ترامت إلى سمعها أنباء مصرعه ، اختفت النزعات الانسانية من قلبها ، وطفرت الوحشية الحيوانية إلى نفسها ، فأمرت بأن يشد الأسيران إلى جدار ، وأن يحكم وثاقهما ويمنع عنهما المأكل والمشرب . . ! فما انقضت خمسة ايام على هذا المشهد الوحشى الذميم حتى مات أحدهما من شدة العذاب . . . وخافت « المرأة » أن يلحق به الثانى قبل أن تشبع وحشيتها النهمة من تعذيبه ، فأمرت بأن يبقى الحى إلى جانب الميت على أن يعطى



« فأيقنت زوجته بانعقاد نيته على البر بيمينه والرضا بهلاكه ، مرضاة لضميره واستجابة لشرفه ، فتقدمت اليه ضارعة تسكب على قدميه دمعها ، وتلتمس منه البقاء مرضاة لولديها ، ولكنه أشاح عنها بوجهه ، ومضى الى لقاء موته . . ! ! »

له من الشراب والزاد ما يكفل بقاؤه فى شيء من الجهد والعناء حتى يطول عذابه ، ويمتد شقاؤه وتثقل عليه آلامه . . !

فتحركت عاطفة الانسانية فى نفوس الخدم الذين كانوا يقومون على هذا التعذيب ، وثاروا فى وجه « سيدتهم » ورفعوا أمرها إلى حكام الشعب ، فأنقذوا المسكين من بين براثنها وأدوا رسالة الانسانية على كره منها . .

وموقف « رجيلس » يرضاه الخلق وإن أبته العدالة ، لأن العدالة إنما تقوم على الحق وتستند إلى المنطق ، أما الخلق . فإنه يعتمد على التضحية ويركن إلى الغيرية . . وكثيراً مايسلم الحق بالاحجام عن التضحية « ويرضى المنطق بالتزام الأنانية ، فإذا حرص زعيم أمة على حياته وضن بها على خلاص مواطن من موت محقق ، كان هذا مما يرضاه العدل ويقبله المنطق ـ لأن الأمة أحوج إلى زعمائها من طغام أبنائها ـ فأما الخلق فانه يكبر من شأن الذين يتخطون العدل ويتجاوزن قواعد المنطق ، ليعيشوا فى عالم التضحية المسرفة والغيرية البالغة ـ وكلما أسرف الانسان فى التهاون بنفسه وعدم الاكتراث بمصالحه ، مرضاة لعاطفة الغيرية واستجابة لفعل الجميل ، من غير نظر إلى المنطق والعدل ،

كان عند أهل الفلسفة الخلقية أخلق بالاكبار وأحرى بالإجلال..!

فإذا كان رجيلس ـ في عرف المنطق والعدالة ـ قد أسرف وتجاوز الحد وكلف نفسه فوق ما ينبغي أن تحتمله، فان الخلق ليرتاح لموقفه، ويأنس بتضحيته، ويطمئن إلى إسرافه في الحرص على وعده، وإمعانه في الوفاء بعهده..



عود إلى صقليـــــة

احتضار السيادة الرومانية بحرا — حصار ليليبيوم — صقلية فى قبضة قرطاجنة — هملكار رب الاسرة الظامئة للحرب — اريكس أثرياء الرومان يتسابقون فى بناء أسطول حربى — ايجيت — انهيار قرطاجنة — ضياع صقلية بأسرها — النهاية التعيسة للحرب البونية الاولى

تسامع الرومان بالهزيمة التى أدركت « رجيلس » فى مجاهل إفريقيا ، فسارعوا إلى نجدة ما بقى من جيشـه حتى تيسر له أن يقهر العدو ويسترد بعض نشاطه ، ولـكن الأمل الزاهر الذى أقبل به جيش « رجيلس » قد أضحى بعد أسر زعيمه أكسح لا يقوى على النهوض ، ثم لازمه العرج بعد النصر وأوعزته الحركة السريعة والوثبة العاجلة ، ففـكر فى العودة إلى صقلية لعله يصيب التوفيق بحراً بعد أن امتنع عليه النصر الحاسم براً . .

وكانت سيادة روما على البحر بعيدة الشأو مبسوطة الرحاب ،

وإن كان أجلها قد حان واقترب ، وآن لأميرة البحر أن تسترد عرشها المغتصب ، وتستعيد سلطانها المسلوب ، فبارح جند الرومان إفريقيا ومضوا إلى صقلية حيث اشتبكوا مع القرطاجنيين عند شواطئها الجنوبية على كره من ملاحيها الذين أشاروا باجتناب القتال عند هذا الساحل الخطر - ودارت المعركة وكشفت عن البون الواسع المدى بين بحارة العدوين وملاحيهم ، فبينا كان الرومان على نصيب وافر من الجهل والنقص ، كان أندادهم من القرطاجنيين موفوري الحظ خبرة وكفاءة ومهارة .. فأسفرت المعركة عن انهزام الرومان انهزاماً فادح البأس حافل الخطر ، إذ خسروا خمسة أسداس القطع التي كان يأتلف منها أسطولهم البالغ أربعة وستين ومائة عداً . . !

وداخل الاطمئنان قرطاجنة ، ودب فيها الأمل وتمشى في كيانها الرجاء البالغ ، فعاودت الانتصار على الرومان في موقعة أخرى أفقدتهم فيها أسطولا ثانيا ، وطيرت الأمل في سيادة البحر من رءوسهم حتى اقتنعوا بعد هذا الفشل الذريع ، أن يرسلوا سفنهم تمخر عباب البحر وتلاطم لجته ، ولا عمل لها إلا أن تحمل الذخيرة للجيش المقاتل . .

واطمأنت أميرة البحر بعد أن نشرت طيلسانها وأقامت عرشها واستردت صولجانها ، فمضت الى « مدينـــة ليليبيوم » Lilybaeum وضربت عليها الحصار الشديد ، وكانت شاهقة الأسوار محكمة القلاع عميقة الخنادق موفورة القدرة على القتال، وطال الحصار وانقطعت عن قرطاجنة أنباء جيشها حتى ظنت به السوء ، وسارعت الى نجدته بأسطول يأتلف من خمسين بارجة وجيش يبلغ العشرة آلاف مقاتل .

ودارت الحرب حتى تهيأ لبعض الجنود القرطاجنيين أن يوقد النار فى ثلاثة أماكن فى المدينة ، فزحف الدخان الكثيف على جيش الرومان وحط على بصره حتى كاد أن يمنعه القدرة على العمل ، ويباعد بينه وبين الرجاء . . واحترقت البروج الشاهقة ، واتقدت الدور وذابت آلات الهدم وحلت الهزيمة على الرومان فى غير رفق . .

وكان الأسطول القرطاجنى رابضا فى دريبانوم Drepanum فخفّ إليه أسطول الرومان خفية وباغته وهمّ بالقضاء عليه ، ولكن سادة البحر عرفوا كيف يردون الهزيمة الزاحفة ، ويقتنصون النصر الهارب ، ويلجئون القائد المهاجم الى الفرار

بثلاثين سفينة يغمره الحمد لنجاته بعد أن خسر مائة سفينة بأكثر من تحمل من بحارة وملاحين . .

وعلى مقربة من كارينا Camarina لحقت بأسطول الرومان الثانى هزيمة بالغة البأس وثقلت عليه حتى حطمت سفنه ، فلم يبق فى واحدة منها لوح من الخشب إلا أصابه التدمير . . !

وأضحت اليوم روما من غير أسطول يتولى العمل على تحقيق آمالها ، وخمد سعير المنافسة حول سيادة البحر واطمأنت أميرته الى عرشها حتى غفلت عينها عن حراسته . . ! وكيف يدركها القلق وقد « كادت » صقلية بمدنها وثغورها أن تصبح فى قبضة يدها . . ؟

أما الرومان فان الأمل قد عاودهم حين تيسر لهم الاستيلاء على إريكس Eryx — ثانى جبال صقلية علوا ! ـ فتقدموا لحصار ليليبيوم من جديد ، ولكن الأقدار أبت إلا أن تفجعهم فى هذا الأمل فهيأت لقرطاجنة قائدا موفور الحظ من البطولة وإن كان فى باكر الشباب ، ذلك هو : « هملكار برقة » Hamlicar Barca - رب القتال برا وبحرا — فمضى بجيشه الى صخرة شاهقة على كثب من « دريبانوم » واعتلاها واحتمى بها وكانت حصينة لا

يسهل اقتحامها أو الهجوم عليها ، فلبث جاثماً على قمتها ثلاث سنوات طوال ، وأسطوله يجوب شواطىء ايطاليا الجنوبية فينهب منها ما شاء ثم يعود اليه ليقدم له الزاد وما يحتاج . .

وفى نهـــاية السنوات الثلاث بارح هملكار مكانه مختاراً ، ومضى — جيشاً وأسطولا — الى إريكس Eryx وحمـل عليهـا حتى أصاب النجح فى حملته ولبث فيها عامين قاوم خلالها عصيان جنوده المرتزقة الذين كانوا يجأرون بطلب الأجر فيدفعـه لهـم وعوداً تفلح حيناً وتفشل أحيانا . .

ولـكن روما قد عزت عليها هجرة البحر وعاودها الحنين اليه حتى اذا اشتد بها صح عزمها على بنـاء أسطول تقيم به مجدها المنهار ، وتسترد بصولته عزها الهارب . . . ولـكن أين لها المـال الـكفيل بتحقيق مطالبها بعد هذه الحرب الضروس التى امتد أجلها ربع قرن من الزمان ، نزفت فيه ثروتها وأضحت فريسة الحاجة والسغب ..؟ ولـكن ماذا يحوجها الى التفـكير فى المال وأغنياؤها ما زالوا أحياء لم يتخطفهم الموت ولم تزل قلوبهم دائبة الخفق باسم الوطن شديدة الحنين الى مجده . . ؟

وهكذا يتسابق الخلص من أثرياء روما فى تحقيق مطلبها

وسد حاجتها ، ويتبارون فى تقديم الأموال وبناء السفن — كلّ على قدر استطاعته - حتى تهيأ لروما أسطول دقيق الصنع محكم البناء يأتلف من مائتى قطعة من ذوات الخمس طبقات . . ثم جدّ به المسير إلى صقلية فى وقت كان القرطاجيون فى أمس الحاجة إلى التأهب للقائه ، والاستعداد لنزاله - إذ كان الاطمئنان يشيع فى نفوسهم طولا وعرضاً ، منذ قهروا أسطول العدو ، وألجأوه إلى هجرة البحر هذه السنوات الطوال ، فتقدم الأسطول الرومانى إلى ليلبيوم ودريبانوم فلم يجد أمامه من يعترض طريقه ويسد السبيل على مطامعه ، فضرب على الثانية حصاره ، وأذن لبعض الملاحين أن يأخذوا أنفسهم بالمران والتدريب على شئون الملاحة

وأقبلت من إريكس Eryx نجدة من خيرة المقاتلين تحت إمرة بطلهم هملكار ، وخطر لقنصل الرومان أن يثير الحرب مع « هانو » قبل أن تصله نجدة هملكار ، وكانت سفن قرطاجنة تنوء بما تحمل من أكداس الذخائر والمؤن ، فعاون هذا ما كان يعوز ملاحيها من قدرة وخبرة وكفاءة وتدريب ، حتى إذا التقت بروما عند إيجيت Aegite أفاقت فإذا خمسون سفينة قد استقر بها المقام فى قاع اليم ، وسبعون ونيف قد صارت إلى أيدى الرومان

وبقية الأسطول قد حملته المصادفة على جناح ريح طارئة قذفت به إلى مرفأ قريب ، وأنقذته من جحيم الأسر . .

فنزح اليأس إلى قرطاجنة وتولاها بقدرته ، وتحكم فى توجيهها حيثما أراد حتى أعلنت بأن قتالها فى صقلية يجر عليها ويلا ثقيلا وشرا مستطيرا ، وفوضت هملكار فى طلب الصلح . . وسرعان ما استجاب الرومان لهذا المطلب ، فقد كانوا يضيقون بما أنزلته الحروب بوطنهم من ضعف وما أصابتهم به من اضمحلال ، ودارت المفاوضات حتى أسفرت عن معاهدة كان أهم شروطها :

(١) انسحاب قرطاجنة من صقلية وتسليم روما كافة ممتلكاتها بها - وكان هذا المطلب أدمى صدمة أصابت قلب قرطاجنة منذ عرفت سبيلها إلى الكفاح - فقد لبثت قرطاجنة أربعة قرون طوال جاهدت فى القرنين الأخيرين قوية الأمل فى امتلاكها ، عظيمة الرجاء فى التهام كافة أراضيها ومدنها - فصارعت الأغريق فى صقليه وغالبتهم حتى قضت على نفوذهم فيها وانتزعت الأمل من رءوسهم ، وبعثت اليأس إلى نفوسهم ، وأكرهت آخر قوادهم « بيروس » على مبارحة أرضها محطم النفس كسيح الرجاء ، ثم صارعت الرومان صراعا عنيفا أسلفنا الحديث عنه ،

وأفلح جهادها حتى كادت فى بعض الفترات أن تبتلع الجزيرة بكافة ثغورها ومدنها على نحو ما رأيت من قبل ، فلا غرو أن أدمت هذه الطعنة صدرها وأصابت بالارتجاج مخها

٢) إكراه قرطاجنة على دفع غرامة تبلغ الثمانمائة ألف جنيه . . فى عشرة أعوام

(٣) ألا تثير حربا مع « هيرو » وحلفائه يوما ما

(٤) تسليم الجيش الرابض فى إريكس .

فثار لهذا المطلب الجارح « هملكار » وأعلن رفضه ومضى الجيش إلى قرطاجنة فى يأس مرير وألم بالغ .

وبهذه المأساة الممضة أسدل ستار الحرب البونية الأولى

إقامة امبراطورية فى اسبانيا

طبيعة الشر — حب الشر لأنه شر — تمرد الأشرار — روما تقبل هديتهم بعد رفضها — إخماد البركان

تمهيد :

وضعت الحرب أوزارها ، وآن للأشرار الذين كانت قرطاجنة تستأجرهم للذود عنها أن يفارقوا ساحة الحرب إلى أوطانهم حيث تظلهم راية السلام ، ولكن كيف السبيل إلى هذا وقد ألفت الحرب الطويلة بين قلوبهم ، ووحدت بين نزعاتهم وردتهم جيشاً ثابتاً تعرف بعضه إلى بعض وطالت بالحرب خبرته حتى مهر فى شؤونها وعز عليه العيش من دونها . . . ! والحرب رغم ما تسفر عنه من خراب وما تفضى إليه من أهوال ، أمر طبعى لا ينبغى اجتنابه والسعى لتلافيه ، أو قل إنها شر لا بد منه ، يسوقنا إليها تنازع البقاء ، ويمليها علينا الميل إلى التطور والنزوع إلى الكمال . وليس من بلد لزم السلام وحرص عليه إلا دفع عن طمأنينته

ثمنا قد يكون أبهظ من ويلات الحروب..! ولكن الشر البالغ أن يتهيأ للمحارب « إحساس فنى » يحبب إليه القتال لأنه قتال ، ويرغبه فى الحرب حتى تصبح غاية فى ذاتها . وقد كان هذا حال اللصوص الذين أسلفنا الحديث عنهم من قبل ، والمرء إنما يمقت الشر إن عاش بعيدا عنه ، ويهلع لارتكاب الخطيئة إذا لم يألفها ، فإن أقام فى جوها وتنفس نسماتها أحبها ومال إليها حتى لا يطيق فراقها ، ولا يحتمل العيش من دونها . . ! وقد يصبح الشرير « محترفا » يفعل الشر لذاته ، ويأثم بارتكاب الخطيئة ولا غاية له إلا التمتع بها ، وإشباع شهوته منها ، والجندى الذى يمضى إلى القتال مضطربا جزعا ويلق طعنته الأولى خائفا وجلا ، لا يلبث حتى يشتد به الظمأ إلى بقر البطون وإهراق الدماء . . . !

فكيف يمضى هؤلاء الأشرار إلى بلادهم ليعيشوا فى جو من الدعة والهدوء بعد أن مارسوا الحرب هذا الزمن الطويل ، وتوثقت بينهم عرى الزمالة وروابط المحبة ، وألفت بينهم وحدة الأمل ونزعة السوء وفظاظة القلب وحب الشر والاستهانة بالموت..؟ إن الحياة الهادئة الناعمة لا تصلح لهم ولا ترضى مزاجهم ولا تشبع أطماعهم ... فإذا لم يكن ثمة ما يبرر الحرب ، فليكن حب

القتال وحده كفيلا بانسياقهم لإراقة الدماء وإزهاق النفوس وبقر البطون وفصل الرءوس . . !

ومضى هؤلاء الأشرار إلى قرطاجنـــة جماعات جماعات ، وعسكروا على أبوابها ، وشرعوا فى نشر الفساد فى أرضها ، وطالبوا بأجورهم وكانت قرطاجنة مرهقة أضنت الحروب ثروتها وأثقلت ماليتها ، فلما سلمتهم جانبا من أجورهم وطلبت إليهم أن يمهلوها فى سداد الباقى تهيأت لهم أسباب الثورة ، وانطلقوا يجأرون بالحرب ويطلبون القتال « بعاطفة فنية » جعلت الأجر آخر ما يطلبون . . !

وانفجر البركان ناراً وحمما أربعين شهرا لا يهدأ ولا يكل ولا يفتر ، حتى اغتصبوا « سردينيا وأوتيكا » من قرطاجنة بالعنف البالغ وقدموهما إلى روما . . ! ولـكنها أبت قبولها وحذرت تجارها من أن يتصلوا بالثوار وإن أذنت لهم فى إرسال مدد إلى قرطاجنة . . ! ولعل السر فى هذا أنها كانت تخشى انتصارهم ، اتقاء لزحامهم وهربا من صراعهم . . !

ولـكن الجشع عاودها ودفع بها الى النـدم على تفريطها فى قبول سردينيا ، فلما قدمها لها الثوار لثانى مرة خفت إلى قبولهـا

وتهيأت للدفاع عنها ضد كل غاصب توسوس له نفسه بامتلاكها،
وأخيرا تمكن هملكار من أن يخمد حرب الثوار المتمردين بعد
أن سامهم العذاب ألوانا

وكانت هذه الحرب قد أنهكت قرطاجنة وأرهقت جنودها
وأفقدتها طائل الأموال وآلاف الرجال ، فخافت مغبة الأقدام
على استرداد سردينيا بعد أن سمعت روما تجأر بالحرب مع كل
من فكر فى أمرها ، وتهدد بالشر كل من أقدم على غزوها



إلى اسـبانيا

ثورة هملكار على النهاية الاليمة فى إيجيت ـ خشية الاحتكاك بروما ـ إقامة امبراطورية على أرض أسبانيا — هانيبال يلتمس اصطحابه إلى ميدان الحرب وهو فى التاسعة من عمره مصرع هملكار ـ خلافة هسدروبال — شخصيته — قرطاجنة الجديدة — غيرة روما — معاهدتها مع هسدروبال اغتيال هسدروبال — خلافة هانيبال — حصاره سغنتم — رفضه للقاء الوفد الرومانى — الوفد الرومانى فى مجلس الشيوخ القرطاجنى — حزب السلام يطالب تسليم هانيبال للاعداء الوفد الرومانى يخير المجلس بين الحرب أو السلام ـ مندوب الوفد يتحدى المجلس ـ انفجار البركان

انتهت الحروب بقرطاجنة إلى شر ما تنتهى إليه من سغب وضعف واضمحلال ، فهى لا تجرؤ اليوم على الوقوف فى وجه روما ولا تستطيع أن تصمد لجيوشها إن اشتبكت معها فى قتال ، ولكن على رأسها اليوم بطلا من خيرة من عرفت الدنيا من قادة وأبطال هو : هملكار برقه Hamilcar رب الأسرة الظامئة للمجد ، وقد أنفق ما سلف من حياته فى ملاطمة اللجة الطامية والضرب

فى زحمة الحرب الدامية ، فلن يرضيه اليوم أن يلتزم الدعة ويستكين لذل الرومان

فإن ثار فى وجهه دعاة السلام فى مجلس الشيوخ ، واستعانوا عليه بتصوير الضنك الذى جرته الحروب ، استمد من شخصيته الساحرة ما يعينه على إقناع الأعضاء بضرورة الحرب لإنقاذ الأمة من أهوال الفقر وشدائد الضنك .

وإن جهاد الوطن فى سبيل الجزر الجاثمة فى البحر الأبيض عامة ـ وصقلية خاصة ـ ليطوف بخاطره ، فإذا أربعة قرون طوال عامرة بالكفاح حافلة بالنصر فى أغلب مراحلها . زاخرة بدماء الشهداء من أبناء قرطاجنة وغير أبنائها ، تنتهى كلها على شر ما ينتهى إليه الكفاح فى « إيجيت » وماتلاها من معارك ، أطار الأشرار عثيرها فى وجه قرطاجنة . . إن المأساة التى أسدل عليها ستار الحرب البونية الأولى لأليمة إلى أقصى حدود الألم ، ذليلة ـ عند أهل الجهاد ـ إلى آخر درجات الذلة .

فإذا ثار هملكار لهذه النهاية الأليمة ، واعتزم السعى جادا لاسترداد المجد الشارد ، واقتناص العز الهارب ، خطرت لذهنه روما الجبارة تنذره بالشر المستطير إن أقدم على الاحتكاك بها

وتهديد ممتلكاتها . . وإن روما لقوية يُخشى باسها ولا يؤمن قتالها وإن قرطاجنة ليعوزها المال الذى يمكنها من استئجار من يقوم بقهرها وتدمير الشاهق من مجدها . . . أيقعده الخوف من روما عن السعى فى سبيل المجد والجرى وراء الأمل والعمل على اقتناص النصر . . ؟ لا . . وإن طبيعته لتأبى الاقتناع بحاله والرضا عن حياته . . إن لقرطاجنة ثغورا تجارية ممتدة على شواطىء أسبانيا، فما باله لا يفكر فى فتح هذا البلد والتجول فى أرضه ، والاستيلاء على خيراته ورفع العلم فى شتى بقاعه . . ؟ إن روما لا تحميه ولا تتولى حراسته ، فالهجوم عليه مأمون العاقبة محمود النهاية ، فليمض إذن إلى غزوه حتى إذا نشر طيلسانه فى أرضه ، تهيأت له القوة التى تعينه على قهر روما ، والجور على سلطانه واكتساح أملاكها . .

على هذا يتعقد رأى هملكار فى النضال المنتظر . فاذا همّ بالرحيل التمس طفله الصغير أن يصطحبه ليشهد القتال فى لجته الطامية وبحره الزاخر ، فإذا تردد الأب فى قبول الالتماس ألحّ الصغير وأسرف فى الإلحاح حتى يجاب مطلبه ، فيمضى هملكار مع صغيره خفية إلى أسبانيا حتى يباغت بالحرب قبائلها مروعا أهلها زاحفا على أرضها ، جامعا خيراتها حتى يتيسر له أن يقيم

على الحرب تسع سنوات طوال لم تعوزه فيها نجدة من ذخيرة أو رجال، بل توفر له من الأسلاب والغنائم ما يمكنه من أن يمد بالمال حزبه في قرطاجنة ليشد من أزره ويضاعف من جهوده . .

وفي نهاية هذا العهد الحافل بالمجد يسقط البطل قتيلا في معركة حامية، فيحمل العلم صهره « هسدروبال » Hasdrubal ويمضي في تحقيق الخطة التي راح ضحيتها هذا الشهيد . وكان «هسدروبال» يمتاز بالمهارة الحربية والحزم الإداري وحسن التصرف ومرونة الخلق وسحر الشخصية مما حبب فيه القبائل الأسبانية وكثيرا من صغار زعمائها ، فاستغل مواهبه وكفاءته وزاد فصاهر بيتا من بيوتات أسبانيا ، فأصابت قضية الوطن من شخصيته المسالمة أكثر مما أصابت ضربة السيف وطعنة الخنجر . .

ثم شاد على كثب من مناجم الفضة الغنية عند الشاطىء الشرقي مدينة أطلق عليها اسم « قرطاجنة الجديدة » سرعان ما ازدهرت ونمت وأضحت عاصمة الإقليم الجديد . .

وكان دبيب الغيرة من هذا النصر المتعاقب يسري في كيان روما ويتمشى في صدور أهلها ، فلما استعانت بها « سغنتم » Saguntum على الغزاة خفت إلى حمايتها وأقبلت على أسبانيا تنذر

بالشر الداهم إن مس حليفتها السوء ، أو أصاب أهلها الضيم . .
فجرت المفاوضات بينها وبين « هسدروبال » حتى انتهت بعقد
معاهدة نصت على :

(١) أن يكون نهر الأوبر Ebro حدا فاصلا لا ينبغى أن
تتخطاه قرطاجنة فى فتوحاتها شرقا .

(٢) أن تتمتع « سغنتم » Saguntum باستقلالها وإن
كانت خارج الحدود المتفق عليها بخمسين ميلا . ؟

ولبث « هسدروبال » ثمانية أعوام يكيل فيها النصر لوطنه
ويبسط فيها نفوذه أنى حل وأينما ارتحل ، حتى أقدم على إعدام
زعيم من زعماء القبائل الأسبانية عقابا له على إهانة وجهها
للحكومة القرطاجية ، فثارت قبيلة هذا الزعيم واتقدت غيظا
ومضى إلى القائد أحد أفرادها ، واغتاله انتقاماً لزعيمه وغسلا
للاهانة التى لحقت بقبيلته . .

وخلف القتيل بطل تكشفت عنه الأقدار منذ سبعة عشر
عاما حين كان صبيا لم يتجاوز التاسعة من عمره ، ورأى أباه «هملكار»
يهم بغزو أسبانيا وإقامة امبراطورية على أرضها ، فهزه الحنين إلى
اصطحاب أبيه حتى توسل إليه ألا يبرح الوطن من دونه . . !

ذلك هو « هانيبال » Hannibal رب القيادة فى عصره . وألح فى التماسه حتى قبل الأب هذا المطلب العجيب ، وتقدم بالصغير إلى المذبح وطلب إليه أن يضع على الضحية يده ، ويقسم ألا يخلو قلبه من بغض الرومان وكراهيتهم ما عاش (الصورة ص ٩٥) وسترينا الأيام أن الصغير قد بر بيمينه فلبث طيلة حياته يرسل عليهم الجزع ويمطرهم بالهلع والفزع حتى ركل الدنيا ومضى إلى أخراه . . ! وقد سعى أهل الرأى فى قرطاجنة سعيا جادا ليمنعوه من خلافة هسدروبال ، ولكن الجيش كان يحبه إلى حد العبادة فلم يسع الحكومة فى قرطاجنة إلا أن يستجيب لمطلبه .

استهل هانيبال حياته قائدا بنصر حاسم على جيش أسبانى قيل إنه بلغ المائة ألف عدا . . !

ثم مضى إلى « سغنتم » وقرع أبوابها وضيّق الخناق على أبنائها وأوقد النار الحامية فى أحشائها ، فأرسلت روما وفدا يذكره بالمعاهدة التى عقدها سلفه (هسدروبال) مع الرومان ونصت على استقلال « سغنتم » فأبى هانيبال لقاء الوفد ، وادعى العجز عن حمايته إن وطئت المعسكر قدماه . !

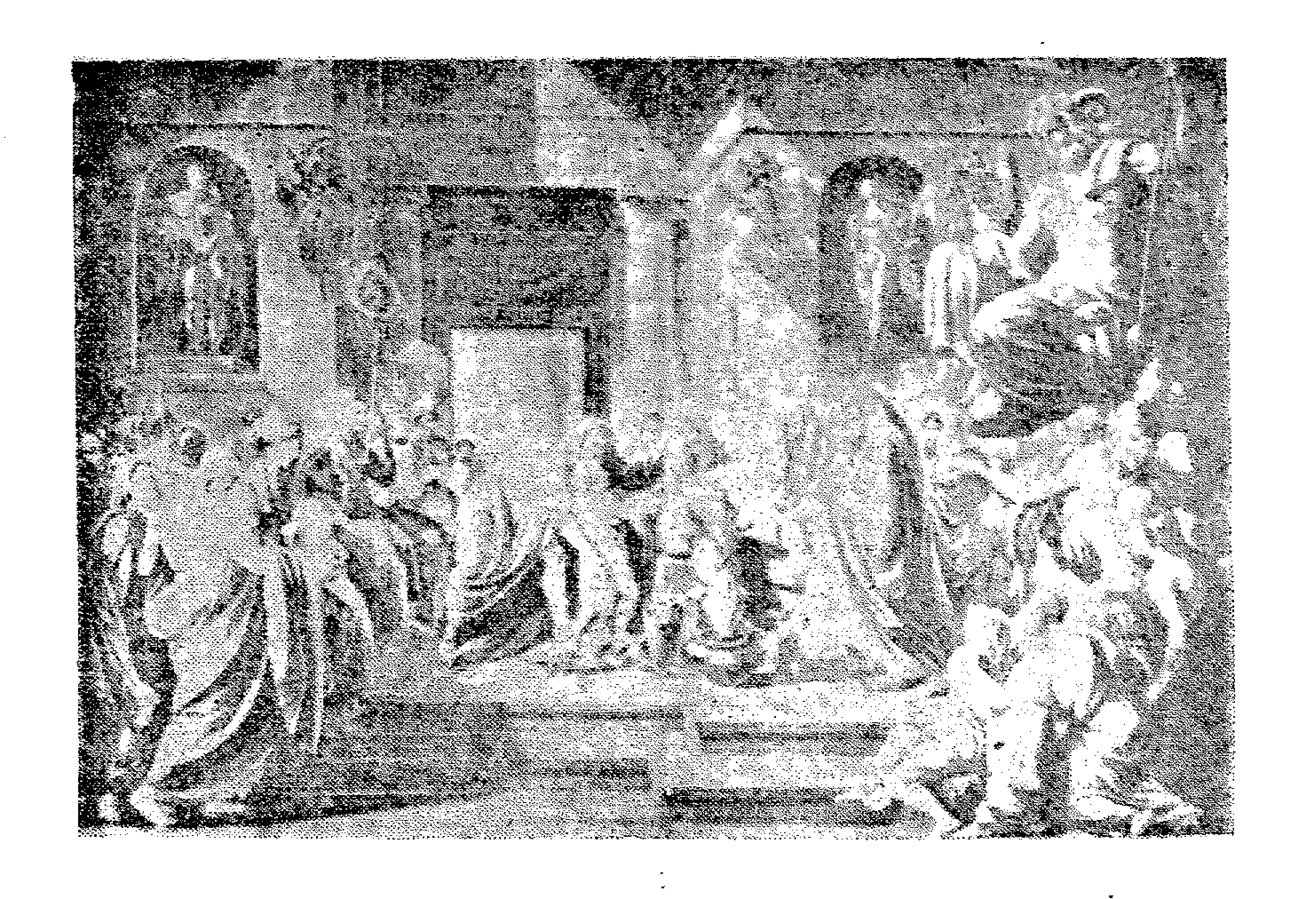
فانطلق الوفد إلى قرطاجنة حيث انتصر له « هانو » زعيم

الحزب الذى يؤيد السلام ويهاجم الحرب ودعاتها ، ونصح أعضاء المجلس بأن يطلبوا انسحاب الجيش ويدفعوا لسغنتم تعويضا عما تكبدته من خسائر، وأن يسلموا هانيبال للعدو لأنه تخطى نصوص المعاهدة وأشرف بوطنه على صراع ممتد النهاية مشوب العاقبة .. !!

ولكن المجلس قد أبى عليه ذلك فعاد الوفد إلى روما مغيظا محنقا . .

وضرب هانيبال على المدينة وأحاطها بشتى صنوف العذاب وألوانه حتى تمزق أملها فى الدفاع وحاق بها يأس مرير بعد ثمانية شهور قضتها فى دفاع مجيد . فأعلن هانيبال استعداده للصلح إن رضى أهلها أن يبرحوا أرضها ، ويفارقوا سماءها ، ويهاجروا فى صحبة زوجاتهم وأولادهم لا يحمل الواحد من متاعه أكثر من ثوبين اثنين لا يتجاوزهما . . ! !

فعقد مجلس الشيوخ فى المدينة جلسة فوق العادة تناول فيها بحث هذا المطلب الذى ينضح الذلة والهوان . وازدحمت جموع الشعب فى قاعة المجلس لتسمع كلمة الفصل فى أمرها ، وصيحة الغضب أو الرضا بمصيرها ، فتسلل نفر من أهل الرأى فيها وانطلقوا إلى ميدان فى وسط المدينة وأوقدوا فيه نارا كثيفة



وتقدم الى المذبح « هانيبال » وهو فى التاسعة من عمره ، وأقسم أمام أبيه على بغض الرومان
وكراهيتهم ما عاش . . ! ومضى الصغير الى ميدان القتال فى صحبة أبيه ، وغاب عن الوطن فى زحمة الجهاد ستة وثلاثين عاما . . !

جمعوا لها كل ما أصابته يدهم من أثاث ومتاع وثروة ، وقذفوا به إلى اللهب حتى إذا اضطرم وتأجج ، وثبوا إليه فى عزم كله يأس ورضا كله ضيق . . ! !

وأصبحت الحرب بين روما وهانيبال أمراً محتوماً لا مفر منه ولا خلاص من شره . . فأرسلت إلى قرطاجنه وفداً ثانياً يطلب التفاوض فى أمر الصلح ، ويعلن براءة روما من تهمة العدوان . . وتقدم الوفد إلى أعضاء المجلس القرطاجنى وألقى عليهم هذا السؤال :

أ كان غزو «هانيبال» لمدينة «سغنتم» تنفيذاً لأمر الحكومة ؟

فأبى المجلس أن يجيب إجابة صريحة . وتملص فقال مندوبه الذى تولى الكلام باسمه : إن المعاهدة بين روما وقرطاجنه لم يرد فيها نص بشأن سغنتم ، أما اتفاقها مع هسدروبال فليس يعترف به المجلس . . ؟ !

وعند ذلك طوح «كونتس فابيوس» Quintus Fabius مندوب الوفد الرومانى بيده وثوبه فى يده قائلا فى صوت جهورى يعلن الشر وينذر بالتحدى :

أمامكم الحرب أو السلام ، فاختاروا ما تشاؤون .

فارتفعت فى المجلس صيحة تنطق بالتحدى الصارخ :

— تخيروا أنتم ما تريدون .

فجمع مندوب الوفد طرفا من ثوبه فى قبضة يده ، وقذف به فى وجوه الأعضاء وقد تجسمت على سحنته آيات التحدى الصارخ ومعالم الغضب المتقد قائلا لهم :

الحرب نخيرنا .

فانطلقت أصوات الأعضاء صائحة :

— قبلنا قبلنا ، وبهذه الروح التى قبلنا بها الحرب سنصليكم نارها . . . (الصورة صفحة ٩٩)

وبدأت الحرب البونيةالثانية . . .

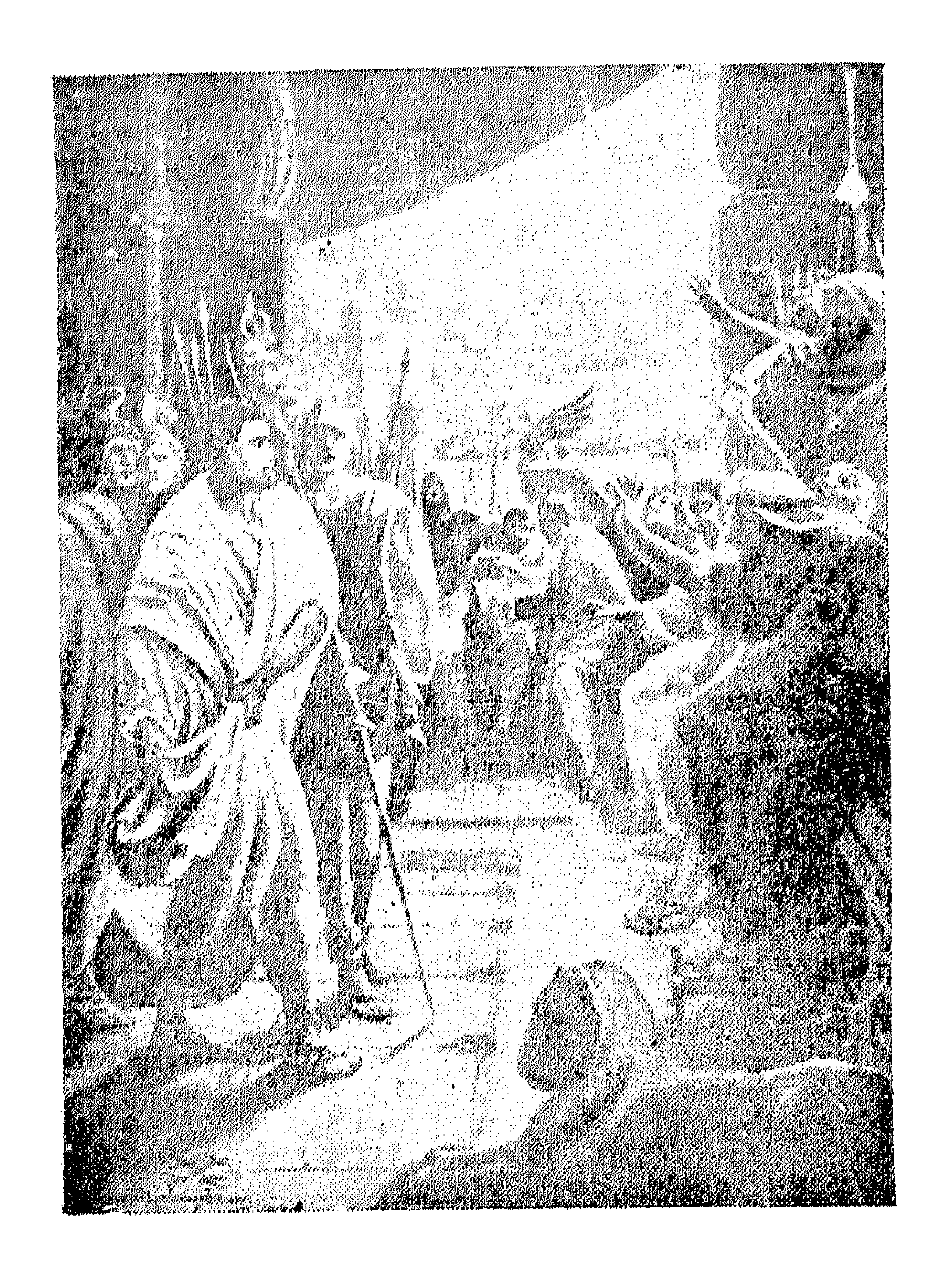


هانيبال يعبر الألب

لأول مرة فى تاريخ الإنسانية

صلة التهور بالبطولة ــ صلة هانيبال بجيشه ــ قسلة جريئة وأكثرية مترددة ــ اقتحام البرانس ــ الالتحام بالغاليين نقل الفيلة على أديم الماء ــ عيون سيبيو يلتقون بعيون هانيبال سيبيو يفتش عن هانيبال ثم يعود إلى ايطاليا ــ مشاق الحملة العجيبة ــ هانيبال يشرف على سهول ايطاليا ويصيح من فرط الغبطة والحماسة

إن البطولة لتكبر الحكمة وتعلو على العقل ، ولو خضع أصحابها للمنطق لهان خطبهم واضمحل أمرهم وباتوا فى مستوى لا يعلو طغام الناس إلا قليلا . لأن أكثر الذين يتنكبون عن مسالك البطولة ويحجمون عن اقتحام أبوابها ، إنما يبررون مسلكهم بالمنطق ، ويردونه إلى الحكمة فرارا من اتهامهم بالجبن والخور.. وأخص مميزات البطولة ـ فيما نعلم ـ جرأة لا تفترق فى أكثر مظاهرها عن الطيش البالغ والتهور المرذول . . ! وإن أخطر



في مجلس الشيوخ القرطاجني :

« كونتس فابيوس » Fabius مندوب الوفد الروماني يتحدى الاعضاء فيلقي بثوبه في وجوههم ، ويعلن انفجار البركان من جديد . . .

المشروعات وأدعاها لبث الذهول فى النفوس ، لو خضعت لحك العقل وأطاعت ما تمليه الحكمة ، لصارت إلى العدم وما قدر لها وجود .

بهذا التهوس البالغ فكر هانيبال فى أن يقتحم جبال الألب الشاهقة ، لأول مرة فى تاريخ الإنسانية كلها . . ! ! ثم يسعى جادا فى فتح إيطاليا . . !

ولم لا . . ؟ إن روما التى استولت على أكبر شطر فيها ليقلقها اليوم ضجر رعاياها واستنكارهم لها ، واستياؤهم من حكمها فليس بعيداً أن يسارعوا إلى الثورة فى وجهها والانتصار لعدوها يوم يعتزم تنكيس علمها .

اطمأن هانيبال إلى هذا التبرير من غير تفكير فيما سيلقاه فى الألب من هول وجحيم ، فعاد بعد غزو « سغنتم » إلى قرطاجنة الجديدة ، وأذن لمن شاء من الفرق الأسبانية فى الجيش أن يعود إلى وطنه ، فى زيارة أهله وصحبه وعشيرته وذويه ، قائلا للجنود فى ثقة القائد المطاع من عشيرته :

« عودوا إلىَّ فى مستهل الربيع ، وسأتولى بنفسى قيادتكم فى حرب تسفر عن مجد باهر ونصر زاهر »

وكان تخطى نهر الأبرو إعلانا لعداوة يطول أمرها وتشتد نارها بين روما وقرطاجنة ، وقد بدأت هذه العداوة عندما استباح هانيبال لنفسه حصار « سغنتم » وأبى مجلس الشيوخ فى قرطاجنة استنكار عمله أمام الوفد الرومانى ، ورفض الاعتراف بالمعاهدة التى عقدت مع هسدروبال ، ونصت على أن يكون نهر الأبرو حداً فاصلا لا ينبغى أن تتخطاه قرطاجنـــة فى فتوحاتها ..

وفى غسق الدجى استنام هانيبال ليستريح استعداداً لرحلة الغد ، فرأى فيما يرى النائم شاباً إلهى الطلعة وسيم المحيا يقبل عليه ويقول له :

« لقد أرسلنى جوبتر Jupiter لأقود جيشك فى فتح إيطاليا فاتبعنى قدما وحذار أن تلتفت إلى الوراء » فتبعه هانيبال فى ارتجاف لم يستطيع معه أن يمنع عينيه من النظر إلى الوراء ، فرأى ثعباناً طويلا ضخم الجثة يتعقبه مدمراً كل ما أصابه فى طريقه .

فلما تساءل هانيبال عم يكون هذا ، قيل له إنه دمار إيطاليا ، فامض فى طريقك ولا تطل التساؤل ، ودع خطط القدر تسبح فى ظلامها . . !

ولما اتصل بالجند عزمه الجبار على أن يقتحم جبال البرانس

أدرك بعضهم الخوف وأصابه التردد ، وكان هانيبال يعلم أن قلة جريئة تسعى معه ، تخدم قضية المجد الذى يجاهد فى سبيله ، خيرا من أكثرية ضعيفة مترددة . فطرد من جيشه كل من دبّ فيه التردد أو لحق به اليأس . ثم مضى فاقتحم « البرانس » بخمسين ألفاً من المشاة وتسعة آلاف فارس ، وتابع سيره إلى نهر الرون ، ومضى فيه حتى تبين على شاطئه الأقصى قوة كبيرة من « الغاليين » تتولى حمايته ، وأرشده أدلاؤه إلى وجود جزيرة على بعد خمسة وعشرين ميلا قد يسهل عليهم أن يعبروا النهر عندها ، ويباغتوا العدو فى مؤخرته ، فأرسل هانيبال فيلقاً من جيشه للقيام بهذا الغرض ، وتقدم الأسبان فى هذا الفيلق إلى الماء وقد شـــدوا ملابسهم وأسلحتهم إلى مثانيهم ، وألقوا بأنفسهم بين أحضانه ، ومضوا سابحين حتى بلغوا المكان الذى قصدوه ، وكان الأفريقيون فى الفيلق لا يألفون الماء ولا يحسنون السباحة ، فعبروا فى أرماث Rafts حتى إذا التأم شمل الفيلق واكتملت جموعه ، تهيأ لإلقاء الطعنة القاتلة فى مؤخرة العدو حين تحين الساعة وينادى الخطر ..

فأما هانيبال فقد كان ـ أثناء ذلك ـ جاداً فى إعداد نفسه وتهيئة جيشه للملحمة التى يزحف خطرها من غير توان ، فمال على

القبائل الموالية له على الشاطىء الأيمن للنهر وجمع منها ما تيسر له جمعه من الزوارق لعبر فيها المشاة من مقاتليه ، ثم أقام رجاله للخيالة فى جيشه أرماثا وسفناً تكبر الزوارق حجما وألقوا بها فى أعالى مجرى النهر لتخفف من حدة التيار ، وتهون من سورته حتى تحتمله الزوارق وتقوى عليه السفن الصغيرة . .

ثم رأى أهل الغال دخاناً كثيفاً يزحف عليهم من الخلف ، فتبينوا مصدره فإذا هو نار تندلع وتسد عليهم سبيل الفرار إذا التمسوه ، وتحمس هانيبال ـ وكان على علم بأمر هـذا التدبير ـ واندفع ماضياً فى زورقه الذى ينطاق به فى مطلع الزوارق حتى إذا بلغ الشاطىء ، وثب إليه وحمل على العـدو الذى جفل أمامه ، وانكسر من غير أن يقاوم هذاا الشر الزاحف من وراء ومن قدام . .

ولكن الفيلة ما زالت على الشاطىء الآخر ، فكيف السبيل إلى نقلها . . ؟ خطر له أن يبنى لها رمثاً كبيراً يغطى أرضه بتراب ليختلط عليها الأمر فتحسبه أرضاً ولا تجفل إذا سيقت إليه ، وثبته فى الشاطىء وشد عليه رمثاً آخر يصغره حجما حتى إذا سارا على ظهر الماء ريع الفيلة ونزل بها الهلع ، وامتنع عليها سبيل النجاة

فسكنت فى مكانها لا تقوى على الحراك ـ إلا اثنان منها خرج بهما الروع إلى الوثوب فى الماء والسباحة فيه حتى الشاطىء الآخر..

ومضى هانيبال حتى بلغ « إزير » Isère واستمد العون ممن حالفوه فى أهلها ، وزود جيشه بما يتطلبه من معدات وذخائر ـ حتى الأحذية أخذ منها بنصيب وافر . . !

* * *

والرومان . . ؟ أكانوا فى غفلة عما ينتظرهم من شر ويقبل عليهم من ويل . . ؟ لا ، بل كانوا منصرفين إلى قتال الغاليين فى شمالى إيطاليا ، فلما تسامعوا بأمر هانيبال خف سيبيو Publius Cornelius Scipio إلى لقائه عند منابع النهر ، ولو سار إليه توًّا من غير تباطؤ ، لكان من المحتمل أن يصد غارته ويقوى على رده. ولكنه تريث هناك ، ولبث فى مكانه وأرسل فرقه من خيالته ، لتستطلع الأمر وتوافيه بالنبأ اليقين ، فأخذت تتجول حتى التقت بفرقة من خيالة هانيبال كانت تطوف فى جنبات الوادى رغبة فى التجسس على العدو واستطلاع أنبائه ، فبدأت ملحمة حادة أفضت إلى انتصار الفرقة الرمانية ، فعادت إلى بطلها تحدثه نبأها ، وسارع سيبيو إلى هانيبال حتى إذا بلغ مكانه افتقد أثره وضل

طريقه ، فلم يلحق به باحثا عنه تلافياً لما قد يعقب اللحاق من شر ويتسبب عنه من خطر ، وأوفد أكثرية جيشه إلى أسبانيا تحت إمرة أخيه ، وقفل راجعاً إلى إيطاليا . .

* * *

أما هانيبال فقد أقام الدليل بهذا الإقدام العجيب على أنه قد صيغ على غير شاكلة الناس

وإن مسير جيش لجب محمل بكل مايتطلبه من ذخائر وأثاث وفيلة وخيل ، ومضيه إلى الألب ليعبرها ويقتحم صعابها ويتخطى مشاقها ، لإقدام يتجاوز نطاق التصور ويجور على حدود المنطق، وقد شرع هانيبال فى تنفيذ هذه الخطة الجهنمية فى فصل يشتد فيه البرد اشتدادا لا يتفق مع الجهد الشاق الذى يتطلبه تحقيق هذا المطلب العسير

وما وقفت الطبيعة وحدها فى وجه هانيبال ترده عن عزمه وتدفعه عن الإقدام ، فقدانتشرت فى طريقه قبائل جبلية متوحشة تثير العداء فى وجهه وتنشر العثير فى عينه ، رداً لتطفله على بلادها واغتناماً لفرصة السلب والنهب وما إليهما بسبيل ، فما ارتقى الجبل حتى بدأت حملاتها تتوالى وهجماتها تترى حتى كاد أن يبلغ نهاية

رحلته ، وقد استهل مسيره بطريق ضيق شديد الانحدار ، فصب عليه أهل الجبل وابلا من قذائفهم ، وأمطروه بالهجمات حتى كان الجيش لا يقطع ميلا واحدا إلا إذا ظفر به بعد حرب ضروس يثيرها ، إلى أن بلغ بحيرة بورجت Bourget حيث زايله الخوف وداخله الاطمئنان ، فانطلق إلى مدينة يستوطنها الجبليون واستولى عليها واسترد منها معظم ماسلب من متاعه ، ونهب من أثاثه . ثم مضى فى طريقه آمنا ثلاثة أيام لجأت القبائل بعدها إلى الحيلة ولاذت بالمكيدة بعد أن امتنعت عليها مطاردته بالقوة ، وعزت مقاومته بالشدة ، فسار زعماؤها إلى معسكر القرطاجيين وزودوه بالمدد وقدموا له الرهائن لتنطق بولائهم له ، وعطفهم على حركته ، وتظاهروا بالاستعداد لارشاد الجيش إلى سبيله من أخصر الطرق وأدعاها للأمان ، ورغم التزام هانيبال للحيطة والحذر والتردد فقد وقع فى الشرك ، وأذن لهم فى قيادة الجيش فسلكوا به طريقا شديدة الضيق تحفها الأخطار ، ومضوا فيها حتى إذا حانت الساعة استيقظ الجيش من غفلته فإذا الصخور الضخمة تنحدر زاحفة اليه ، ووابل الأحجار ينهال عليه - فى غير تمهل ولا انقطاع . . . وساعده على احتمال هذا الشر النازل وجود الفيلة

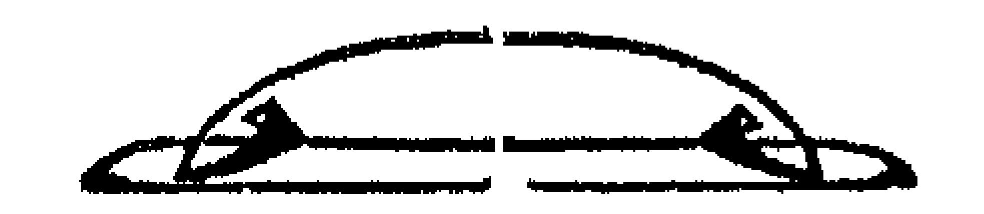
فى صفوفه لأن الأعداء كانوا يخافونها ويجفلون إذا رأوها مقبلة عليهم فى سلاحها الرهيب ، حتى تمكن من أن يصمد لهذه المكيدة وينجو من شرها وإن لحقته منها خسارة فادحة .

وكان هانيبال يلتقى فى مسيره بصخور ضخمة لا يقوى رجاله على ارتقائها أو اقتحامها أو الانحدار منها ، فكان يلجأ ـ فيما يقال ـ الى أشجار تجاوره فيستمد منها الوقود ، ويكدسه أكواما كثيفة يوقدها اذا هبت الريح ، ويصب الخل فيذوب الصخر وينحل حتى لا يقوى على إحتمال الآلات الحديدية التى تعمل فيه بعد ..

وكان الجيش يمضى فى طريقه يقاوم البرد القارس والثلج الهاطل والصخر الرابض والعـــدو الكامن والنصب الملازم والمرض الداهم ، حتى ارتد الجنود إلى اليأس ومالوا إلى القنوط . . ولكن هانيبال أخذ يذكى حماسهم ويثير نشاطهم ويوقد آمالهم . ويلوح لهم بما ينتظرهم من خير حتى أشرفوا من قمة عالية على سهول ايطاليا الخصبة فصاح فيهم قائلا :

ايطاليا لا تقنعنا . . روما . . روما ستكون فى قبضة يدنا بعد معركة ـ أو معركتين إن طال الجلاد واشتد الكفاح..

وانحـدر الجيش إلى السهول فبلغها فى ستة أيام بعـد أن جاوزت رحلته إليها من « سغنتم » أربعة أشهر طوال حافلة بالأهوال ، وأضحى الجيش عشرين ألفاً وستة آلاف فارس ـ أنهكهم النصب وضعضعهم الضعف . وخلف فى طريقه ثلاثة وثلاثين ألفاً نهبا مقسما بين المرض البغيض والبرد الشـــديد والتعب الملح . .



فتـــح إيطاليـا

ا » تريبيا : آية النعمة فى سيما الانسان ـ استهانة قادة الحرب بالنفوس البشرية ـ خلفاء سيبيو يحملون رءوس الرومان إلى معسكر هانيبال ـ فرار سيبيو إلى تريبيا ـ انتصار هانيبال

ب » ترازمين : حلفاء هانيبال يضيقون به ـ تنكره ـ مشاق رحلته العجيبه ـ فقدان عينه ـ لا يشعرون بهزة زلزال عنيف ـ اكبار البطولة للبطولة ـ الاحجام عن غزو روما ـ سياسة التخريب

ج » سياسة التوانى فى اضرام النار :

مثال من حيل هانيبال مع أعدائه ـ المشاعل فى قرون ألفين من الثيران . هياج الحلفاء على قائد الروما ـ عودتهم إلى الرضا عن سياسته ـ فوز الحزب الداعى للحرب فى الانتخابات ـ فارو وأمليوس .

« ا » تريبيا Trebia.

توارت من جنود هانيبال بعد هذا الجهـــد المميض سيما الأنسان ، وسواهم التعب الشاق فى سحنة القردة وما إليها بسبيل، وليس ذلك ببدع فان المكدود الذى أعياه الإجهاد طويلا، يحمل معالم الشقاء وآيات النصب فى سحنته ، كما يحمل السعيد الذى طال

تمتعه بالعيش الرغيد آية النعمة فى وجهه ، فأصاب العطف هانيبال على هؤلاء الأشقياء الذين يسمون « ناسا » تجوزا فى التعبير . . ! وأمهلهم عدة أيام يتنفسون فيها برد الراحة . . ثم ألقى طعنته الأولى فإذا قبائل إيطاليا الشمالية فى صفة ، تمده بالعون ، وتزوده بالذخيرة ، وتقدم له المقاتلين عن سعة . . !

فلما بلغه أن سيبيو P. Scipio قنصل الرومان قد اقتحم جبال « الأبنين » وعبر نهر « البو » وتهيأ للقائه ، أمر طائفة ممن أسرهم عند اجتياز الألب أن يقاتل بعضهم بعضا ، فمن أصاب نصراً فقد فاز بحريته وانطلق محملا بالسلاح جزاء انتصاره ، ومن أخطأه التوفيق لقى حتفه إن ضل الموت سبيله إليه أثناء قتاله ، وأقيمت المباراة وأقبل الأسرى على القتال يحتويهم الاقدام وتملأهم الحاسة ، ويحدوهم الأمل ، وتحوطهم غبطة زملائهم من سكان الألب الذين لم يقع عليهم اختيار هانيبال . . وبينما المقاتلون يثيرون العثير ويغيبون خناجرهم فى أجسام خصومهم فتهوى إلى الأرض جثثهم ، إذ بهانيبال يتجه إلى رجاله ويقول لهم :

إن هذا ليمثل موقفكم أصدق تمثيل ، فأنتم اليوم مخيرون بين

أمرين لا ثالث لها : التمتع بفخار النصر وجلال الحرية ، أو ملاقاة موت شائن لا مفر منه ولا خلاص من عاره ، فانظروا كيف أقبل على القتال هؤلاء البرابرة ، وحذار أن تكونوا أقل منهم حماسة للحرب وانتصارا للقتال . . ! »

وكان يعلن - منذ عبر الألب - فى أنحاء إيطاليا أنه إنما جاء ليخلص الطليان من شر الرومان ، وأعطاهم دليلا يشهد بصحة دعواه فأطلق سراح الأسرى من أهل إيطاليا دون أجر ولا افتداء .

ثم اضطرمت النار بين العدوين على الشاطىء الشمالى لنهر البو واشتد سعيرها حتى كاد أن يقضى سيبيو فيها نحبه

ولكن ابنه الذى لم يتم الحلقة الثانية من عمره ، قد أنقذه من فم الموت بعد أن أصابه جرح بليغ . . ثم لاحت بوادر النصر بعد أن طال انتظاره وامتد أمد الجهاد فى سبيله ، فخف إلى معسكر هانيبال كثير من قادة الغاليين الذين كانوا ينتصرون للرومان وينتظمون فى صفوفهم ، بل انقض بعضهم على الرومان وأعمل فيهم سيوفه وخناجره ، ثم حمل رءوسا فصلها عن أجسام أصحابها ومضى بها تحت جنح الظلام إلى معسكر هانيبال لتكون

أنطق دليل على وفائه ، وأبلغ حجة على استيائه من الرومان . . !!

فدعا هانيبال قادتهم وزعماءهم واستعرضهم أمامه ، ليعرف مدى العون الذى ينتظره منهم ، ومبلغ الولاء الذى يحملونه له فى قلوبهم . . .

وارتاع سيبيو لهذه الحركة التى أخذت تسرى فى حلفائه من أهل الغال ، ودفع به الفزع إلى المضى شمالا حتى إذا بلغ تريبيا Trebia استقر بها واطمأن على حياته من كل سوء . .

وأرسل هانيبال الأفريقيين من فرسانه ليتعقبوه وينزلوا به الشر فى طريقه ، فأبطأوا وتوقفوا عن المسير عند ما بلغوا معسكر الرومان ، ليقوموا بواجبهم فى نهبه وسلبه وإحراقه . . !

وعوّض هانيبال هذه الفرصة التى فرت من يده ، بالاتفاق مع حارس الحصن الذى جمع فيه الرومان ذخائرهم ، على تسليمه فى سبيل أربعمائة قطعة من الذهب .

وأقبل بعد هذه الصفقة قنصل الرومان الثانى ، فأضفى على جيشهم لجبا يوحى بالأمل ويبعث على الرجاء ، فاعتزم أن يسارع إلى القتال حتى إذا تخلف زميله بسبب الجرح الذى ألزمه فراشه ، حمل وحده فخار النصر الذى يصيبه ، واتجه إليه إعجاب روما

وإكبار جنودها قبل أن تنقضى سنة خدمته . .

وكان هانيبال لا يقل عنه شوقا للحرب ورغبة فى اقتحام نيرانها ، فأعلنه بها وتقدم له قائد الرومان بجيش يلذعه الجوع ويؤذيه برد الشتاء القارس ، وكان المطر ينهمل فى غير شح حتى غمر نهير تريبيا وعلا بين شاطئيه حتى بلغ صدور الرجال .

أما جيش هانيبال فقد كان يقاتل موفور الحظ من الدفء والشبع على السواء . فأثخن عدوه ضرباً وقتلا وأطلق فيه يده حتى أفقده نصف قوته الجبـــارة بين هالك وشريد وأسير وضال . . !

« ب » ترازمين

ولكن أهل الغال الذين خفوا إلى نصرته من قبل ، وأمدوه بالعون وأحاطوه بالعطف قد أحسوا بأنهم مطالبون بأن يسدوا حاجة الجيش من زاد وذخيرة ومقاتلين ، فساءتهم هذه الضريبة البغيضة وتنكروا له حتى داخله الريب فى إخلاصهم ، وخشى أن يغتاله واحد منهم ، فأخذ يتنكر فى زيه ويلبس شعراً مستعاراً ويجاهد ليخفى عنهم أمره . . . !

وكانت جيوش الرومان تراقبه وتتولى حراسته ، فاتقى فى سيره مظان وجودها ، وانطلق إلى قلب اتروريا Etruria - فى شمالى إيطاليا - سالكا أخصر الطرق وإن ملأته المستنقعات حتى عزّ على رجاله أن يجدوا فيه مكانا يتنفسون فيه برد الراحة ، فكانوا إذا ضاقوا بمشقة السفر ألقوا فى الماء أمتعتهم وجثث الهالك من خيلهم ، وانحطوا عليها هامدين .

وقد أدركهم فى هذه الرحلة النصب الممض ، ونزل بهم الجوع البغيض ، ولج بهم شوق إلى النوم ، ولحق بهم أذى بالغ . وقاسمهم هانيبال ما اصطحبهم فى رحلتهم من شقاء ، وسابقهم إلى أخذ نصيبه كاملا غير منقوص ، ففاز برمد أصاب عينيه ولم يفارقهما حتى اصطحب معه إحداهما . . . !

ومضى هانيبال فى طريقه وقد خلف وراءه جيش العدو وأضحى خطراً يزحف على روما التى لا يفصلها عنه جيش يحميها ويتولى الدفاع عن أهلها ، فلما طار النبأ إلى « فلامنيوس » Flaminius قائد الجيش الرومانى تعقبه فى غير تباطؤ ، كمن له هانيبال - وكان يتوقع مجيئه - فى تلال تمتد على كثب من شواطىء بحيرة ترازمين Trasumennus حتى إذا مر به انقض عليه هانيبال بخيله

ورجله، وأوسعه ضربا وأثخنه قتـــلا وفتك به فتكا ذريعا ، ولم يتيسر للعـدو أن يتقى هذا الشر الداهم ، لأنه فوجىء به على غرة وهو محصور بين البحيرة وجيش هانيبال فى جو أعتمه الضباب الـكثيف ، وكان جيشه - إلى هذا - مضطرب النظام يعوزه التدريب وينقصه المران ، إذ كان حديث عهد بالحرب لا يعرف أفراده إلا فلاحة الأرض وزراعة الـكرم وصناعة النبيذ .

على أن المعركة قد استمرت تضطرم ثلاث ساعات كوت فيها المقاتلين بنارها ، وأفقدتهم إحساسهم بما يدور حولهم حتى لم يتيسر لواحد منهم أن ينتبه لهزة زلزال عنيف ثار أثناء المعركة وأصاب بالتخريب أكثر من مدينة فى إيطاليا . . . !

وسقط فى هذه المعركة الحامية قائد الرومان فلامنيوس ، وخار جنده وخبت نارها فالتمس بعضهم سبيل الهرب بين التلال ، وسبح البعض ناجيا بنفسه ، وتوقف عن السباحة من كانت تثقله الأسلحة ، وجازف بعض هؤلاء فألقى بنفسه فى أحضان الماء يائسا ، فغرق من غرق وتقهقر إلى الشاطىء من لم يقوَ على السباحة ، فاستقبلتهم سيوف الأعداء وقامت بواجبها نحوهم . . . وقد تجاوز عدد الهالكين الآلاف من الرومان ، وألفين وخمسمائة

مقاتل ، وبلغ عدد الأسرى من الجيش المنهزم خمسة عشر ألفا . . . !

فلما سكنت عاصفة القتال وثبت الذكرى إلى خاطر هانيبال، وملأت كيانه بالأسى لمصرع خصمه العنيد : قائد الرومان ، فأمر رجاله بالبحث عن جثته ليحسن دفنها ويعز مثواها ، ويؤدى واجبه فى إكبار البطولة وتقديس ذكراها . . !

ثم انتقل هانيبال إلى الجنوب دون أن يفكر فى غزو روما التى يعوزها اليوم من يحميها ويقوم على الدفاع عنها ، ومضى إلى الجنوب الشرقى يعيث فى كل أرض يمر بها فساداً ، ويمتص ما بها من غنائم وأسلاب حتى بلغ البحر الشرقى على كثب من مدينة « هادريا » Hadria واستراح بعد هذا العناء الشاق . . وكانت خيله مغطاة بالجروح والقروح فاغتسلت بنبيذ معتق عافاها من آلام ما بها .

ثم خطر له أن يتصل بوطنه الذى انقطعت عنه أنباء حملته منذ عبر نهر الأبرو ، فأرسل اليه رسله حاملة وصف ما قام به من حروب وما انتهت إليه من نتائج . .

وانطلق بعد هذا إلى الجنوب مطلقا يده بالتخريب والتدمير

فى الجناح الشرقى من إيطاليا حتى بلغ « أبوليا » Apolia

وكانت عداوته وقتئذ وقفا على روما وحدها فأمر بقتل مواطنيها وإهلاك فتيانها الذين يقوون على حمل السلاح . أما الطليان الذين وقعوا تحت يده فقد عفا عنهم وحرص على سلامتهم .

« ج » سياسة التوانى فى اضرام النار

فلما عرفت روما أن هانيبال قد خلفها وراءه ماضيا فى طريقه زايلها الفزع وفارقها الجزع ، وتيسر لأهلها التفكير فى جو من الهدوء والسكينة ، فأجمعوا على الحرب رأيهم دون أن تدب إلى واحد وسوسة الضعف ، أو تتسلل إليه همسة العجز ، فتميل به إلى الرغبة فى التسليم ، أو يميل به اليأس إلى التفكير فى طلب الصلح ..

وسلمت روما قيادتها إلى جندى مارس الحرب وخبر شئونها ومهر فى فنونها ، ونصبته دكتاتوراً لا يحاسب عما يرى ويفعل - ذلك هو كونتوس فابيوس ماكسيموس - Quintus Fabius Maximus فبدأ بتقوية الجيش والأسطول معا ، ثم أمر بتخريب كل شيء يمر به هانيبال . فلما تقدم جيش هذا فى طريقه أحس كأنه يضرب فى صحراء تشملها العزلة ، وينتشر الركود فى فضائها العريض . . !

وانطلق فى طريقه لا يجـــد من يعترضه أو يقاوم هجومه حتى بلغ أغنى مكان عرفته الدنيا فى زراعة الكرم، ذلك هو «سهل افلارنيان» Flarenian Plain وتعقبه «فابيوس» حتى إذا لقيه فى هذا السهل وثبت الغبطة إلى نفسه، واستخفه الرضا وأخذه الظن بأن عدوه قد صاده الشرك، وانسدت فى وجهه سبل الخلاص فى شتى المناحى..

ولكن هانيبال كان خصب القريحة سريع البديهة فى ذهنه فيض من الحيل والمكائد ينطلق فى أشد الأوقات عسراً وضيقا، فما أحس بتعذر الهرب حتى هيأ الحيلة التى تكفل لنفسه ولجيشه النجاة محملا بكل ما أصابه فى طريقه من غنائم وأسلاب.. قيل إنه جمع ألفين من الثيران التى كانت تكتظ بها البلاد التى قام بسلبها وتخريبها، وأوثق بقرونها جميعا حزما من عساليج جافة، ولما أقبل غسق الدجى تقدم إلى الشرق والثيران فى طليعة جيشه، فما بلغ التلال حتى أمر بأن تشعل حزم العساليج.. فلما انتشر وميض النور شاع الرعب فى الثيران، وما اتصل اللهب بلحمها عند منبت قرونها حتى اندفعت تعدو إلى الأمام فى وحشية باديه الأثر، فريع الأربعة آلاف رومانى الذين كانوا يقومون على

حراسة الممر الرئيسى فى التلال ، ونال منهم هذا المنظر كل منال، وأيقنوا أنه خطر رهيب يقبل عليهم ويسارع إليهم وإن تعذر عليهم أن يدركوا حقيقته . . ! فبارحوا مكانهم وانطلقوا إلى أعالى التلال مذعورين . . !

ورأى فابيوس هذا المشهد العجيب وهو فى معسكره ، فشاعت الحيرة فى نفسه ، ولم يجرؤ على أن يبرحه حتى تنفس الصبح . . ! ونجا هانيبال بجيشه وأسلابه فتعقبه فابيوس وقد ناء بثقل هذه الصدمة ، لأنها أثارت عليه خصومه الذين أخذوا يهاجمون فى المجلس سياسته ، وينعون عليه تفويت الفرص بالتزام البعد عن الحرب على كره منهم ـ فالحلفاء الذين خلف لهم هانيبال الخراب والدمار فى بلادهم ، ولم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم تنفيذاً لسياسة الدكتاتور ، قد هاجوا غضباً وغلا الدم فى رءوسهم ، وصبوا على فابيوس لعناتهم فى سخاء ، وكذلك كان موقف الأغنياء الذين رأوا ممتلكاتهم وقد أصابها الخراب او تولاها الفقر، قد جأروا بالاستياء والشكوى .

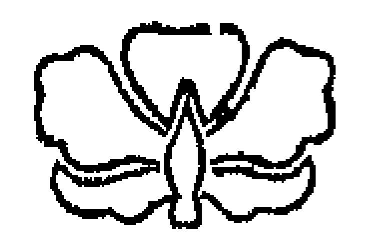
وانطلق الدكتاتور ، إلى روما فى قضاء أمر يعنيه ، وترك قيادة الجيش لسيد الفرسان ـ كما كانوا يسمونه ـ « منوكيس »

Minucius بعد أن شدد عليه فى التزام السياسة التى ترمى إلى تجنب القتال مع العدو ـ جريا على سنته ـ ولكنه عصى الأمر وقام بحرب أفضت إلى نصر غير مبين ، فلما اتصلت أنباؤه بروما اشتد خصوم فابيوس فى الهجوم عليه والحط من شأنه والسخرية بسياسته ، وطالبوا الشعب بتقسيم الجيش بين الدكتاتور وخليفته ـ ولكن هانيبال أنزل بالثانى هزيمة أدت به إلى الاعتراف بخطيئته ، وتسليم القيادة كلها إلى بطلها فابيوس .

وكانت سياسته ترمى منذ البداية إلى ترغيب الرومان فى الحرب ، وكانوا يرهبون نارها ويخشون شرها حتى صب المواطنون على قادة الجيش سخطهم ونالوا منهم كل منال ، وخاف هؤلاء إن هم تمادوا فى ترك هانيبال يعيث فى الأرض فسادا ، أن يفقدوا عطف حلفائهم ولا يجدون النجدة إذا التمسوها ، فمالوا إلى الحرب وكانوا عنها معرضين . . .

ولما بدأت الانتخابات فاز الحزب المؤيد للحرب فوزا مبينا ، وانتخب «فارو» C.T.Varro قنصلا بأغلبية ساحقة ، فأضاف إلى جيشه قوات عديدة آض بعدها تسعين ألف مقاتل يحنون إلى الزحف على هانيبال .

أما القنصل الثانى أمليوس Amelius فقد كان جنديا مارس الحرب وخبر أمرها ومهر فى فنونها ، فوثب الى خاطره الشك فيما ستنتهى اليه المعركة المعتزم إثارتها ، وأراد التمهل بها والاتئاد فى خوض غمارها ، فأخفق مسعاه لأن « فارو » كان تواقا لها نزاعا لإشعال نارها ، ومضى - على كره من زميله - إلى مكان يتوسط هانيبال والبحر ، ثم استقر على أرضه ، فكان هذا نذيراً بما ينتظره من ويل وما سيلقاه من شر .



مجـــزرة كانى

الشخصية الأخاذة ـ جيوش العدوين ـ علم يخفق على معسكر « فارو » ـ جحيم القتال رسالة « أمليوس » إلى روما ـ فظاظة القرطاجيين

. للشخصية الفذة سحر أخاذ بالنفوس خلاب للخواطر خداع للناس ، وإن صاحبها ليفعل باسمها ما لا يقوى على فعله بكل ما أوتى من مواهب وكفايات ، وإنه ليتسلط على رقاب الناس وليس لديه من الصفات الملموسة ما يبرر سلطانه الواسع النطاق . . بل إن اسمه وحده ليحمل الناس على جناح الخيال ويسوقهم على غير وعى منهم إلى حيث لا يرغبون . .

وقد كان هانيبال ـ كسائر الأفذاذ من الأبطال ـ يبعث فى جنوده الميت من آمالهم ، ويشعل الخابى من نشاطهم ، ويثير الراكد من حماستهم حتى ليحسون بالحياة تدب فى نفوسهم ، وفتوة الشباب تشيع فى كيانهم ، رغم ما ينالهم من ضعف وما ينتابهم

من اضمحلال .

وقد حط على الجيش الهزال بعد ما خاض من معارك واقتحم من حروب ، وها هو ذا اليوم يقبل على معركة حامية ، فيخلق هانيبال من هزاله قوة ، ومن ضعفه فتوة ، ومن يأسه رجاء ومن ركوده نشاطا . .

وأقام « هانيبال » معسكره على كثب من « كانى Cannae » جنوبى نهر أوفيدس Aufidus وكان جيشه ستين ألف مقاتل ، فوكل إلى عشرة آلاف منها حراسة المعسكر ، وأقام فى الجناح الأيسر ثمانية آلاف فارس كلهم أسبان وغاليون ، يتولى قيادتهم هسدروبال ـ وهو غير هسدروبال أخى هانيبال ـ ويليهم المشاة من أهل إفريقيا ، وقد استعاروا ملبسهم وسلاحهم من غنائم « تريبيا » Trebia وترازمين Trasemene ويليهم بقية المشاة من الأسبان والغاليين يتولى أمرهم « هانيبال » وأخوه « ماجو » Mago ، وقد ارتدى الأسبان كعادتهم ثياباً من كتان فى أكمام قصيرة ، وتقلدوا سيوفا ذات أطراف مدببة يلقونها فى جسم العدو ولا يطعنونه بها وهى باقية فى أيديهم ، أما أهل الغال فكانوا يحملون سيوفا طويلة غير مدببة تظل فى أيديهم طوال المعركة ،

وقد استعان الفريقان بدروع مستطيلة تقيهم شر الأعداء ، وكانوا طوال الأجسام حتى بدوا عمالقة في نظر الرومان والطليان ، وكان يلي هؤلاء جميعا فرسان من أهل إفريقيا ونوميديا Numidia

أما الرومان فقد كان جيشهم ثمانين ألف مقاتل ، يبدأ بفرسان روما ، يليهم المشاة ويبلغون سبعين ألف راجل ، يعقبهم فرسان الحلفاء يتولى قيادتهم « فارو »

وتنفس الصبح مع علم يخفق على معسكر «فارو » معلنا الحرب منذرا بشرها المستطير وويلها الرهيب . . وكان الرومان يواجهون الشمس في وقفتهم ، فأنقذهم الصباح الباكر من أذى توهجها ، ولكن ريحاً حارة ساقت سحبا من الأتربة على وجوه الرومان كادت تفقدهم القدرة على النظر إلى ما يجرى أمامهم .. وبدأت المعركة بوابل من الأحجار يهطل على الجيش الروماني ، ويشيره حتى يتقد العراك نارا حامية ، فيتطاير العشير وتغيب في الأجسام السيوف ، وتدفن فيها الحراب والخناجر وتسيل الدماء ، وتغطى الأرض جثث القتلى والجرحى ، ويمتلىء الجو بالأنين يتجاوب مع صليل السيوف حتى يمل القرطاجيون الذبح والفتك والأسر والتشريد . . . !

وقيل إن فى هذا العذاب الذى يتقد فى جهنم طارت إلى صفوف الرومان كتيبة من جيش هانيبال ، وألقت على الأرض حرابها ودروعها وكل ما تحمل من أدوات القتال وسلمت للعدو نفسها ، فرحب بها وأخلى لها الطريق لتجتازه إلى صفوفه الخلفية ، وتظل النار فى اشتعالها حتى اذا حان الوقت الملائم واشتد هانيبال على صدر الجيش الرومانى ، أخرجت هذه الكتيبة حرابا وخناجر وسيوفاً كانت تخفيها تحت ثيابها ، وأعملتها فى مؤخرة الجيش المخدوع ، فانتشر فيه الذعر وذاع فيه الروع وعلا صياحه وعويله ، وتمشى الاضطراب بين صفوفه ، وانطلقت جموعه تهرع يمنة ويسرة لا تعرف اتجاها تسلكه لتنجو من هذا الجحيم ، وتتقى العذاب الذى يمطرها به هانيبال ويحيطها بشره من وراء ومن قدام . .

وتتساقط جثث الخيل مع جثث القتلى والجرحى بعضها فوق بعض يلاقى الحى منها عذاب الأثقال التى يحملها فوق آلام ما ينبث فى جسمه من جروح . . !

وفى وسط هذا الجحيم يبصر ضابط رومانى ضابطا من جنسه وقد انحط على حجر ، وانثنت رقبته لا يملك رفعها ، والدم يتدفق

من جسمه ، فيسير نحوه و يتبينه فإذا هو القنصل الروماني «أمليوس» يوشك أن يدركه الإغماء . . ! فيتقدم الضابط نحوه و يعرض عليه جواده ليمتطي ظهره ، وينجو من هذا العذاب الذي يتنفسه كارها ـ فيأبى القنصل قائلا :

لست أريد البقاء حيا ، فامتطِ جوادك وسارع إلى روما ، وقل للحكومة على لساني إنا خسرنا كل شيء ، لتتأهب للدفاع عن روما قبل أن يدركها هانيبال . . ! فيتركه الضابط ويمضي على جناح البرق ليعلن لها هذا النبأ المروع . . ويبقى القنصل في مكانه لا يريم ، حتى يمر به فيلق من جيش هانيبال فيغرز في جسمه الواهن حرابه واحدة بعد أخرى حتى يلفظ نفسه الأخير . .

وبعد ثماني ساعات من بدء المعركة كانت الشمس تهمّ بالمغيب وتهيء للأشقياء سبيل الهرب . . ! ففر تحت جنح الظلام ثلاثة آلاف مقاتل ، وهلك سبعون ألفاً بينهم ثمانون عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ ، وهرب « فارو » بسبعين فارسا ، وأسر معسكر الرومان وسجن الذين كانوا يتولون الدفاع عنه .

أما هانيبال فقد خسر في هذا الجحيم كله ستة آلاف مقاتل هلكوا في بداية المعركة . . !

فإذا أصبح الصباح انطلق الجند إلى ساحة الحرب ، ليشهدوا آيات النصر الزاهر وبوارق الأمل الباسم ، فإذا آلاف الجثث ملقاة تدمى جروحها ، ويتأوه من أصحابها من لم تفارقهم الحياة بعد ـ وما كانوا على التأوه والأنين بقادرين . !

وينساب الجنود وسط هذه المأساة الرهيبة ليطعنوا الجرحى بحرابهم ساخرين ضاحكين . . ! ويكشف بعض هؤلاء صدورهم طالبين الخلاص من شقاء آلامهم وعذاب ما بهم . . !



نتائج كانى

احترام الهزيمة عند الجماعات — سحر « كانى »
انضمام كابوا — وسط ايطاليا وجنوبيها —
حكم التاريخ — حماسة « مهربال » وسياسة
« هانيبال » — « ماجو » يخطب فى مجلس
الشيوخ ـ زعيم حزب السلام يبسط اعتراضاته
نجدة هانيبال

« ١ » على قرطاجنة

تقول سيرة النصر والاخفاق فى تاريخ الكفاح بين الأمم، إن الجماعات البشرية لا تعرف السبيل الى احترام الهزيمة، ولا تدرك القداسة التى ينطوى عليها احتقار الغلبة فى كثير من الأحيان، لأنها بطبيعتها تخاف القوة وتتملق أصحابها، وقد تدفع كرامتها اتقاءً لشرهم وحرصا على كيانها من عدوانهم . . !

على أن انتصار « كانى » لم يكن منقصة لصاحبه ولا معرة لتاريخه ـ فى عرف تنازع البقاء إن لم يكن فى عرف ملائكة

السلام ـ وقد اجتمعت فيه آيات القسوة ومعالم الروعة ، فانتشر نبؤه فى مشارق الأرض ومغاربها ، وساق خصوم الغالب إلى طلب مرضاته ، والسعى للسير فى ركابه . . !

ففى كابيوا : Capua بدأ الشعب يجأر بالهتاف لقرطاجنه ، وطلب الانضواء تحت علمها ، وأبت جماعة الأشراف ترداد الهتاف ، وقاد حركة المعارضة شريف صاهر بيتا من بيوتات روما المعروفة ، فثار الشعب فى وجه مجلس الشيوخ ، واغتال طائفة من الرومان الذين يقيمون فى المدينة ، ثم أرسل وفداً يدعو هانيبال إلى زيارتها . .

وكانت « كابيوا » موفورة الحظ من القوة والشهرة والعظمة لا يعلوها بين سائر المدن الايطالية غير روما وحدها ، وكان فى مقدورها أن ترسل إلى الميدان ثلاثين ألف راجل وأربعة آلاف فارس مزودين بالعدد والذخائر .

فلما اتصل بهانيبال وفدها ، وأبلغه دعوتها خفّ إلى إجابة المطلب وقد استخفه الرضا وشاعت الغبطة فى كل جارحة فى جسمه ، واعتبر هذا نصرا يفوق انتصاره فى « كانى » . .

ولما بلغ هانيبال المدينة حضر اجتماعا عقده مجلس الشيوخ

بها ، فتعهد للأعضاء أن تأخذ « كابيوا » مكان روما فى سالف مجدها وغارب عزها . فنال فى نفوسهم بالوعد أكثر مما كان يحتمل أن يناله بالسيف . . فلما اطمأن إلى ميلهم له ومرضاتهم عنه ، طلب إليهم أن يسلموه رجلا من أهل المدينة تولى مقاتلته منتصراً لروما وأبلى فى حروبه بلاء حسنا ، فألقوا القبض عليه وسلموه إليه ، فأرسله هانيبال إلى قرطاجنه . . !

وسط إيطاليا وجنوبيها : وانساق إلى هذا المصير معظم القبائل فى وسط إيطاليا والمدن الآهلة بالسكان العامرة بالقوة فى جنوبيها ، وسارعت إلى عصيان روما والانتصار لهانيبال . . ! وما كان لهذا الانسياق من سر إلا روعة النصر ، وخديعة الغلبة، وإيحاء الرهبة . .

* * *

وبينما التاريخ يتأهب ليعلن للناس حكمه ، فينشر طرسه ويتناول قلمه ويهمّ بأن يقول للأجيال المقبلة :

تهيأت لقرطاجنه سيادة الغرب وإمامة الدنيا بعد « كانى » وشاخت روما قبل أوانها فابيض شعرها ، واصفر لونها ، وتقوس ظهرها ، ودب الوهن فى عظامها ، وتمشى السقم فى أوصالها ،

وأصاب ساقيها الانحلال، وعينيها الضعف، وجسمها الهزال، وحشرجت الروح فى صدرها فأعد الزمن رمسها، وراح يكتب للناس نعيها . . بينما التاريخ يتأهب لإعلان هذا النعى فيفرغ من روما الهرمة، لينصرف إلى قرطاجنه الفتاة، إذ بصوت القضاء يهمس فى أذنه :

بل ستحيا روما .. هكذا أراد الرومان، وإرادة الشعوب من إرادة الله »

فيرفع التاريخ قلمه، ويطوى طرسه، وقد أخذه الذهول، لأن تجربته بالاضمحلال والبعث كانت إلى هذا العهد، أضيق من أن تحتمل هذا النبأ الجديد الذى يطرق سمعه . .

وفى الحق إن الحادثات التى انتهى إليها هذا الكفاح العنيف، لتبعث على الحيرة فى أمر روما المغلوبة . . فإن حلفاءها قد تألبوا عليها، وائتلفوا مع العدو وأجمعوا الرأى على دحرها، وأحاطوا بالأخطار حياتها، وهى فى أمس الأوقات حاجة للعون، وأدعاها لشد الأزر . .

أما هانيبال فقد التف حوله قادته وضباطه والطرب يستخفهم والتفاؤل يحملهم على جناحه ويحلق بهم فى فضاء المستقبل السعيد.

فيقول له « مهربال » Mahrabal قائد الخيالة فى جيشه :

بعد أربعة أيام على التحقيق، تتناول عشاءك فى « الكابيتول » فدعنى أنطلق بخيالتى إلى روما ، لأفجأها بقدومى وأفسد عليها التفكير فى التأهب لاستقبالى .

ولكن هانيبال كان يؤثر التأنى والاتئاد حتى يمتد أجل العذاب الذى يتجرعه العدو ، ويمتع النفس بمرآه وهو يحتضر ، لأن كراهة الإنسان لأعدائه لا تعيش فى قلبه إذا انتقم لنفسه منهم ، وهو يريد الاحتفاظ بالبغضاء عاش . . ! فينفجر مهربال فى سورة كلها غضب ويقول له :

« إن الله لا يهب كافة نعمه لانسان واحد ، فأنت تحسن معرفة الطريق إلى النصر ، ولكنك لا تعرف السبيل للاستفادة من نصرك . . »

وسيجىء اليوم الذى يندم فيه هانيبال على تفويت هذه الفرصة دون أن يغتنمها وينتفع بها . .

ولكن روما أخذت تهيىء نفسها لقتال عدوها ، والدفاع عن حياضها ، فأرسل هانيبال أخاه « ماجو Mago » إلى قرطاجنه يطلب العون ليتيسر له أن يضربها الضربة التى تستل حياتها على عجل . .

فلما مثل « ماجو » بين يدى الأعضاء فى مجلس الشيوخ ، انطلق يصف لهم روعة النصر الذى أصابه هانيبال ، وجلال الاندحار الذى لاقته روما فى مجزرة « كانى » وما سبقها من معارك، ويحدثهم عن الذين لاقوا حتفهم من أعدائهم وقد بلغوا المائتى ألف قتيل ، والذين زج بهم إلى غياهب السجون وقد بلغوا الخمسة آلاف مقاتل ، حتى إذا فعل خطابه فى نفوسهم فعله ، صب على الأرض ما جمعه الجنود من خواتم كان يتزين بها أفراد الطبقة العليا فى خيالة العدو ، فيأخذهم العجب وتتولاهم الغبطة .

ولكن «ماجو» يختم خطابه الممتع بطلب النجدة التى يستلزمها هذا الموقف الأخير لإنهاء الكفاح بين قرطاجنه وأعدائها ، لأن هانيبال قد أصاب النصر الحاسم وحفر للعدو قبره بثمن . . . . زهيد . . دفعه من رءوس جنده وجهود الأحياء منها ، وروما بلد حربى محكم التحصين ، على أهبة للدفاع عن نفسه فى كل حين ، وهو لهذا يناشد الوطن المال والرجال والذخائر . .

فيصيب هذا المطلب قبولا من نفوس الأعضاء الذين أسكرتهم أنباء النصر وكانوا من دعاة الحرب ، ويلتفت أحدهم إلى « هانو » Hanno زعيم الحزب المطالب بالسلام ، المحنق على دعاة الحرب

ويقول له :

ألا يزال « هانو » نادما على إثارة الحرب ضد روما . . ؟

فيسارع هانو إلى الجواب قائلا :

بلى ، وسأظل نادما حتى أرى الحرب وقد وضعت أوزارها، وانتشر السلام فى ربوع البلاد ، إن قائدكم ليطلب من المدد ما لا يطلبه إلا القائد المنهزم ، فهو يقول لكم :

أهلكت جيوش العدو، فأمدونى بجنود .. ! أسرت معسكرين عامرين بالذخائر والأسلاب والغنائم، فأسعفونى بالحنطة والمال..! فماذا كان يطلب هانيبال غير هذا لو اندحرت جيوشه ، وسلبت ذخائره وحطت عليه أقسى الهزائم وأفظعها . . ؟

إنى لا أرى ما يبرر الآمال التى تعلقونها عليه ، وإلا فليجبنى ماجو : هل ائتلفت معنا مدينة واحدة من مدن اللاتين . . ؟وهل انضم إلى صفوف جيشنا رجل واحد من قبائل روما الخمسة والثلاثين . . ؟

فلم يستطع أن يجيب « ماجو » بغير النفى .

فعاد هانو قائلا : هل وصلتكم أنباء من روما عن رغبتها فى طلب الصلح . . ؟

فأجاب ماجو سلباً .

فقال هانو : إنا إذن لبعيدون عن نهاية الحرب بعدنا عنها يوم عبر هانيبال إلى إيطاليا ، وأنا لا أستطيع التصويت فى جانب الحرب ولا الموافقة على مدد يرسل ليطيل من أجلها ، ويكثر من عدد ضحاياها ، ويكبدنا خسائر جديدة ، ويتيح لعبادها كفاحا لا خير فيه ولا رجاء منه .

ولكن أنباء النصر كانت قد أسكرت بعض الأعضاء وخدرت أعصابهم ، فلم يملك شعورهم هذا البيان الذى أذاعه فيهم زعيم حزب السلام ، فأكرهوا المجلس على أن يرسل إلى هانيبال مددا ضئيلا يأتلف من أربعة آلاف جندى إفريقى وأربعين فيلا وزودوه بمال قليل .

وكان على « ماجو » أن ينطلق إلى أسبانيا ليؤلف جيشاً من عشرين ألف جندى ، تقوية لنفوذ قرطاجنه بها وبإيطاليا على السواء . . .

« ب » على روما

رصانة الخلق — تكوين الجيش من عصابات اللصوص — جزع النساء والاطفال — المجلس يقرر منعهم من مبارحة البيوت — انفضاضه لتهدئة الحال — الحراس على أبواب المدينة — موت « هيرو » ونتيجته

أما فى روما فقد بدا الخلق الرصين الذى هيأ لها الظفر بأوسع امبراطورية مرت بالتاريخ القديم، والتزم الشعب الثبات واحتمى بالعزم واستظهر بالرجاء فى المستقبل، واستعان بالتفاؤل فى عواقب الكفاح، وأعلن استعداده لنصرة قادته ولو كلفته الحياة وماملك، وبلغ من اتزان عقله واستقرار رأيه وثقته بنفسه، أن تقدم مجلس الشيوخ لاستقبال « فارو » حين عاد إلى الوطن بعد أن جلب عليه هذا الوبال كله، فأحسن استقباله وأزجى له الشكر على ما بذل من جهود وقدم من خدمات . . !

وشرعت روما فى إعداد جيش يحمى ذمارها ويحرس كيانها، وسلكت لتكوينه كل سبيل خطر لها، فجندت العبيد واستهوت عصابات اللصوص وقطاع الطرق وأهل الشر، واستمالتهم للانضمام إلى الجيش، ووعدتهم جميعا بالعفو عما سلف من جرائمهم وغبر من شرورهم، وائتلف لها بهذه الطريقة ثمانية آلاف جندى

لا يخشون غمرة القتال .

وأرسل هانيبال يعرض على روما افتداء الأسرى من جندها، على أن يكون الفارس بسبعة عشر جنيها والجندى من المشاة بعشرة جنيهات ، فأدركت روما بأن هانيبال لا يقدم على هـذا العرض إلا وهو موقن بأن الغنم له والغرم لها ، فأبت الاستجابة لمطلبه ، وهيأت نفسها لمقاومته وولت مارسلوس Marcellus قيادة جيشها ، ونفخت فى الصور تطلب العون من أهلها .

على أن النساء والأطفال قد أصابهم الهلع وأدركهم الجزع حين ترامت إلى سمعهم أنباء «كانى» ، إذ شاع فيهم الاضطراب وانطلقوا فى الشوارع يولولون ويبكون ويذيعون شائعات أكثرها من وحى الوهم وإملاء الجزع ، حتى خاف مجلس الشيوخ أن يفشو ما بهم من سوء ويمتد إلى الرجال الذين تعتمد عليهم روما فى استرداد مجدها ، وتمكين سلطانها ، وقرر المجلس الانفضاض ليتجـول أعضاؤه فى الشـوارع وينبثوا فى الدور وينتشروا فى كل أرجاء المدينة، ليهدئوا من أصابه الروع ، ويخففوا من هول الذعر الذى بدأ يساور روما بأسرها ، ولما شعر المجلس بأن النساء يبعثن فى الوطن خطراً أشد من خطر «كانى» أصدر الأوامر باستقرار النساء والأطفال

فى بيوتهم حتى لا يزداد القلق اشتعالا والجزع انتشاراً . . ! ووقف على أبواب المدينة حراس يمنعون هرب الذين أدركهم الروع ولازمهم الوجل . وبهذا اجتمع الرومان على اختلاف نزعاتهم وتباين مذاهبهم فى السياسة عند خطة واحدة ألفت بينهم : هى حراسة الوطن والاستبسال فى الدفاع عن كيانه . .

وفى هذا الظرف العصيب مات « هيرو » حاكم « سيرا كوز » الذى كان ينتصر لروما وإن لم يحمل العداء لقرطاجنه ، وكان رجلا طاعنا فى السن هيأت له خبرته بالحياة وتجاربه فى غمرتها حكمة وسداد رأى وبعد نظر ، وخلف حفيده هيرونيموس Hieronymus وكان يجمع إلى صغر السن وقلة التجارب غباوة لا تلتئم مع دقة موقفه ، فانتصر للجانب الذى خدعته قوته ، وكانت أنباء « كانى » ما فتئت تترامى ويتسامع بها الناس مشفوعة بشائعات مبناها الوهم ومصدرها الخيال ، فانضم إلى هانيبال وسار فى موكبه يملؤه الأمل فى سيادة صقلية بأسرها . . !

وتقدم « فيليب » ملك مقدونية الذى انتصر لروما فيما سلف من أيامها ، وأعلن استعداده للائتلاف مع هانيبال ، وإن لم يشد

أزره فى أمس الأوقات حاجة للعون

وكان هانيبال قدأمضى الشتاء بعد « كانى » فى « كابيوا » وعاش فى دعة وهدوء ، فزايل جيشه النشاط وأدركه الركود ، وأفسده العيش بعيدا عن ساحة القتال ، فلما اتقدت نيران الحرب كاد أن يعدل النصر الذى أصابه ، الأخفاق الذى لحقه . . ! وكان هذا التعادل بداية عهد جديد حافل بالعبر .



إلى الهـــاوية ...

استيلاء هانيبال على تارنتوم ـ حصار كابيوا
ـ هانيبـال يقرع أبواب روما ـ عقاب كابيـوا :
امتهان قداسة الطبيعة البشرية ـــ افلات صقلية
من يد هانيبال ـــ الكفاح فى أسبانيا : سيفاكس
وقتال قرطاجنـه مصرع (سـيبيو)
وأخيه فى ايطاليا ـــ نيرو وسيبيو البطل ـــ سيبيو
يحاول إشعال النارفى افريقيا ـــ تمرد الجيش
الرومانى وعودته إلى السكينة

لا تعرف حياة الشعوب مداً من غير جزر ، ويسرا من غير عسر ، وقوة من غير ضعف .. كأنها تستنفد حيويتها فى عهد شبابها ، وتلتمس الراحة فى مراحل شيخوختها ، وكثيراً ما تكون هذه الراحة استجماما لنشاط جديد تبتعث به فترة الشباب .. !

وقد لبثت قرطاجنه أمدا طويلا تتتبع حركات قادتها ، وترعى جهودهم راضية حينا وقلقة أحيانا ، حتى ملت هذا الكفاح الذى لم تتهيأ له ، واستنفدت الكثير من حيويتها ، وبدأت شمسها تميل إلى الغروب ...

إذ لبث هانيبال بعد « كانى » نحو خمسة عشر عاما يطوف أرض إيطاليا ويضرب فى مناكبها ، تصلاه وأعداءه نار القتال فيصيب التوفيق حينا وتسكويه الهزائم أحيانا .

فرت « سردينيا » من يده على كره منه ، وأدركت أحد قادته فى شمالى إيطاليا هزيمة فادحة أدت إلى هلاك المشاة فى جيشه ، والتماس من بقى منهم سبيل الهرب . . ولازم هانيبال الإخفاق فلم يقو على حصار « تارنتوم » والاستيلاء عليها حتى أوقعتها فى يده المصادفة وحدها . . !

ذلك أنها أرسلت إلى روما رهينة من أبنائها إعلانا لولائها ، فالتمس بعضهم سبيله إلى الفرار ، وثارت روما ووقعت عقابها ، فأمرت بإعدامهم رميا بالسهام ، واهتاج مواطنوهم لهذا النبأ واستيقظت الفتنة وتولاها نفر من الأشراف يُظن أن بينهم وبين من أعدموا صلة رحم وقربى . ثم اتصلوا « بهانيبال » نخف إليهم على رأس قوة قد انتقاها من جيشه ، وعسكر على بعد عشرة أميال من المدينة .

واتصلت بين حاكم المدينة وبعض الثوار أسباب المودة ، فنام عن رقابتهم ، وعاد بعضهم من الصيد خارج المدينة فى غسق الدجى

ومعه خنزير جذاب الطلعة فانشغل به حارس البوابه وافتتن بمرآة حتى غافلته فئة من جنــــود هانيبال وانقضت عليه واغتالته ، فانساب جيش هانيبال إلى المدينة وانتشر فى أرضها . وسارع الرومان إلى الاستيلاء على قلعتها ، وأراد الغزاة أن يترضوا النافر من أهل المدينة ويستميلوه إليهم ، فأعلنوا أنهم لن يمسوا بالسوء واحدا من أهلها ، فعلقت على الدور لوحات تشير إلى جنسيه ملاكها ، اتقاء لنهبها وتفاديا من تخريبها . أما مساكن الرومان فقد نالها الشر وأصابها الدمار . .

حصار كابيوا :

فانطلق الرومان إلى كابيوا ، وعسكروا على كثب من سهولها الخصبة ، ومنعوا أهلها من فلحها وزرعها حتى أعوزها القوت وسعى إليها القحط . وأخفق هانيبال فى نجدتها فسار إلى روما ليطعنها الطعنة البكر التى تكفل لحليفته الخلاص من ضيقها ، فبلغها وأقام معسكره على ثمانية أميال منها . . ! وكانت عزلاء لا تملك رد أذاه ، ولا تقوى على اتقاء شره ، فتعقبه أحد قادتها فى كابيوا » بخمسة عشر ألف مقاتل حتى أدركه وسبقه إلى المدينة ليتولى الذود عنها . . فلما اتصل هذا النبأ بسمع الرومان تولاهم

الذعر وانساب فى كيانهم الجزع ، فأما النساء فقد انطلقن إلى المعابد فى هياج مولولات ، وألقين بأنفسهن وشعر رءوسهن محلول أمام صور الآلهة وتماثيلها ضارعات باكيات . .

وفى اليوم الثانى مضى « هانيبال » إلى روما ، واقترب منها حتى ثارت عاصفة هوجاء ، وسحت السحب مطرها من غير شح ، فعاد إلى معسكره كأنما استجابت الآلهة لضراعة النساء ، وانتصرت لروما إشفاقا عليهن . . !

وعجب هانيبال لعجزه عن فتح هذه المدينة التى كان بالأمس يقرع أبوابها ، راغبا عنها غير ميال إلى فتحها ، أيام أن كانت القوة تسعى بين يديه ، ولو شاء ذلك يومئذ لألزمها طاعته من غير عناء . . واليوم لا تنقصه الرغبة ، وإنما تعوزه القوة فينتظر الحظ حتى يواتيه . . !

وأخفقت شتى المساعى التى قام بها لإنقاذ « كابيوا » فعاد إلى جنوبى ايطاليا ، مهيض الجناح مكسور الخاطر ، واضطرت « كابيوا » إلى التسليم للرومان ، فصبوا عليها عذابهم عن سعة ، وانتقموا منها شر انتقام ، ونال سكانها ـ خاصة وعامة ـ حظهم فى الجلد والسجن والتعذيب ، وامتهنت قداسة الطبيعة البشرية فصدرت

الأوامر بإعدام أولى الأمر فيها ، وقطعت رقابهم على قارعات الطرق ، ثم بيع بقية أهلها عبيداً . . !

وكانت هذه الهزيمة طعنة دامية لهانيبال ، جرحت صدره وأنقضت ظهره ، وأثقلت جناح شهرته ، وقوضت آمال حلفائه وضاعفت من مطامع أعدائه .

افلات صقلية من يده

وتضامنت الأقدار على إيذاء هذا الأسد وهو رابض يتلقى صدماتها واحدة بعد أخرى ، ويحتمل طعناتها رابض الجأش قوى الجنان .

ففى « سيراكوز » انقسم الشعب بعد اغتيال مليكه - حفيد هيرو - قسمين اختلفت بينهما وجهات النظر ، فانتصر الشعب لقرطاجنه ، ومال الأشراف للائتلاف مع روما . واشتد النزاع بين الفريقين حتى فاز الشعب فمضى الرومان إلى المدينة وضربوا عليها الحصار ، وجدوا فى الاستيلاء عليها ، ولكن الكفاح قد طال أمده وأشتدت ناره بفضل المعونة التى قدمها للدفاع المهندس

المعروف «أرشميدس» بيد أن الوباء قد انتشر في جيش هانيبال ، وفشى في جنوده ، ولزمهم حتى قضى عليهم قضاء رهيباً . . ! ولم يتيسر الأسطول بعد هذا أن يستنفد الوسع لخلاص «سيراكوز» خلفها ومضى إلى « تارنتوم » . . !

وعزّ على هانيبال أن يتقبل الهزيمة ويحتمل الطعنة هادئاً ، فأرسل جيشاً يتولاه رجل يتصل دمه بالقرطاجيين وإن لم يكن من خلصهم . فتحركت الفتنة في الجيش ، واستيقظت الثورة وساءت الحال وكانت الغلبة للرومان ، فدخلوا مدينة «أجريجنتوم» وأطلقوا فيها يدهم بالقتل والتعذيب والتشريد ، وأعدموا الكثير من خاصة أهلها ، وباعوا جموعا منهم رقيقا . . ! وتلك نهاية الضعفاء . وهذا حظهم عند الأقوياء . .

فأما سائر المدن التي انتصرت لقرطاجنه في صقلية وبلغت الست والستين عداً ، فقد استولى الرومان على ست منها بقوة السلاح ، وبسطوا نفوذهم على عشرين منها بطريق الخداع ، وسارعت بقيتها إلى التسليم بعد الاتفاق . .

وأفلتت صقلية بأسرها من برثن الأسد . .

وفى أسبانيا :

كان هانيبال حين انطلق إلى إيطاليا قد خلف فى أسبانيا جيشاً يتولى الضرب فى آفاقها والسير فى مناكبها ، ولكن سيبيو (الصغير) Scipio قد شتته وأفناه ، واستولى على الأسلاب التى لم يتيسر لهانيبال أن يحملها معه حين مضى إلى الألب ليعبرها ، ثم اتحد سيبيو الصغير بأخيه وانطلقا بالجيش إلى سغنتم حيث حفظ هانيبال فى قلعتها رهائن أسبانيا إلى حكومته، فاستولوا عليها بمكيدة دبروها مع ضابط كان يتولى حراستها ، وأرسلوا الرهائن إلى أسبانيا ، فذاع بين أهلها أمرهم ، وطاب لسكانها الحديث عن مآثرهم . .

ولازم النصر الرومان حتى أمست أسبانيا - كلها على وجه التقريب - فى قبضة يدهم .

وأمعنت الأقدار فى إيذاء « هانيبال » وتضييق منافذ الأمل فى وجهه ، فساقت « سيفاكس » Syphax ملك « نوميديا » Numidia فى شمالى إفريقيا لإعلان الحرب على قرطاجنه ، وأرسلت إليه روما رسلا تضاعف من أمله فى النصر ورجائه فى النجدة ،

وتوسع له فى رحاب المستقبل إن واصل عداءه لقرطاجنه .
وسارع هسدروبال إلى وطنه ليدفع عنه الخطر الداهم ، فائتلف مع جار « سيفاكس » وشر منافسيه ، وكان له ابن فى السابعة عشرة من عمره واسع الخبرة بالحرب ، والدراية بما تتطلبه من خبرة ومهارة وذكاء ـ ذلك هو مسينيسيا Massinisia فتولى قيادة الجيش كله وقهر العدو وأفنى جنده وأنهى القتال معه بمعركة واحدة . . !

ثم سار هذا الشبل فى صحبة هسدوربال وماجو (أخى هانيبال الأصغر) وهسدوبال (بن جسكو) إلى إيطاليا . ونزلوا بساحتها ونشروا الرعب فى قلب العدو الرابض على أرضها ، ثم اشتبكوا معه وأفنوا جيشه وأهلكوا « سيبيوا الكبير » ورشوا حلفاءه لخالفوا أخاه الصغير تهدده طعنات أعدائه ، وتدمى قلبه ضرباتهم ، حتى هلك بعد تسعة وعشرين يوما من مصرع أخيه ، وسارعت روما إلى إرسال « نيرو » Claudius Nero ليخلفه فى القيادة ، ثم بعثت فى أثره ابن سيبيو (P. S.) الذى ألمعنا اليه من قبل ، حين أشرنا إلى شجاعته فى إنقاذ أبيه من براثن الهلاك ، وكان انتخابه مثار الضجة فى روما ، لأنه كان صغيرا فى الرابعة والعشرين من عمره ، ولكن الشعب قد ألح فى اختياره ، وعلا هتافه له وإصراره عليه .

وكان بطلنا الجديد يمتاز بشخصية فتانة تمـلأ كل من عرفه إعجابا به وتقديراً له ، فلما أعلن للناس أنه وطّن العزم على الظفر بأسـبانيا ، والاستيلاء على قرطاجنة ، استقبل الشـعب اعـتزامه بالأمل العريض والتفاؤل الخصب . ولو صرح بهذا غيره لـكان نصيبه من سخرية الجمهور واستخفافه عظيما . . . وأجمع الشـعب على انتخابه ، ثم ألقى طعنته الأولى فى قرطاجنه الجديدة ـ حاضرة الممتلـكات الأسبانية ـ فشج رأسها وأدمى قلبها ، ولم يلبث أن مدّ نفوذه على قلعتها ، وشتت عدوه الجاثم على أرضها . وتأهب الحكم القرطاجنى فى أسبانيا لوداع أهلها ومفارقة أرضها . . وبهذا برر البطل إلحاح الشعب فى الإجماع على انتخابه وإن لم يبلغ السن القانونية بعد . .

وفرت أسبانيا بدروها . فلم يبق لهانيبال بها إلا « قادش » Gades ، وعاداه الـكثير من أهلها وزعمائها ، لأن « سيبيو » كان قد تسـلط على عواطفهم ، واسـتل منهم إعجابهم به ومرضاتهم عنه . . .

بقى الشطر الثانى من وعد البطل ، فطار الى إفريقيا وحط رحاله فى بلاط سيفاكس ، واستماله اليه وبغّض له التحالف مع

قرطاجنه ، وقضى معه أياما تبادلا فيها أعذب الأحاديث وأشهى الأمانى وأصدق مظاهر الولاء ، بيد أن سيفاكس كان قد بنى بابنه هسدروبال « سيفونيزبا » Sophonisba وولع بها واستطاب حبها ، فأقام على ولائه لقرطاجنه وإن لم يكن فى وسعه بعد لقاء « سيبيو » أن يعادى الرومان

وكان تغيب « سيبيو » عن أسبانيا فرصة تدرالخير لمن أحسن اغتنامها من أعدائه ، فأخذ « ماجو » يستميل إليه القبائل ويترضاها ويتألف زعماءها حتى انتصر له بعضها ورضى عن مسعاه ، وفى هذه الفترة العصيبة أدرك «سيبيو» مرض أقعده عن الجهاد، وكانت جنده تغلى غضبا لتأخر أجورها ، فلما بلغها أن البطل قد خرّ مريضاً، اشتعلت ثائرة حتى عوفى من مرضه واتصل بها وبسط فيها سحره، فسكنت له واستكانت لأمره ، وسارت تحت علمه . فشد «ماجو» رحاله حسير النفس واهن الرجاء ، واستولى الرومان على قادش فلحقت أسبانيا بصقلية ... والأسد كامن فى إيطاليا محطم النفس مهدم الجسم جريح الرجاء . . !

موتورس METAURES

أو

سيادة أوربا على آسيا

ضياع « تارنتسو » ـ تقدير « هانيبال » لبطولة عدوه ـ « هسدروبال » يتخطى الالب إلى إيطاليا ـــ عيون الرومان يعثرون على رسالته إلى هانيبال ـــ « نيرو » بين حرمة القانون وقداسة العقل ـــ اضطرام نيران الحرب استشهاد « هسدروبال » ـــ رأسه يتدحرج أمام أخيه هانيبال ـــ نبأ الاخفاق يعلنه المندوب فى المجالسين ـ فصل الخطاب بين الساميين والآريين

لبث هانيبال فى إيطاليا يقاوم زوابع الأقـــدار ، ويغالب عواصف الهزائم ، وإن كانت آماله قد شاخت وأدرك الثقـل جناحيهـا . .

وساءت عواقب القتال حتى طارت من يده « تارنتوم » لخيانة من ناطه بحراستها ، وطالت الحرب والتهمت آلاف الرجال وابتلعت طائل الأموال ، وفجعت آلاف الأسر فى أبنائها وأولى

أمرها ، حتى ثار فى وجه روما اثنتا عشرة قرية من قرى اللاتين (وكان عددها ثلاثين قرية) وأبت أن تواصل المدد ، ووثب التردد إلى صفوف الأترورين Etrurians (أهل أتروريا فى شمال روما). وفشت فيهم عدواه ، وأصاب « مارسلوس » جرح بليغ تردى بعده قتيلا ، وكان هانيبال يكبر بسالته ويجل بطولته ، ويقدر الدور الذى قام به فى أحرج الظروف وأسوأ الأوقات ، فتكفل بدفن جثته باحتفال مهيب ، وتغلب تقدير البطولة للبطولة ، على عوامل الحقد والضغينة والخصومة . .

وكان هسدروبال قد بارح أسبانيا ، وتخطى الألب فى يسر هيأه له شعور سكانها بحسن نيته نحوهم ، ثم نزل بإيطاليا فى خفة لم يتوقعها الرومان ولم يحلم بها أخوه هانيبال ، وكان جيشه كسائر الجنود التى ناضلت فى صف قرطاجنه يجمع بين مختلف العناصر والأجناس ، وتأهبت روما التى هلك أفذاذ قادتها أو شاخوا وزايلتهم فتوة الشباب للقاء هذا الخطر الزاحف عليهم وهم عنه غافلون ، واختارت « كلوديوس نيرو » وليفيوس Livius قنصلين وولتهما قيادتها وركزت فيهما آمالها ، وناطت بالأول هانيبال ، وبالثانى هسدوربال ، فأرسل هذا رسالة إلى أخيه هانيبال يطلب

فيها التوقف عن القتال حتى يخف إليه ويتصل به ويساهم فى الجهاد معه ، فظفر بها عيون الرومان وحملوها إلى « نيرو » وكانت باللغة القرطاجية ، فعرضها على الأسرى فى السجون ليحلوا رموزها ويكشفوا له عما بها . . ولما عرف أمرها أقلقه هذا الخطر الداهم على غير انتظار ، وفكر فى النجاة منه والإيقاع بمدبريه ، ولكن قانون روما لا يأذن للقادة فى تنفيذ الخطط التى تتراءى لهم ، إلا بعد عرضها على المجلس وإقرارها منه ، وانتظار الإذن من روما تضييع للفرصة السانحة ، وتمهيد لاستقبال الشر المستطير ، وطاعة القانون من غير تفكير فى الغاية التى وضع من أجلها ، ومدى التئامه معها ، امتهان لقداسة العقل ، وانتهاك للطبيعة البشرية ، ولئن كان مثل الجندى الأعلى يقوم فى الإسراف فى إكبار القانون والإفراط فى طاعته ولو كره منطقه ، فإن بداهة العقل لتقضى فى بعض المواقف بتخطى نصوصه ، ومخالفة أوامره ، والتمشى مع روحه وغايته ، فللقانون حرمته ، وللعقل البشرى قداسته . .

تجاهل « نيرو » قانونه ، وانتقى من بين جيشه سبعة آلاف مقاتل يرومون الحرب عن خبرة ومهارة ، ومضى بهم تحت جنح الظلام على جهل منهم بالغاية من مسيرهم حتى بلغ معسكر زميله

« ليفيوس » ، فلاحظ جواسيس هسدروبال أن عدد العـدو قد تضخم ونما على غير انتظار ، وأن حركة جديدة أخذت تسرى بين جموعه ، وأن البوق الذى يدوى بين حين وحين قد أصبح بوقين ، فانتبه « هسدروبال » إلى وجود القنصلين ، وهمّ بالفرار مع جيشه ، فضلّ السبيل إذ خانه الأدلاء واختفوا على غرة ، وخلفوه وجيشه على شاطىء النهر يطوفون طوال الليل دون أن يجدوا منفذا يتسللون منه حتى أسفر الصبح ودنت ساعتهم وفاجأهم بالقتال عدوهم ، فسارعوا إلى الاستعداد للقائه ، ثم اضطرمت نار الحرب عند « متورس » وطال أجلها ، واشتد عذابها ، وخدمتهم الفيلة أول الأمر ، ثم آلمتها الجروح التى انبثت فى جسمها ، فكأنما أصابتها بمسّ من الجنون فانطلقت تهرول على غير نظام ، وتبعث الاضطراب وتنشر الأذى بين صفوف العـــدوين على السواء . . !

ولما أحس هسدروبال بأن الأمر قد طار من يده ، وأن الهزيمة قد اكتنفته ، امتطى صهوة جواده وهجم كالليث الثائر فى طيرة الغضب على صفوف الجيش الرومانى وغاب فى زحمة القتال حتى سقط فى المعركة شهيداً . .

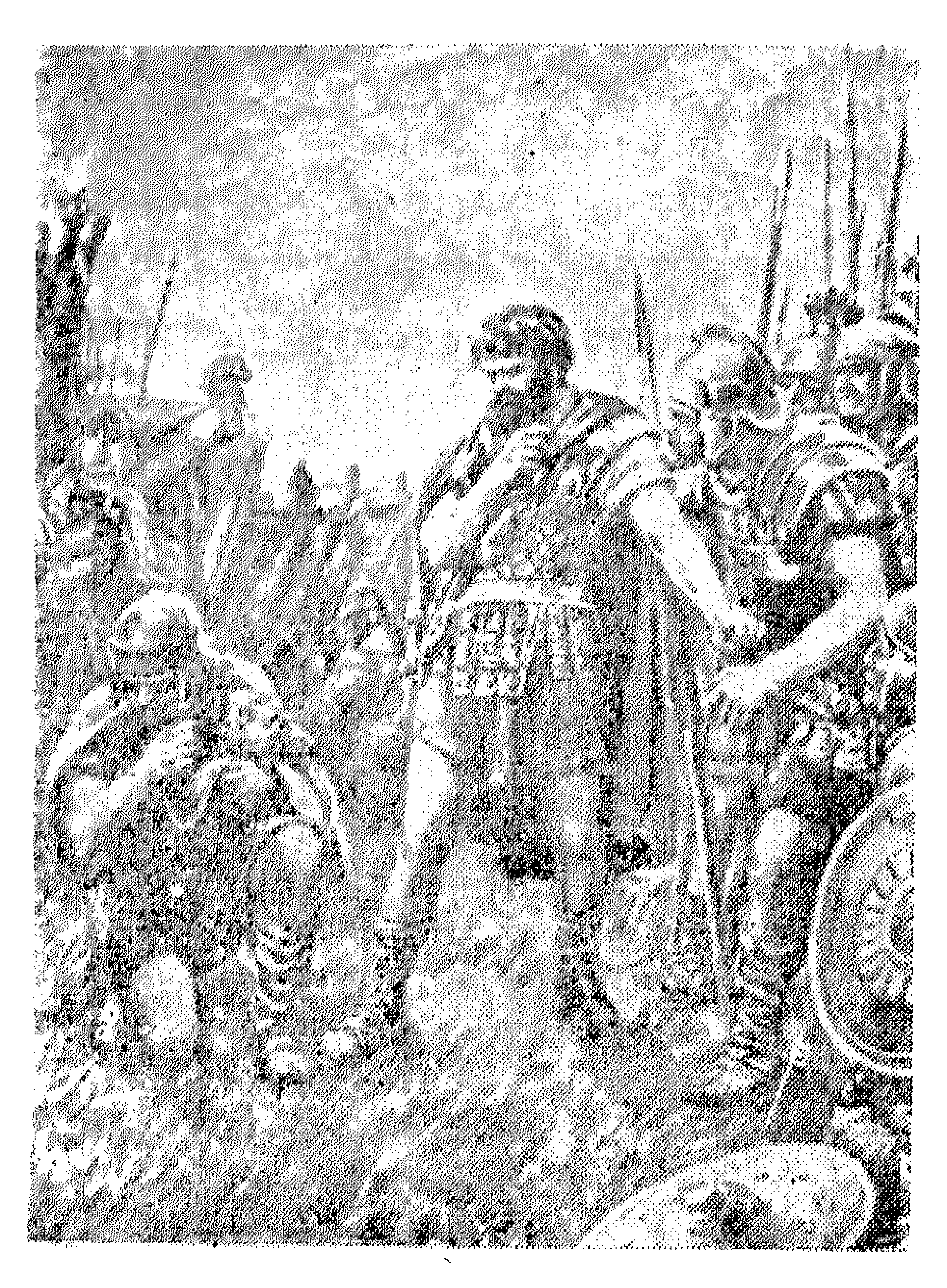
وفصلوا رأسه عن جسمه وحملها معه « نيرو » وعاد مسرعا إلى جيشه ، ثم أمر بأن يلقى هذا الرأس الكريم فى معسكر هانيبال . . وتدحرج الرأس الكريم أمام المعسكر فحمله أحد الجنود بين يديه ، فما رآه هانيبال حتى صاح فى لوعـــة اليأس ومرارة الأسى :

سادت روما الدنيا بأسرها (الصورة ص ١٥٥)

وتقهقر فى اليوم الثانى إلى جنوبى إيطاليا .

فلما بلغت هذه الأنباء روما أثارت فيها حماسة ممزوجة بالشك فى أمر هذا النصر حتى بلغها ثلاثة من ضباطها ، وتولى أحدهم الكشف عن الحقيقة فى مجلسى الشيوخ والنواب ، فأنصت إليه الأعضاء وقد استولى عليهم سحر الطرب ، وتملك مشاعرهم وعقد ألسنتهم حتى إذا فرغ الخطيب من كلمته ، انفجر الأعضاء مهللين فى طرب هو أقرب إلى الجنون منه إلى الغبطة والرضا .

قالوا إن سيادة الدنيا قد سعت إلى روما بعدها ، وأن أوربا قد ورثت عنها هذه السيادة ، ولازم الأسيويين الإخفاق فيما تلا ذلك من عصور ـ وكانت معركة « متورس » فصل الخطاب بين



امتطى هسدروبال صهوة جواده وهجم كالليث فى طيرة الغضب على صفوف الاعداء فراح شهيدا . . وحمل « نيرو » رأسه الى معسكر هانيبال ، فما رآه حتى صاح فى لوعة اليأس: سادت روما الدنيا بأسرها ..

السامیین والآریین . . !!

على أنا لا ندرى ماذا كان يخبئه القدر لو اتصل هسدروبال بأخيه ، وواصل القتال معه فى هذا الوقت الذى خارت فيه روما وأصاب الانحلال ساقيها ، وشق عصا طاعتها الكثير ممن كانوا يقاتلون فى صفوفها .

وهكذا تأهبت للمغيب الشمس التى استقرت حينا فى كبد السماء ، وأخذ التاريخ يعجب لصروف القدر ، ويحار فى هذه الشيخوخة التى زايلت روما . ودبت إلى قرطاجنه ، ويذكر همسة القدر بعد « كانى » :

« بل ستحيا روما . هكذا أراد الرومان ، وإرادة الشعوب من إرادة الله ! »



فى قاع الهاوية

الحظ العارض بين الفرد والجماعة — هانيبال يسجل فى محنته سابق انتصاراته ـ رحيل ماجو الى ايطاليا ـ حملة الرومان على افريقيا ـ وساطة «ماسينيسا» الخادعة ـ النار فى معسكر قرطاجنه ـ سيفونيزبا تثير نخوة زوجها ـ رسل المجلس يستدعون هانيبال لحماية قرطاجنه ـ عودة هانيبال إلى وطنه وحسرته على فراق أعدائه . . !

يوم زاما المشئوم ـ نصوص المعاهدة الذليلة . اعتذار هانيبال عن عدوانه على أحد أعضاء المجلس ـ احتراق نصف ألف بارجة حربية لقرطاجنه ـ استياء المجلس من هانيبال لانه يضحك والوطن فى مأتم ـ الغرامة والذلة

قد ينتفع الفرد طوال حياته بحظ طارىء يواتيه ، وقد يعيش على حساب مصادفة عرضت له فأحسن استغلالها ، وعرف سبيل الانتفاع بها ، ولكن انتفاع الشعوب والجماعات بما تأتى به المصادفة « وحدها » محدود الأجل ، واستفادتها من الحظ العارض معروف الأمد ، وما تصيبه من خير ليست أهلا له ، ولا كفئاً لاستثماره ، يضيع على عجل ، ولا ينتظر له دوام . .

ترى التاجر إذا وفق فى صفقة وثبت به إلى غير مستواه ،

يعيش فى الأرجح على حاله الجديد طوال حياته . . والموظف الذى تسعده الطوارىء يوما ، قد يدوم ما سعد به ما امتدت به الحياة ! وإن لم يكن كفئا له ولا جديرا به . . أما الأمم فشىء آخر ، لا يطول أجل ما تصيبه من خير طارىء إلا إذا كانت قادرة على حراسته كفئا لحمايته . . ذلك لأن للجماعات قوانين تحمى أفرادها وتحرس أملاكهم وتصون حرماتهم ، أما الكون فتعوزه مثل هذه القوانين التى تقوى على حماية أفراده . من أمم وشعوب ، ولن تستطيع الدول أن تنتفع بالحظ الطارىء والمصادفة العارضة انتفاعا ممتد الأجل وإن لم تكن كفئا له خليقة به ـ شأنها شأن الأفراد ـ إلا حين تصبح القوانين الدولية ذات « قداسة » عند الجماعات ، ولهذا فإن الشعب الذى يأمل فى الحياة على حساب الحظوظ والمصادفات ، هو أتعس الشعوب وأسوأها مصيراً . .

وقد أقام هانيبال بعد يوم « متورس » المشئوم فى جنوبى إيطاليا ينتظر الحظوظ ويترقب المصادفات ، وقد ضاقت رقعة أملاكه حتى صارت إقليم « بروتى » Brutti الجبلى فى أقصى الجنوب ، فلبث ينتظر روما لعلها تشتبك فى حروب مع عدويها : سورية أو مقدونية ، فيستمر القتال عن هزيمة تصيبها وتهيىء له سبيل كفاحها

من جديد ، أما أمله فى غير هذه الفرصة المرتقبة فكان كسيحاً لا يقوى على النهوض . . . وهذا هو أظهر آيات الاحتضار فى كفاح الجماعات . .

وفى هذه الفترة التى كان هانيبال فيها يستمد من اليأس آماله ، أقام على كثب من كروتونا Crotona - مركز قيادته - مذبحا لزوجة جوبتر - حارسة المرأة من مهدها إلى لحدها - ووضع فوقه لوحة كتب عليها باللغتين اليونانية والقرطاجية ملخص حملاته فى فى إيطاليا ، وعدد المعارك التى خاض غمارها وأصاب النصر فى ميدانها ، والمدن التى قرع أبوابها ونشر عليها سلطانه ، والأعداء الذين صارعهم وسار على جثثهم ، وخضب الأرض بدمائهم . .

كان هانيبال فى غفلة عن هذا كله يوم كان مجده يعلو ويتألق ، ونفوذه يمتد وينبسط . . وما حاجة القوى لتذكير الناس بمظاهر قوته وآيات سلطانه . . !

وكان « ماجو » قد جنح إلى اليأس بعد إخفاق جهوده فى أسبانيا ، فخطر له أن يشد رحاله إلى أخيه فى إيطاليا ليمده بالعون ويزوده بالأمل ، فسار إليه بكل قواته ، وكان طوال الطريق يضم إلى صفوفه جموعا من أهل الغال ، على أن التوفيق قد أخطاه فى

نجدة أخيه على النحو المرجوّ . .

أما سيبيو فقد ضاق بعدوه فانطلق إلى إفريقيا ليشعل النار في جوفها ، وبدأ بحصار « أوتيكا » Utica ولكنه أخفق في مسعاه فارتدّ عنها إلى مكان منيع على شاطىء البحر ، ولبث به طوال فصل الشتاء ، ثم همّ بقتال العدو فإذا أمامه جيشان : يتولى قيادة الأول هسدروبال Hasdrubal - ابن جسكو - Gusco ويقوم بالثاني سيفاكس Syphax

وكان ما سينيسا Massinisa قد فقد مملكته وفر بزوجته إلى سيبيو واصطحبه إلى إفريقيا ، وراح يرشده في أمانة وإخلاص ، فتوسط بين روما وقرطاجنه ، واقترح إنهاء الحرب على أن ينسحب هانيبال من إيطاليا ، وسيبيو من إفريقيا . فأبى الآخير أن يستجيب لهذا المقترح وإن أعلن استعداده للاستماع لمقترحات أخرى يتقدم بها الملك الوسيط ، فسارت بين المعسكرين رسل كثر تنشد السلام وتبغي التوفيق - فيما بدا للقرطاجيين ، إذ كانت رسل الرومان عيونا وجواسيس تستطلع الانباء وتهيء الجو للايقاع بقرطاجنه وحليفتها معاً . .

ثم انقسم الجيش قسمين : تولى سيبيو الأول ، واقتاد

الثانى ، وتقدما ليلا حتى إذا اقتربا من معسكر سيفاكس، مضى إليه « ماسينيسا » وأشعل النار فيه حتى إذا اندلع لهبها واتقدت جذوتها ، اضطرب من به وانطلقوا في فيض من الجزع والهلع يلتمسون الخلاص ، فمن أصاب منهم التوفيق تلقته سيوف عدوه وأدت واجبها نحوه . !

فأما القرطاجيون فقد بارحوا معسكرهم ، وسارع بعضهم إلى نجدة زملائهم ، ووقف الآخرون محملقين مبهوتين ظانين — كما ظن أهل المعسكر المحترق - أن النار قد اشتعلت عفواً ولم يعمد إليها فاعل سوء ولا مدبر شر . . !

وبينما الجيش القرطاجنى على هذه الحال ولا عدة معه ولا سلاح فى يده ، إذ بالرومان وقد حطوا عليه وراحوا يقطعون فى رقابه ويشردون فى جموعه . ويغيبون فيه سيوفهم حتى نعق بوم اليأس فوق رأسه ، وحطت عليه غربان الدمار ، ولم تنته هذه الفجيعة حتى كانت النار قد التهمت المعسكرين وأعانت العدو على قهر الجيشين والتنكيل بهما شر تنكيل ، ففر هسدروبال بفرقة من خيالته ، وتبعه فى ذلك سيفاكس ، وفكر فى تسليم نفسه إلى روما لعلها تستحى من عقابه وتكرم مثواه ، ولكن زوجته

« سفونيزبا » استثارت همته وأحيت عزيمته وجددت أمله فأقام جيشا واتصل بهسدروبال وكان قد جيّش جيشا آخر من أربعة آلاف مقاتل من المرتزقة وانطلقا إلى الميدان ، فأبى طالع النحس إلا أن يلازمهما ويتتبع خطواتهما . .

فاشتد أزر حزب السلام فى قرطاجنه ، وهتف فى المجلس داعيا لعقد الصلح مهما بهظ ثمنه . . ! فأذعن المجلس لهذه الدعوة واستدعى هانيبال و « ماجو » Mago فأما الثانى فقد أمضّته هزائمه المتلاحقة أمام الرومان ، فخف إلى وطنه بما بقى من جيشه ، ولكن جروحه قد ثقلت عليه فى الطريق حتى امتصت أنفاسه واستلت حياته . وأما هانيبال فقد تلقى الأمر فى أسى ممض وحزن موجع وألم مرير ، وصر أسنانه وقمع دمعه على كره منه ، ثم قال لرسل المجلس الذين جاءوا فى دعوته :

الآن يرسل المجلس فى دعوتى بعد أن أصابت طعنة العدو قلبه ، وأحدثت الارتجاج فى مخه ، وكم أبى أن يمدنى بمال أو رجال ، لقد انهزم هانيبال ـ لا بقوة الرومان الذين شتت جموعهم ، وحطم كيانهم مئات المرات . . ! بل بالحقد الذى يحمله له مجلس الشيوخ فى وطنه ، ولن يبتهج سيبيو لعار عودتى بقدر ما سيبتهج « هانو »

الذى لم يجد سبيلا يسلكه ليهدم أسرتى، إلا بهدم الوطن كله ..!

وكان « هانو » زعيم الداعين للسلام وأشدهم هجوماً على هانيبال، وقد ألمعنا إليه بهذا الصدد فى رده على « ماجو » فى مجلس الشيوخ بعد موقعة « كانى » .

ولكن هانيبال لم يمنعه غضبه المتقد فى صدره من العودة إلى قرطاجنه تلبيةً لصوت الواجب ، وامتطى أديم الماء فى فيض من الأسى والحزن ، فلم يكن المنفى الذى يفارق صحبه ووطنه وأهله وعشيرته إلى غير رجعة ، بأشد حزنا وأقسى لوعة وأحر ألماً من هانيبال وهو يفارق أرض أعدائه ، فقد عاود النظر إلى الشواطىء التى فارقها مهدم النفس منحل الأعصاب محطم الجوارح من فرط الضيق وفيض الأسى ، وطاف يوم «كانى» بذهنه ، فلعن نفسه لتوانيه يومذاك وتكاسله عن قيادة جنوده إلى روما ، ودم «كانى» يلطخ أجسامهم ، وذكرى نصره تثير الحماسة فى نفوسهم ، وتشيع الأمل فى رءوسهم ، وتنفث الإيمان فى صدورهم .

خف هانيبال إلى وطنه ليرد عنه الشر النازل والويل الهاطل ، ترامت إلى روما أنباء رحيله فاهتز كيانها فى فيض من الحمد والرضا، ومادت بأهلها الأرض من فرط الطرب .

ولبث هانيبال فى إفريقيا يخاتل عدوه ويصارع جنده ،ويلق فى قلبه الطعنات ، ويتلق منه الصدمات حتى أقبل يوم « زاما » Zama المشئوم ، وأقبل فى صحبته الشقاء الذى لازم هانيبال حتى يوم مماته . .

انفجر بركان المعركة وأخرج حممه وأطلق عذابه ، وكان فى جيش هانيبال ثمانون فيلا أمطرها العدو بطعناته الدامية فثارت هياجا واشتعلت ناراً ، ونال أصدقاؤها من أذاها شراً مما نال أعداؤهـا . . !

وطالت المعركة واشتد عذابها وتأججت نارها حتى دارت الدائرة على هانيبال ، وتمزق جيشه وتشتتت جموعه واندحرت آماله وانكمشت مطامعه ، ففر بفرقة من جنده إلى دريبانوم Drepanum وهرب قليل ممن بقى من جموعه الغفيرة ، وهلك عشرون ألفا فى ساحة الوغى ، وأسر أكثر من هؤلاء واستقروا فى غياهب السجون . .

فأما الرومان فقد دفعوا ثمن هذا النصر خمسة عشر ألف رأس ثم خرجوا من غمرة القتال وقد ازدحمت فى رءوسهم الآمال العريضة ، وامتلأت نفوسهم اطمئنانا من خبايا المستقبل .

وبهذا اليوم المشئوم انتهت الحرب البونيـــة الثانية، وساد الرومان الدنيا بأسرها، وخلا الجو من مزاحم منافس يسد السبيل على مطامعهم.

ثم جمع هانيبال فلول جيشه وقد بلغت الستة آلاف عدا، ومضى إلى قرطاجنه فى فيض من الحسرة والأسى، وأرسلت الحكومة فى طلب الصلح من روما، فعاد الرسل إلى قرطاجنه يحملون هذه النصوص:

(١) أن تستبقى قرطاجنه ممتلكاتها فى إفريقيا، وأن تتمتع باستقلالها، وأن تضطر إلى سد ما يتطلبه الحرس الرومانى.

(٢) أن تسلم كافة المسجونين بها والفارين إليها

(٣) أن تسلم ما تمتلكه من سفن حربية - باستثناء عشرة تستبقيها لها - وكذلك كافة فيلتها..!

(٤) ألا تثير الحرب خارج إفريقيا أو داخلها إلا بإذن من روما.

وبهذا فقدت قرطاجنه استقلالها، وباتت خاضعة لعدوها - رغم المادة الأولى فى هذة المعاهدة.

(٥) أن يسترد الملك ماسينيسا كل ما يملكه هو أو أسلافه

(٦) ان تمد قرطاجنه الجيش الروماني بالمؤن والأجور حتى يتم الاتفاق على أن تضع الحرب أوزارها

(٧) أن تدفع غرامة تبلغ العشرة آلاف وزنة من الذهب وخراجا سنويا يبلغ المائتى وزنة من الذهب.

(٨) أن يتخير قائد الرومان مائة رهينة من أبناء القرطاجيين تسلم إلى روما ضمانا لتنفيذ المعاهدة، وصفاء الجو بين البلدين..!

ولما أعلنت فى المجلس هذه النصوص بعثت الاستياء فى أعضائه وهمّ أحدهم بالاحتجاج ولكن هانيبال رفعه من تلابيبه وحطه فى مكانه كارها. ! فضج الأعضاء لهذا العدوان الذميم، فقال لهم هانيبال:

« معذرة إن كان جهلى بتقاليدكم قد أدى بى إلى امتهانها والاعتداء على حرمتها، فقد بارحت الوطن فى سن التاسعة، ولم أعد إليه إلا بعد أن أشرفت على الخامسة والأربعين. وما دفعنى للاعتداء على الزميل إلا الرغبة فى خير الوطن، والخوف من أن ينال منه العدو أكثر مما نال. وإنه ليدهشنى أن يكون بيننا مواطن واحد يعرف موقفنا على وجهه الصحيح، ثم يضيق إذا ترامت إلى سمعه أنباء هذه المعاهدة الرحيمة.. إن الحزم ليقضى بأن تجمعوا على الرضا

بنصوصها من غير تفكير فى أمرها ، أو تردد فى قبولها »

ويقولون إن هانيبال كان على حق فى موقفه ، لأن الغالب لا يعرف إلا الظلم ، ولا يدين بغير الإجحاف . وإن أحس العجز فى خصمه اشتط فى اضطهاده ، وأمعن فى إيذائه ، ولو كان فى وسع قرطاجنه أن تقاوم أو تصمد للدفاع عن نفسها ما استكان لهذا الصغار هانيبال ، ولا ارتضى هذه الذلة ودعى وطنه إلى احتمالها والسكوت عنها .

فسلمت قرطاجنه كافة ما تملكه من فيلة وسفن حربية بلغت الخمسمائة عداً ، وجميع من أوتهم من الفارين والهاربين ، وكل أسراها فى الحروب وقد تجاوز عددهم الأربعة آلاف عداً.

وأمر سيبيو أن تشد السفن إلى الشاطىء توطئة لإشعال النار فيها . . ! واحتشد الناس فى هذا اليوم المشهود ليروا هذا المشهد البغيض ، وتأججت النار فى نصف ألف سفينة هيئت لتدك روما وتسوى بها سطح الأرض . . ونظر الشعب الذى كوته الفاجعة وأثقله الهم فاذا المتفرجون من الرومان يهتزون من فرط الغبطة والرضا ، فأحرقت اللوعة صدره ، وأنقض الألم ظهره ، وانبثت الضغينة فى شعاب نفسه .

ولما هموا بدفع الغرامة أعوزهم المـــال وانتشر فى المجلس ضجيج الأعضاء وشاع فيه استياؤهم ، ولاحت من أحد الأعضاء التفاتة إلى هانيبال ، فارتاع إذ خيل إليه أنه يضحك والوطن فى مأتم . وقام لفوره وأعلن للأعضاء شكاته فى فيض من الحنق والاستياء قائلا :

إن هانيبال آخر من يجوز له الضحك فى هذا الضنك الذى يحيق بنا ، لأنه مصدر ما نقاسيه من ضيق ، ومبعث ما نلاقيه من شر . .

فقال هانيبال :

لو تيسر لك أن تكشف على قلبي وتتطلع إليه بالسهولة التى تتطلع بها إلى وجهى ، لتبينت أن ضحكى لا يصدر عن قلب راض مرح ؛ ولعرفت أنه صدى حسرة مترعة ولوعة موجعة . . ! إن ضحكى ليحمل من المعانى ما لا تحمله دموعك ، وقد كان خليقا بك أن تبكى يوم أحرقوا أسطولنا ، واغتصبوا أسلحتنا ، وسلبوا أدوات قتالنا ـ لم تبك يومذاك كما تبكى اليوم كأن الوطن قد أشرف على الهلاك وتهيأ للفناء ، لا لشىء إلا لأنك ستضطر إلى إمداد

العدو بجزء من ثروتك الخاصه، . لكم يخيفني أن تدرك في الغد أن هذا الشر الذي تضيق به في حاضرك ، هو أهون الشرور التي سوف تنزل بك في مستقبلك »

وقد صدق هانيبال في دعواه ، فقد تحمل ابتسامة الثغر من معاني الألم وآيات الحسرة ما لا تحمله الوجوه العابسة ، وتنطق به الجباه المقطبة ، وقد تكون القهقهة التي تند عن القلب العامر بالألم ، أبلغ في التعبير عن حرقة اللوعة من دمعة تجرى على الخد صدى لأحساس الناس أو خوفا من ملامتم . . !

بل كيف يضحك هانيبال صادقا والصاعقة إنما تنزل على رأسه ، والصدمة انما تنحدر الى قلبه وتتوغل في شعاب نفسه حتى إذا ملأتها بالأسى سرى فيض ما بها الى نفوس غيره من أبناء الوطن . . فمنذا الذي كافح هذا العدو الظافر الباغي واحتمل في سبيل مغالبته من مرارة القتال فوق ما احتمل هانيبال الضاحك .

على أن الغرامة أهون ما ينزل بالمغلوب من شر ، وأدعى العقوبات إلى الرضا وأحراها بالاطمئنان . لأن الشعوب تحيا بين الغنى والسغب ، والثراء والضنك ، وليس الفقر معرة لها ولا منقصة لأهلها . . أما الشعوب التي تتردى في المهانة والذلة مرة

واحدة ، فان التاريخ يحمل ذكرى هوانها ، ويحدث عنها مختلف الأجيال التالية ، ذلك لأن التاريخ يسجل المفخرة ولا ينسى المعرة، والحسنات عنده لا تمحو السيئات ، لأنه سجل النقيضين معاً ..!

* * *

وبهذا أضحت الامبراطورية الأفريقيـة مدينة كسيحة يثقلها المرض ، ويقعدها العجز ، ويقهرها الضيق ، ويتسلط عليها العدو .. ضاعت من يدها ايطاليا ، وفرت من براثنها صقليـة ، وتحولت أسبانيا الى إقليمين رومانيين ـ وإن لازمتهما الثورات والفتن ـ وبات الخضوع لروما عند حلفاء هانيبال الأول شرفا وفخاراً ..! والأسد فى عرينه مهدم النفس منحل القوى ، ولـكنه وفيّ لعهده بار بوعده ذاكر لقسمه الذى قيد به نفسه أمام أبيه وهو صبي فى التاسعة من عمره ، يوم أقسم على بغض الرومان مامدت الأقدار فى حياته ، فعلام انتهى أمره . ؟ ذلك ما نراه فى الـكلمة التى نفردها له الآن :

هانيبال قائدا وشريدا

تحليل البطولة . (نابليون فى قفص من حديد . قرار الاطباء بشأن أنوثته) « هانيبال وآفاق بطولاته الرحبة . احصاء مناقبه . سوءاته ومبرراتها . موقفه بعد زاما . اصلاحاته فى وطنه . جزع روما من « هانيبال الشريد » طريد الظلم يشير على روما أعداءها . انتحاره . البطولة والانتحار

لا تصلح طريقة البحث العلمى لتحليل البطولة والتماس أسبابها ، والتعرف الى سرها والكشف عن وحيها ، لأنها تطالب الباحث بإحصاء دقيق لمناقب البطـــل وصفاته ، فى صورة مدركة للسمع واللمس والذق والشم والبصر ..!

والبطولة إنما تستمد حياتها من شيء «وراء» ماتبلغه الحواس بل « وراء »ماينتهى إليه العقل .. فكثيراً ما توفرت فى بعض الناس المناقب التى نراها فى الأبطال ، ولكن البطولة امتنعت عليهم وعزت على متناولهم ، ذلك لأن شخصية البطل تستمد وحيها وتستقى حياتها من شيء وراء ما نعرف بالحواس والمنطق

معا .. فاذا رددت مناقب نابليون الى خلاله، عرفت أنها ـ مجتمعة ـ لا تبرر الصولة الفذة التى كانت له، والمقدرة المعجزة التى لازمته حياته، ومكنته من أن يقاوم تحالفات دولية أجمعت أمرها على دحره، ووطنت عزمها على قهره (١) .. فما تعليل بطولته ..؟

---

(١) ان كان هذا لم يبلغ مكان الاقناع من نفسك، ففسر هذا بالشكل الرياضى الذى يرضيك :

عاد نابليون من منفاه فى « إلبا » واقتحم فرنسا التى ودعته بالامس بمظاهر السخط والحنق، فائتلف له جيش هيأ له دخول باريس، فأقسم القائد « ناى » — أشجع الشجعان كما يسميه التاريخ — للويس الثامن عشر أن يجيئه بنابليون فى قفص من حديد ..! ومضى بفرقة من جيشه للقبض على نابليون براً بوعده ووفاء بعهده، فلما التقى به وخضع لسحر نظرته وعذوبة صوته، ألقى بنفسه بين أحضان نابليون، والدمع يترجرج فى عينيه ..! بماذا تفسر هذا .. ؟ ان تعليله يعرفه علماء النفس الذين لا يرون مبرراً علميا لموقف الملك حين تشدد فى الحكم بالاعدام على « ناى ».

ولا بأس من أن نسوق مثالا ثانيا لنابليون يؤيد ما ندعيه :

شاد نابليون امبراطورية من أضخم الامبراطوريات التى مرت بالتاريخ فى شتى عصوره، وكانت الارض بأممها وحكامها كرقعة الشطرنج فى يده، ولكن جسمه كان أقرب الى جسم الانثى منه الى جسم الرجل، على نحو ما أثبت الاطباء الذين تولوا تشريح جثته بعد مماته.

فى الحق إن التعليل الصحيح لا ينبغى التماسه فى غير هـــذه « القوة الخفيـة » التى نحس أثرها و نعرف وقعها ، ولا نستطيع فهمها ولا ندرك أصلها ، ولا نقوى على تحليلها .

وعلى هذا النحو نقول إن هانيبال موفور الحظ من البطولة ، وكان نصيبه من هذه القوة الخفية بيناً ملموساً . فان شئت الدليل على هذا فاذكر من حياة هذا الرجل أنه فارق الوطن فى التاسعة من عمره ، وغاب فى زحمـة القتال ستة وثلاثين عاما ، كلما حط رحاله ببقعة روع أهلهـا ، وطير النوم من أجفـانهم ، وبعث الهلع فى جيرانهم ، وأن هذه الجيوش الجرارة التى كان يزلزل بها الأرض ، ويرج بهولها كيان الدنيا لم يجمعها من وطنه ، فقد ضنّـت عليه أمته بالعون وبخلت عليـه بالمدد زمنا طويلا ، وإنما كانت شتيتاً متناثرا متنافر العادات والتقاليد والقوانين واللغات والملابس والأسلحة والعقائد والآلهة ، فألف هانيبال بقدرته المعجزة بين هذه الخلائق الغفيرة ، وضمها كلها الى سمط واحد ، فنسيت تحت لوائه مااختلف من أمرها وتنافر من وحدتها ، ومضى الجميع الى لجة القـتال مستميتين فى النضال متفانين فى تحقيق المطمح الذى يسعى اليه هانيبال . .

أجل ، عاش هذا الشتيت المتناثر من الخلائق فى وفرة من المودة والزمالة حتى خلت حياتهم من شجار واحد يقع بينهم - حتى فى أدعى الأوقات الى الشجار واحفزها على الاضطراب ، فقد مات « هسدروبال » Hasdrubal ولم يبق لهانيبال غير ركن ضئيل فى ايطاليا ، وركدت آماله وأظلم الجو من حوله ، ونفض المتملقون يدهم من نصرته ، ولكن جيشه المتنافر فى شتى الصور مازال باقيا على ولائه له وإعجابه به ، وما كان هذا طمعا فى مال أو جاه ، فقد ضنت عليه قرطاجنة بالمال كما ضنت بالمقاتلين ، ومرت عليه أيام حالكة السواد مجدبة الآمال ، فكان حرياً بجيشه المتنافر عادة ولغة ودينا وقانونا وملبسا وسلاحا وسحنة وموطنا ، أن يثور فى وجه قائده المنهزم ، ويحوطه بشتى صنوف الأهوال ، ويريح الدنيا من جلجلة اسمه .

ولكن هانيبال كان قائداً تسعى البطولة بين يديه . . . وفيم تظهر معالم البطولة الفذة إذا لم تنطق بها مثل هذه الحادثات . . ؟

هذه آيات القوة الخفية التى لا نعلم من أمرها إلا اسمها وآثارها.

على أنك واجد فى هانيبال مايؤيد عظمته من مناقب تستطيع أن تسردها سرداً رياضيا ، وتحصيها إحصاء علميا ، فقد كان

نموذج الجندى الصادق الذى لازيف فيه ولا عاب عليه ، تملأه الشجاعة فى غير تهور ، ويحتويه الفتور عنـــد ملاقاة الأخطار ومواجهة الأهوال ـ تبدو فى المآزق الحرجة والأزمات الضيقة سرعة بداهته ، وخصوبة ذكائه ، ونفاذ بصيرته. وكان إذا حط عليه التعب اضطلعت بحمله مناكبه فى غير استياء ولا شكوى ، وكان يألف احتمال البرد القارس والحر اللافح حتى ليبدو وكأنه لا يحس أثرهما ولا يعبأ بهما . . فأما رغبتـه فى الطعام والشراب فكانت لاتتجاوز حاجته الطبيعية إليهما ، وضمان العيش بما تيسر له منهما . وقد كان يهزأ بسلطان النوم ولا يخضع له إلا إذا أتاحت له ظروف عمله لحظة يختلس فيها راحته ، حتى إذا دعاه العمل لبى دعاءه ، ومضى إليه موفور الهمة والنشاط ، وكان إذا تهيأت له ظروف النوم ألقى بنفسه أنى كان وحيثما اتفق ، وكثيراً ما كان يمر به الجند وهو ملقى على الأرض ملتفا بردائه الحربى بين رجال الحرس ـ وهو الرجل الذى تهيأت له الإمامة وسعت اليه الزعامة وروع روما طيلة العهد الذى عاشه ، حتى أقض عليها مضجعهـا وطير النوم من أجفانهـا وهو شريد طريد لا يعرف له مأوى يستقر به ، أو ملاذا يطمئن إليه كما سنعرف بعد . . !

وكان مسرفا فى إهمال ملبسه ـ شأن الذين شغلتهم مهام الحياة عن فنون الأناقة ومظاهرها ـ ولكنه كان مفرطا فى عنايته بأسلحته واهتمامه بالخيل التى يمتطى صهوتها فى ساحة الوغى، ذلك لأنه كان خيالا ماهرا مبدعا فى استعمال السلاح.

فإن عيب على أخلاقه: فظاظته وجشعه وتخطيه لحدود الأمانة والنزاهة، فتلك مثالب تلازم قادة الحرب الذين عاشوا معيشته وتنفسوا الجو الذى كان يتنفسه.! وقد كان رجل واجب أكثر منه رجل مجد، ولولا هذا مالبث بعيدا عن وطنه ستة وثلاثين عاما..! ولما احتمل حزب المعارضة فى مجلس الشيوخ وأفسح لهجومه صدره، وهو فى قمة مجده وأوج قوته..!

على أن هذا الإحصاء الرياضى لا يكفى وحده لاتقاء الشر الذى كان ينطوى عليه الجيش الذى ألمعنا إلى وجود تنافره، ومدى التئامه تحت رايةهانيبال، وصبره على القتال من غير أجر ولا شجار..!

وقد أسلفت لك تاريخ هانيبال فى كفاحه حتى يوم زاما المشئوم، فإليك طرفا من حياته بعد هذا اليوم الذميم:

عاد هانيبال بعد «زاما» إلى وطنه مهيض الجناح كسيح

الرجاء في عون أمته ، فانفضّ من حوله الكثير من أعوانه ، واشتد في الهجوم عليه أعداؤه ، ونال منه طغام الناس وكان إلى الأمس القريب يروّع أعظم دول الأرض وأشدها بأسا .. لا .. بل مازال هانيبال في العظمة موفورا الحظ منها ، لا يلين للخطوب التي تنزل به ، ولا يخنع لقوى الأرض وإن اجتمعت لمقاومته ، وإنه ليعيش في وطنه في جو من الهدوء والسكينة ، وروما سيدة الدنيا برا وبحرا تخاف على نفسها الدمار ، وتحسب لهذا الرجل القابع في وطنه ألف حساب وحساب ، فتطارده وتسعى للظفر به لتبيده فتستريح . ! ويفر « هانيبال » من بلد إلى بلد شريدا طريدا ، وروما قلقة المضجع مضطربة الخاطر مبلبلة الفكر — ويصيبها هذا القلق والرجل قابع في وطنه منصرف إلى إصلاحه منشغل بتقديم ما اعوج من أمر ، وفي المجلس حزب قوى يناضله ويتولى الهجوم عليه ، ويغتنم الفرص للاشتباك معه والنيل منه ، والحط من قدره والزراية بماضيه ، !! ومن طبيعة العظمة أن تلازم أصحابها في شتى مراحل حياتهم : في النور وفي الظلام .. ولا تتأثر بفراق الأصدقاء أو اشتداد الأعداء ، لأن وفاءها فوق خطوب الأقدار ..

بدأ هانيبال بإصلاح أمته ، فهاجم محكمة القضاة في قرطاجنه ،

لأنها اغتصبت من الشعب سلطانا لم يكن لها ـ ولا ينبغي أن يكون لها ، وأضحى الناس رهن إشارتها فى كافة ممتلكاتهم ، بل فى أخلاقهم وشتى مظاهر حياتهم . ! فسعى فى إصلاح أمرها ، وأقام على سعيه حتى أصبح منصب القاضى يملأ بالانتخاب ويستمر عاما واحداً لا يتجاوز ، ثم تناول حياة الشعب الاقتصاديه فنظم صادراته ووارداته ، وأقام العين الرقيبة على الضرائب ، والرأس المتزن فى تصريف المال المتجمع حتى هان دفع الغرامة ، وانتعشت الأمة وأينع الذابل من آمالها ، وانبعث الميت من أمانيها ، فقام فى المجلس حزب قوى من خصومه يناضله ويقاوم خططه ، وتنزّل أعضاؤه إلى إثارة الحكومة الرومانية عليه . واتهامه عندها بأنه يعد العدة لحرب يؤجج نارها متضامنا مع ملك سورية . ! وكان الرومان لا يستبعدون هذا العمل الآثم من رجل عاداهم وأنزل بهم شره هذا الزمن الطويل ، فألحوا فى انتداب وفد يطالب قرطاجنه بتسليمه إليهم ، وعبثا حاول « سيبيو » أن يردهم عن هـذا المطالب العزيز عليهم . .

فلما تسامع هانيبال بهذا النبأ استقر عزمه على الهرب ، ومكر بأعدائه حتى يغفلوا عن رقابته ! فسار بين الناس ملتزما الاطمئنان

كعادته ، ثم امتطى فى المساء جوادا وانطلق به إلى الشاطىء ، فاستقبله سفينة أعدها لرحيله ، وأبحر إلى جزيرة « كركينا » Kerkina وكتم عن الناس نبأ فراره ، وأعلن للمتصلين به أن الحكومة قد انتدبته سفيرا فى « صور » Tyre وتبين اكتظاظ الميناء بالتجار فخطر له أن يعجل بالهرب حتى يطمئن على أمره ، فدعا القباطنة إلى حفلة شائقة ، وطلب إليهم أن يمدوه بأشرعة سفنهم حتى يتسنى له أن يقيم سرادقا ضخما لتحقيق هذا الغرض.

وأقيمت الحفلة واختلف إليها المدعوون من كبار التجار وأصحاب السفن ، واحتوتهم ضجتها وطواهم تيارها حتى نسوا هانيبال الذى غافلهم واختفى عن أعينهم والحفلة مازالت قائمة . . ! ولما كانت سفنهم تعوزها القلاع والأشرعة ، فقد عز عليهم أن يلحقوا به . . !

وحطّ الشريد رحاله فى «صور» Tyre وأحسن أهلها استقباله وأفرطوا فى الاحتفاء به ، ثم بارحها إلى ثغر أنطاكيا Antioch وأبحر منها إلى افيزوس Ephesus حيث استقر مليك سورية ، فأساء هذا استقباله ، وركب رأسه وتوانى فى الانتصاح بنصحه والاشتباك مع روما فى حرب ، حتى فاتت الفرصة وفرغت روما

من مقاتلة أعدائها وتأهبت للقاء سوريه وانزلت بها شر الهزائم، وأكرهتها على التماس الصلح . . ! ولما أيقن المليك بأن روما تُلح فى القبض على أعدائها فى سورية أتاح لضيفه الهرب، فطار هانيبال شريدا طريدا يتعقبه الظلم ويطارده الطغيان أنىَّ حل وأينما ارتحل، حتى أقبلت أيامه الأخيرة وهو فى ضيافة «برزياس» Brusias ملك بثينيا Bythynia وعاونه فى قتال أحد حلفاء روما فسارعت حكومتها إلى طلبه، وأحسَّ الملك العجز عن مقاومة مطلبها، فأرسل فرقة للقبض على ضيفه . . . ! وكان هانيبال قلق الخاطر لا يداخله الاطمئنان فى عدو أو صديق، فالتمس السبيل إلى الهرب، وفاجأه الجند عند كل مسلك صادفه وسدوا السبيل فى وجهه، فسارع إلى سم كان يحمله ليستعين به على اتقاء الشر والنجاة من الذل، ثم تجرعه وخرَّ على الأرض صريعا . . ! وتحرك لسانه بالكلام قائلا :

فليسترح الرومان من هذا القلق الذى يضيقون به، ماداموا يحسون العجز عن انتظار الموت لرجل طاعن فى السن مثلى . . !

وعاجلته روحه بالفراق فى الخامسة والستين من عمره . . !

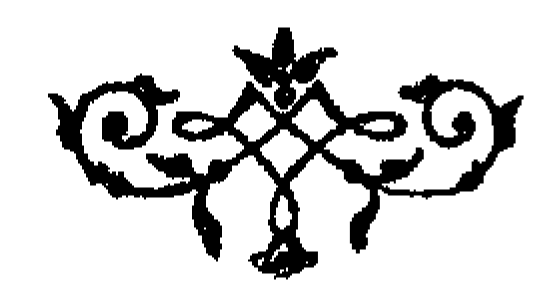
* * *

قيل إن رواية « آلام فرتر » أحدثت تطورا بارز الملامح واضح المعالم فى الأدب الألمانى كله ، فكان خليقا بمؤلفها « جيتى » أن يعتز بها ويجعلها موضع فخارة ومبعث اعتداده ، ولكنه كان يأسف لها ويضيق بها كلما عرض ذكرها فى مجلسه . . ! ذلك لأنه أثم فى تصوير المصير الذى انتهى إليه بطلها ، فاحتقر بطولته وشوّه جلالها حين جعل « الانتحار » مصيره ، فكان « جيتى » حريصا على تنزيه البطولة من خطيئة الانتحار . . . وإلى هذا الاتجاه تميل جمهرة المفكرين الذين تناولوا بالبحث هذا الموضوع. وهم على حق فيما يلوح ، فليس صحيحا ما يقوله البعض من أن المنتحر جرىء على نفسه والجرأة على النفس حتى الإجهاز عليها أشد وأقوى من الجرأة على الغير ، لأن المنتحر فى الأغلب والأعم - يقدم على خطيئته على غير وعى منه ، ويأثم بارتكابها وهو فى غيبوبة واضحة ، وما دامت أعصابه هى التى تقوده إلى فعلته من غير تدخل من فكره ، فلا معنى للحكم عليه بالجرأة والشجاعة ، ثم هو خليق بالاتصاف بالضعف والخور ، إذ أقرب إلى المنطق أن نقول إن تبعات الحياة قد أفقدته وعيه ، أو ثقلت عليه حتى فر من وجهها ولاذ بالهرب . .

على أن هذا لا يبرر اتهام هانيبال بالجبن ، فان هذا الرجل قد أشتد فى حساب أعدائه ، وصب عليهم أذاه صبيا وشابا وكهلا . . قائدا وشريدا . . ومثل القسوة فى معاملة الأسرى منهم أنطق تمثيل وأصدقه ، ولو ملك إبادة روما وسبى نسائها وقتل رجالها وهدم بيوتها ونهب أموالها وسلب خيراتها ما تواني فى ذلك أو تردد ، فأعداؤه إن ظفروا به تمكنوا من إيذائه ، وأوغلوا فى الانتقام منه وأفرطوا فى تعذيبه ، وهو شيخ قد نيف على الستين من عمره ، فليس فى طاقته أن يحتمل قسوتهم ويصمد لهوانهم . . . . . بل قل لماذا يمكنهم من إيذائه ، ويهيء لهم سبيل اضطهاده وفى وسعه أن ينجو بحياته . . ! ؟ والحياة أعز على الطاعنين فى السن ممن هم فى ربيع العمر ومقتبل الشباب ، ولكن الحياة — عند من يحترم نفسه — أهون من استعباد العدو واحتمال طغيانه . . ! ثم كيف يوصف بالجبن رجل عادى أعظم أمة على ظهر الأرض كلها ، وأقض عليها مضجعها نحو أربعين عاما . . . !

إن فى إقـدام هذا الرجل على الانتحـار فى مثل هـذه السن وفى مثـل هذه الظروف ما يبرر جريمته ، ويخرجها من نطاق الجبن . .

مات هانيبال وقلبه طافح بكراهية الرومان والحقد عليهم ، فـكان أمينا لعهده وفيا لوعده بارا بقسمه . . .



بداية النهــــاية

أو

الاسترسال فى قبول الهوان

إذعان الضعيف لعدوه — شبح هانيبال بعد موته ثراء قرطاجنه — « كاتو » يهاجمها فى مجلس الشيوخ فى روما — عدوان ماسينيسا على قرطاجنه — انفجار الحرب نفى الخونة — توسط « سيبيو » — المعاهدة الذليلة — وفود قرطاجنه تتعاقب على مجلس الشيوخ فى روما تطلب الغفران وتستجدى الرحمة — تسليم ٣٠٠ فتى من أشرافها رهينة فى يد العدو — تسليم أدوات القتال من سهام وقسى ومزاريق قنصل الرومان يطالب القرطاجيين بالجلاء عن قرطاجنه — فرط الحماسة وجنونها — اعلان الحرب — اعتماد الشعوب على المعجزات فى ساحة النضال

متى أدرك الانحلال شعباً أعمى بصيرته ، وطمس منابع وعيه وأفقده القدرة على الادراك، ودفعه إلى الإذعان لظروفه والاستسلام لعدوه ، والتماس الخلاص من ضيقه على يد من يرجو له الهلاك ..! وقد حطت الكوارث على قرطاجنه ، ولم يكن بها من فيض الحيوية وتوثب الشعور ما يمكنها من استيعاب موقفها وفهمه على أكمل

الوجوه ، وعلاجه بما يتطلب من وجوه الحكمة والاتزان . . .
وقد مات « هانيبال » وطار نبأ مصرعه إلى روما ، فأشاع الغبطة في كيانها ، وخفف من ضيق الفلق الذى يساور أهلها ، وإن لم يملأ بالاطمئنان نفوسهم ، فإن شبح « هانيبال » لم يزل قائماً ينذر بالشر ويهدد بالويل والثبور ، وخافت روما أن يخلفه في القيادة « هانيبال جديد » فكان مثلها - من بعض الوجوه - مثل الدول المتحالفة في وجه «نابليون» يوم نفضت فرنسا منه يدها ، وقعدت عن نصرته ، وكان الحلفاء قد قصوا جناحه ، وأكد لهم أحد قادته أن الامبراطور واقف على قدمين من عجين ، ولكنهم لبثوا يخشون فرنسا ، ويرهبون خليفة نابليون - وإن لم يكن معروفا لديهم بعد . . . ! وقد أدّى بهم هذا الخوف إلى أن رفضوا بعد دخولهم باريس للمرة الثانية إصرار بروسيا على انتزاع الألزاس واللورين . . !

وكانت روما قد أحرقت أسطول قرطاجنه وذرته رماداً ، ولكنها تركت لها سفنها التجارية تجوب البحار ، وتمخر عبابها وتلاطم أمواجها ، وتجلب الرزق وتعود باليمن ، وتدر الذهب وتملأ به الخزائن ، ففي وسعها أن تستأجر من هذا المال الموفور جيوشا جرارة تعيد بها سالف صولتها ، وتسترد سابق مكانتها

وتبنى أسطولا أعظم من أسطولها المحترق ، فيتسلط على البحار ويتولى زعامتها كما كان ـ وأنف العدو فى الرغام . . ! ولم لا . . ؟

لقد عاشت قرطاجنه طيلة حياتها معتمدة على الجنود المرتزقة مستندة فى قتالها إلى سواعدهم الفتية وجهودهم الجبارة ، وهاهى قد استوفت حظها من الغنى بعد عشرين عاما من إبرام المعاهدة، فتتقدم إلى روما تريد دفع الغرامة مرة واحدة ، وإن كانت الشروط تمد لها فى أجل الدفع خمسين عاما . . ! فأما روما فتأبى هذا المال الذى يتبرع لها عدوها به لأنها تريد أن تطيل فى إذلالها له ونكايتها به وتشفيها منه ..!

وكأنما أرادت أن ترد لها موقف «هانيبال» بعد « كانى » يوم وقف على كثب من روما يقرع أبوابها ويصب الفزع على أهلها دون أن يتقدم إلى اقتحامها أو يفكر فى غزوها ، ليطيل من عذابها ويمد فى أجل شقائها .

وكانت مقدونيه تهم بإعلان الحرب على روما ، فاتصلت رسلها بقرطاجنه ، ولاقت من الحزب المؤيد للحرب فيها انتصاراً لدعوتها ، وارتياحا للائتلاف معها . . وترامت هذه الأنباء إلى



في مجلس الشيوخ الروماني :

« كاتو الكبير » ألد أعداء قرطاجنه يلقى أمام الاعضاء من فرجة في ثوبه تينا جمعه من قرطاجنه ويقول لهم « ان مملكة تنتج مثل هذا التين الناضج ، لبينها وبين هذا المكان رحلة أيام ثلاثة . . . !! » .

سمع روما فزادت من قلقها وضاعفت من حقدها . . وتولى كاتو الـكبير Cato the Elder مهاجمتها فى المجلس - وكان يضيق بها ويحقد عليها منذ أن قاسى مرارة كفاحها فى الحرب البونية الثانية ، فانتدبه المجلس للاستفسار عن السبب فى حرب أثيرت بينها وبين ماسينيسا ، فلما بلغ قرطاجنه وتجول فى أرضها راعته موارد الرزق فيها ، وأدهشته مظاهر القوة التى توفرت لها ، وعجب لازدحام سكانها واكتظاظ أقاليمها ، وأزعجه أسطولها المزود بخير المعدات، وأقلقته مخازن الأسلحة الملأى بالذخائر ، فلما عاد إلى روما مثل فى مجلس شيوخها ، وانطلق ينفث فى الأعضاء سمومه ، ويستفز كامن حقدهم فيقول لهم :

« إن نصيب هذا الشعب من القوة والبأس فى حاضره ، لأروع من نصيبه منهما فى ماضيه ، وهو يعالج الحرب اليوم فى أفريقية توطئة لإثارتها فى وجوهكم ، وإلقاء حممها فوق أجسادكم »

ثم أخرج وهو مندفع فى كلامه عنقوداً من التين الناضج كان يخفيه فى فرجة فى ثوبه ، وألقاه أمامهم قائلا لهم وقد أدهشهم نضجه :

إن مملكة تنتج مثل هذا التين الناضج، لبينها وبين روما رحلة أيام ثلاثة ..! (الصورة ص ١٨٩)

وأخذ يشتد فى هجومه على هذه الأمة الشقية ، ويستغل الفرص للدعوة إلى تحطيمها ، والنغمة التى لا يمل ترداداها فى خطبه : يجب أن تتلاشى قرطاجنه «Delenda est Carthago»

وكان لقرطاجنه عدو رابض يتربص بها ، ويترقب حركاتها ، وينتهز الفرص للاعتداء على أرضها ، ذلك هو « ماسينيسا » الذى انتظم فى صفها وحارب مع قائدها « هسدروبال » برقة فى أسبانيا ثم انتقض عليهـــا وحالف روما وجاهد تحت لوائها ، وكان له الفضل الأكبر فى إحراق المعسكرين اللذين أسلفنا الحديث عنهما ، وكافأته روما فردت له ممتلكات أبيه وأضافت إليها جزءاً كبيراً من مملكة سيفاكس .

وكان ماسينيسا قد شغل نفسه منذ أكثر من خمسين عاما بالعمل على توسيع مملكته وبسط نفوذه على حساب قرطاجنه ، وكان يحس بأن روما لا تتأخر عن نصرته إن أعوزته معونتها . وكانت قرطاجنه ـ بالأضافة الى هذا ـ قد حرمت عليها المعاهدة أن تشعل الحرب إلا باذن من روما ، ثم هى ضعيفة الرجاء فى نجدة روما إذا استعانت بها وطلبت حمايتها من اعتداءات ماسينيسا المتلاحقـة ، وأرسلت روما رسلها ـ بعد أن كررت قرطاجنه

شكاتها - فكانوا يفحصون أمرها ، ويتبينون وجه الحق في موقفها، وكثيراً ما أثبتوا في تقريراتهم مدى الأخطاء التي ارتكبها ماسينيسا حيالها، ولكنهم يغادرونها وموضوع النزاع ما زال معلقاً..؟ ولج الملك في اعتداءاته ، وأسرف في عدوانه حتى انفجرت الحرب في السنة الحادية والخمسين بعد المائة ، وقام الحزب الديموقراطي (الذي يتولى الانتصار للحرب) بتطهير البلاد من الخونة المارقين من أبنائها ، فنفى أربعين عضواً كانوا يتزعمون حزباً ينتصر للعدو، وأوجب على الشعب أن يقسم غير حانث ولا متردد ألا يأذن لهؤلاء الخونة بالعودة إلى أرض الوطن ... فطار هؤلاء الأربعون إلى الملك « ماسينيسا » وراحوا يؤججون نار حقده ،ويضاعفون من عدائه ، وما كانت به حاجة لشيء من ذلك .

فقام الملك بحصار المدينة وأرسل الشعب قائده هسدروبال للقائه وصد عدوانه ، وهجر الملك ضابطان من ضباطه وخفّا - وفي صحبتهما ستة آلاف فارس - إلى جيش العدو وانتظموا في صفوفه ، وتقهقر الملك حتى طوح بعدوه في بطاح لا يبلغه فيها المدد إلا بعسر ومشقة .

ثم تدخل سيبيو وتوسط بين العدوين ، وقبل القرطاجيون

أن يتنازلوا عن المملكة التى تحيط بأمبوريا Emporia (مانسميه الآن Gabes & Trebia) وأن يدفعوا مائتى وزنة من الذهب فورا، ويتعهدوا بسداد ثمانمائة أخرى أقساطا ، فلما أضاف الملك إلى هذا رغبته فى تسليم الفارين، انقطعت المفاوضات وانفجر العدو فى وجهه .

وأسرف «هسدروبال » فى حسن الظن حتى توهم أن روما ستتدخل لحسم النزاع بين البلدين ، وما كانت روما لتتدخل فى الأمر وتوقف الحرب إلا إذا أحست عجز حليفها عن مقاومة قرطاجنه ، والمضى فى تحطيمها وإلقاء الطعنة القاتلة فى قلبها .

فأقامت روما على حيادها حتى أصاب القحط جيش هسدروبال، ولحقت به الحمى التى لا تفارق القحط أنى كان ، فانهدت قوى الجيش وهلك الكثير من أفراده ، واضمحلت آماله وحط على فلوله يأس مرير ساق هسدروبال إلى قبول معاهدة تنضح نصوصها ذلة وهوانا ، ويطفر منها الاحتقار والامتهان ، فعاد إلى قرطاجنه أنصار الملك الذين نفاهم الحزب الديموقراطى من قبل ، وسلم الهاربون على كره من قرطاجنه ، وأرغم المغلوب على دفع غرامة بلغت الخمسة آلاف وزنة من الذهب ـ وأمرّ من هذا وأنكى أن

المعاهدة قد أوجبت على هسدروبال أن يمر وجنده من ورائه على معسكر العدو عزلا من كل سلاح عارين إلا من ثوب واحد يستر أجسامهم . . ! وقبل القائد هذه المهانة البالغة إبقاء على حياته وحرصا على وجوده .! فلوث بهذه الذلة شرفه العسكرى ، ولطخه بأدران العار الذى لن ينساه التاريخ .

وسيعرف القارىء النهاية الأليمة أو المأساة المهينة التى ختم بها هذا القائد الذليل حياة أمته .

فأما الهاربون الذين لا عون لهم فقد قام أحد أبناء الملك على رأس قوة من الخيالة وتولاهم بالذبح والإهلاك حتى أفناهم إلا نفرا قليلا تيسرت له العودة إلى قرطاجنه

فأما قرطاجنه فقد تولاها اليأس من سوء مالقيت طيلة جهادها الشاق ، وأفقدها ضيقها الرشد فحكمت بالإعدام على قائدها « هسدروبال » ومن كانوا يطالبون بالحرب ويدعون لإثارتها .! وأطلقت رسلها إلى روما لترفع هذا التصرف العجيب الذى قابلت به إهانتها ، إعلاناً منها لبراءتها من الحرب واعترافا بخطئها فى إشعال نارها ، ولكن أعضاء المجلس فى روما قالوا للرسل :

« توانيتم فى توقيع العقوبة حتى لحقتكم الهزيمة ، وزايلتكم

القدرة على المقاومة ، فلماذا لم تحكموا عليهم بالإعدام قبل أن تقهروا فى الحرب » .

ولم يجد الرسل جوابا . . . فصوّت المجلس فى جانب الرأى القائل بأن اعتذار قرطاجنه عن إشعال الحرب من غير إذن من روما، كسبيح لا ينهض بالعفو عن جريمتها . . !

وتساءل الرسل فى أسى ويأس عما ينبغى أن يفعلوه تكفيرا عن خطيئتهم ، فرد عليهم المجلس ردا يسبح فى جو كله غموض وإبهام قائلا لهم :

« ينبغى أن تقوموا بإرضاء الشعب الرومانى »

فلما حمل الرسل هذه الرسالة إلى أمتهم ، أرسلت وفدا ثانيا ملتمساً معرفة ما ينبغى أن يفعلوه على وجه التدقيق . ..!

فطرد المجلس أعضاء الوفد قائلا لهم :

« إن قرطاجنه لتعرف المطلب الذى ننشده » .

ثم وافقت روما على النصيحة المشئومة التى أسداها لها « كاتو الكبير » فكان على قرطاجنه أن تتلاشى . . !

- وانطلق القنصلان : سنسورينوس Sensorinus ومالينيوس Malinius إلى قرطاجنه بجيش وأسطول مزودين بالتعليمات السرية

التى تقضى بإبادة قرطاجنه وملاشاتها من الوجود . . !

وكان الشعب الرومانى وطيد الثقة فى تحقيق مطمحه ، قوى الرجاء فيما سيصيبه من أسلاب وغنائم ، شديد الحرص على أن ينال نصيبا من فخار النصر الحاسم المنتظر ، فتقاطر المتطوعون فى الجيش وانهالوا عليه حتى تجاوز عديده المائة ألف جندى يستخفهم الطرب وتهزهم الرغبة فى تحقيق هذا الحلم اللذيذ على يدهم .

أما الحكومة فى قرطاجنه فما فتئت فى سباتها يتولاها يأس ممض وضيق بغيض . . ولا أمل لها فى النجاة من هذا الشر الهاطل فى غير انقطاع إلا بتقديم الخضوع الذى لا حدّ له ، وقبول المهانة البالغة من غير قيد ولا شرط . . ! ولهذا أرسلت وفدا ثالثاً إلى روما وزودته بمطلق الحرية فى الموافقة على شروط العدو بالغاً ما بلغ الهوان بها . . !

فلما أقبل الوفد على القنصل ومثل بين يديه ، والتمس عنده معرفة ماتطلبه روما على التحقيق، قال القنصل للأعضاء :

« إذا سلمتمونا ثلاثمائة رهينة من أنبل الأسر فى قرطاجنه ، وقمتم بكافة الشروط الأخرى التى نطلبها منكم فى ثلاثين يوما لا تتجاوزونها ، تمتعتم باستقلالكم وبقيت لكم كافة ممتلكاتكم » .

ولكن مجلس الشيوخ في روما أرسل تعليمات سرية إلى القنصلين ، تتضمن التشبث بالمطلب الأسمى الذى لا تردّد فيه ولا تنازل عنه : « القضاء على قرطاجنة وملاشاتها من الوجود » .!

ثم شرعوا فى اختيار ثلاثمائة فتى من أشرف البيوتات وأنبل الأسر فى قرطاجنه ، فاستولى على النساء فزع ممض وحاق بهن ضيق أليم ، وأدركهن الهلع فانطلقن فى الشوارع والأزقة باكيات مولولات، يتوسلن إلى أولى الأمر أن يرفضوا هذا المطلب الآثم. وبارحت هذه الجموع من الشبان بيوتها ، وفارقت أهلها وصحابها ، وازدحم بهم الشاطىء ثم أقلع بهم السفين بعد وداع أليم للوطن والأهل والعشيرة والصحاب ، وخلفوا وراءهم الحزن الدائم والألم المقيم واللوعة الباقية والذكرى الموجعة . . ولبست الأمة السواد ، وقص السيدات شعر رءوسهن حدادا على فلذات الأكباد ، وخيم الحزن على الناس وارتسم فى وجوههم ، ومثل على شفاههم وفوق جباههم ، وفى شتى حركاتهم وسكناتهم .

فبدأت اليقظة تسرى فى طائفة من الشعب المخدوع ، تحركها من هذا السبات الذى طال أمده واشتد بأسه وساء مصيره . . . بدأت تعرف أن الأمة التى تتبرع بحقوقها ، وتمعن فى قبول المذلة

وتسرف فى الرضا بالهوان ، والاستسلام للعدو أملا فى غفرانه وانتظارا لرحمته ، إنما تتنازل عن وجودها ، وتمهد السبيل إلى زوالها ، ومن هانت عليه نفسه ، فقد هان على الناس جميعا ..

ولكن الذين أدركتهم اليقظة كانوا من القلة بحيث لا يقوون على مقاومة هذا السبات الطويل ، ومناهضة هذه الغفلة البالغة .

ثم عاد القنصل فلعن الحرب وأثنى على السلام ، وطلب من رسل قرطاجنه أن يسلموا إليه كافة أسلحتهم وعُددهم وأدوات قتالهم « لأن روما ستتولى الدفاع عنهم يوم يعوزهم هذا الدفاع! » وتمادت قرطاجنه فى استسلامها واستجابت لمطالبه ، فسلمته مائتى ألف حربة وألفين من القسى وآلاف الآلا من السهام والمزاريق.! وبذلك أباد العدو جيشها فى حروبه ، وأحرق أسطولها ، واستولى على أسلحتها وأدوات قتالها ، واستل منها ثلاثمائة من أبناء أشرافها وخلفها كسيحة الرجاء ، ميتة الإرادة ، مجدبة العزم يخيل للرائى أن الجماد إن تحرك ليرد شراً نزل به ، كان فى الأمل فسحة لانتقام هذا البلد التعس . . !

ثم عاد القنصل بعد هذا الهوان الذى أنزله بهم فقال لهم : تحمدون الآن على طاعتكم ، ولكن روما قد كلفتنى بأن

أقول لـكم : فارقوا أرض الوطن وشدوا رحالـكم الى مكان تتخيرونه بعيداً عن البحر بعشرة أميال على أقل تقدير ..! لأننا اعتزمنا أن نهدم وطنـكم ونلاشيه من الوجود حتى نأمن شره، ولا نخشى بعد اليوم بأسه، فهيا سارعوا إلى نقل أثاثـكم وما تملـكون إلى هذا المـكان الصحراوى الجميل ..!

وكأنما كان يحس بوقع هذا النبأ الأليم فى نفوس أولئك الأشقياء الذين ألفوا البحر وورثوا عن الآباء حبه، ومارسوا التجارة ووقفوا عليها حياتهم، فاستأنف الـكلام فى إيلام موجع: « ولخير لـكم أن تبتعدوا عن البحر حتى لا تذكروا العظمة التى تهيأت لـكم فى ماضى أيامكم، وتنسوا المجد الذى اصبتموه فى غابر تاريخـكم، ولا تؤذيكم ذكرى الماضى وعبرة الحاضر، والزراعة فوق هذا كله أدعى للأمان من التجارة، وأكثر منها دراً للخير ومجلبة للرزق » . . ..!

ثم عقب على هذا الـكلام الموجع قائلا :

« ونحن مازلنا عند كلمتنا حين وعدناكم بأن تحيا قرطاجنه فى ظلال الاستقلال، إذا استجابت لمطالبنا وخفت إلى مرضاتنا .؟! إن الرجال، لا الحوائط ولا المبانى هم الذين يكونون الأوطان» !

وكان الشعب القرطاجنى فى انتظار رسالة ليعرف آخر مطلب للعدو بعد ماسلف من مطالب تجاوزت العقل وتخطت كل حدود للعدل . . وازدحم الشعب وتقاطرت جموعه وهطلت على مجلس الشيوخ لتسمع كلمة الفصل فى مصيرها ، فلما أقبل الرسل ووطئت أقدامهم أرض الوطن ، كادت أن تزهق نفوسهم من شدة الزحام، وشقوا إلى المجلس طريقهم بعد جهد فاق التصور ، ومشقة تجاوزت الوصف ، وتقاطر الشعب على أبواب المجلس وتكدست جموعه وهطلت أفواجه ، وخرست الألسنة وأرهفت الآذان لتسمع نبأ المطلب الجديد .

فلما أعلنه مندوب الوفد أصاب المجلس الهلع ، وشاع فيه الجزع ، وارتفعت فى القاعة صيحة كلها روع وغضب ، فأما الشعب خارج الأبواب فقد اشتعلت نار الغضب فى أعصابه ، وغلت مراجل الانتقام فى رأسه ، فهجم على قاعة المجلس وقد فقد وعيه واستولى عليه مس من الجنون ، وانقض على الأعضاء الذين كانوا ينصحون بتسليم الرهائن والأسلحة والأسطول والمعدات ، وأعمل فيهم أسنانه وأظافره وأيديه وأرجله وكل ما امتدت إليه قوته التى تغلى وتستعر حتى مزق بعضهم إربا إربا

ومثل بجثثهم وراح يطوّح فى أشلائهم .. وهجم على الرسل الذين لا ذنب لهم إلا أنهم حملوا هذه الأنباء الأليمة ، وصب عليهم جام غضبه ، وتولاهم بعذابه فى وحشية أحالت المجلس جحيما يضطرب من فرط الهياج والقسوة البالغة فى الانتقام الذريع ، وأباد الشعب من ظفر بهم من الحزب المعتدل وأفناهم وسار على جثثهم، ولطخ جدران القاعة بدمائهم ، ثم انطلق إلى الشوارع يبحث عن الطليان الذين شغلتهم التجارة ، أو استلزمت أعمالهم البقاء بين جدران المدينة ، وانقض عليهم وفتك بهم فتكا ذريعا ، وافترس من وقع منهم فى يده افتراساً وحشيا ذميما . . . ولبث الشعب المجنون يطوف المدينة للبحث عن فريسة تنصرف إليها فورة دمه وسورة غضبه ووقدة حماسته . . وتهيأ الرشد لفئة منه فانصرفت إلى إعداد مايستلزمه الدفاع فى الحرب الضروس المقبلة .. وأعلنها مجلس الشيوخ فى نفس اليوم .

وترامى إلى سمع التاريخ هتاف القدر بيوم « كانى » يوم عاجلته قلة خبرته وحسن ظنه بصروف الزمن ، وقصر نظره فى فهم الحادثات والتكهن بعواقبها والتنبؤ بتطوراتها ، وذكر همسة القدر يومئذ « بل ستحيا روما ، هكذا أراد الرومان ، وإردة

الشعوب من إرادة الله » . فاتأد التاريخ وتأنى فى حكمه حتى ينطق الزمن بمصير هذا الشعب العجيب .

* * *

وإذا جردت قرطاجنه اليوم من حرارة حماستها ووقدة اشتعالها فماذا ترى ؟! امبراطورية واسعة الأرجاء مترامية الأطراف موفورة البأس والقوة بسطت سلطانها على شمالى إفريقيا ، وتخطته إلى أسبانيا فنشرت العلم فوق ربوعها ، ثم تجاوزتها إلى إيطاليا وبسطت طيلسانها على آفاقها الرحبة .. ولكنها اليوم قد ضاقت وتقلص ظلها وانكمش سلطانها حتى استحالت إلى « مدينة » ..! قد استولى عليها الضعف وتملكها اليأس وضعضعتها الحروب ، فسلمت عدوها : أسطولها البالغ نصف ألف بارجة ، وشهدت بعينها النار تلتهمه صابرة يائسة ..! وأعطته أسلحتها وأدوات قتالها من حراب وسهام ومزاريق وقسى .. وثلاثمائة من خيرة شبانها الذين أفلتوا من جحيم الحرب ، وكانوا موفورى الحظ من القوة والعافية ..! وتقبلت دفع الغرامة مكرهة على الرضا ، لا يرتفع فيها صوت بالاستياء حتى يخفت على كره من صاحبه ..! وحكمت على قادتها والمجاهدين المتطرفين من أبنائها بالأعدام مرضاة للعدو الذى استباح حرمتها ، وامتهن كرامتها ووافقت راضيا على إكراه

قائدها وجندها على أن يمروا على معسكر الأعداء عارين إلا من ثوب واحد يستر عورتهم . . ! وأرسلت وفودها متلاحقة تترى إلى روما تنشد العقاب لتستجيب له ، وتطلب الحساب الذليل لتثبت ولاءها باحتماله والرضا به . !؟ أو قل ملخصاً هـذا كله : تنازلت عن وجودها المعنوى إبقاء على وجودها الحسى .

واليوم . . ؟ من ينتصر لهـا ويتعاون معها فى تهيئها للدفاع وتأهبهـا للانتقام ؟ إن تاريخ الإنسانيـة منذ فجر وجودها حتى الطور الأخير من حياتها ، ليؤكد لنا أن تضامن الشعوب فى صراعها لا يطمئن للضعف ولا يقوم على غير المصلحـة ، وادعاء الرحمة والإنسانية والعدالة خداع يستر وراءه هذا المطلب الأسمى والمطمح الأعلى ـ وإذا اختفت معالم هذا المقصد فى تضامن شعب بغيره ، ووضحت آيات أخرى فى سر تعاونه ، فانما نهاية العلل فى تسلسلها: هى الحرص على المصلحة ..!

وقرطاجنه اليوم ضعيفة .. ولا عون للضعيف إلا الله ..! هى عزلاء .. ولا مدد للأعزل إلا رحمة السماء . . ! وحتى السماء — فيما تنطق به نواميس الـكون ونظمه المستقرة — لا تحابى ضعيفا ولا قويا ، وإنمـا تترك الخلائق فى صراعها وقتـالها . . والبقاء

للأصلح . . والغلبة للأقوى .. ثم أين عدالة السماء وحكمتها إن كانت الغلبة للقوى يوما وللضعيف يوما ، والبقاء للصالح حيناً وللهزيل حينا .؟! إن اعتماد مثل هذا الشعب التعس على رحمة السماء ، لن ينجيه من الوبل المقبل . . إلا بمعجزة . واعتماد الشعوب على المعجزات فى لجة الصراع الطامية ، أبلغ حجة على استهانتها بمصيرها ، وتسليمها فى وجودها ، وقبولها للهلاك عن جدارة واستحقاق . . !

وإذن فلتعتمد قرطاجنه على سواعد أبنائها المفتولة ، ونفوسهم الزاخرة بحب الحياة ، وقلوبهم العامرة بالحرص على البقاء — لعل هذا ينجيها من الهلاك .

البعـــــث

انشغال الشعب ـ نساء ورجالا شيبا وشبانا ـ بالتأهب للصراع المقبل، بين الكرامة وتقرير المصير. جغرافية قرطاجنة. بدء حصارها. بسالة «فامياس» . بين المد والجزر. فورة الحماسة الرومان يلتمسون نجدة «ماسينيسا» بأبنها. «سيبيو» يتولى تقسيم مملكته بين أبنائه الثلاث خيانة فامياس. تغيير القنصلين على غير جدوى . قرطاجنة تطلب العون على غير طائل . مجلس الشيوخ فى قرطاجنه يرجم أحد القادة حتى يهلك . روما تهتف بسيبيو . القانون لا يجيز والشعب يريد . ارتداد القنصلين إلى روما من فرط اليأس . عودتهما بمد اصلاح الجيش . الرومان فى حى مجارا . تقهقر القرطاجيين . تعذيب أسرى الرومان . ضرب الميناء . القرطاجيون يبنون أسطولا فى غفلة الرومان . تفانيهم فى الدفاع .

ونفخ فى الصور فاذا النيام أيقاظ تملأهم الحياة بعد أن زايلهم النعاس ، وإذا الأموات يهرعون إلى ميدان القتال من فرط القوة ووفرة الحيوية ووقدة الحماسة . . !

قامت الأمة ـ حكومة وشعباً ـ بتنظيم الدفاع ، والتأهب لبذل

الجهد والنفس فى الهول المقبل، حرصاً على بقائها وتقريراً لمصيرها، وولت قيادة جانب كبير من جيشها قائدها هسدروبال ـ وهو الذى أسلفنا الأشاره إلى الحكم عليه بالإعدام مرضاة للعدو ـ وتربص البـاقى من جيشها داخل الأسوار ، ونسى الشعب مطالب حياته وراح ـ نساء ورجالا شيباً وشباباً ـ يواصل الليل بالنهار فى صنع الأسلحة وإعداد ما يتطلبه الصراع المقبل من أدوات . . اقتلعوا بلاط الشوارع ، وهدموا كثيراً من البيوت وحملوا أحجارها إلى شرفات الأسوار ، أذابوا ما يملكون من أوان وتماثيل ذهبية وفضية ، وقد كانت عزيزة عليهم حبيبة إلى نفوسهم . . طغى الشعور بالقوميـــة الملتهبة والرغبة الملحفة فى البقاء على العقيدة الدينية المتمكنة فى النفوس ، فأحالوا « المعابد » مصانع يعدون فيها أسلحتهم وعددهم وما يحتاجون . . . احتاجوا إلى أوتار للقسى لتقذف المزاريق ، وأعوزهم شعر الخيل الذى ألفوا استعماله فى ذلك ، فسارع النساء إلى التبرع بشعر رءوسهن ولم يبخلن به وكان من أعز ما يملكن من مظاهر الزينة . . . ! كانوا يصنعون فى اليوم الواحد ألف مزراق وثلاثمائه سيف ومائه درع . . !

كل فرد فى الشعب قد استولى عليه شعور عميق يوحى إليـه

بالرغبة فى القتال ، وتسلط عليه هاتف يهتف فى أذنه : إن نهاية الصراع المقبل حياة ممدودة البقاء موفورة الهناءة ، أو اندحار لا راحة وراءه . . لا بل لا حياة بعده .

واستحالت قضية الكرامة والمطالبة بالحرص على قداستها ، إلى قضية دفاع عن حق البقاء واستماتة لتقرير المصير . . وإذا كان فى الأمم من لا يحسون بضرورة الحرص على الكرامة ، والتمتع بالاستقلال وغسل الإهانة ورد العدوان والعيش فى ظلال الحرية ، فليس طبيعاً أن يوجد فى أهل الأرض قاطبة فرد واحد يتهاون فى بقائه ، ويستهين بمصيره ، ويتساوى عنده وجوده وفناؤه .

وبهذا استحال الشعب كله كتلة واحدة قوية البنيان رصينه اللبنات متماسكة الأجزاء ، وامتزج أفراده شعوراً وفكراً وقاموا على بكرة أبيهم يتولون الدفاع ، ويستميتون فى مقاومة الأعداء

وكان لقرطاجنه سور يبلغ محيطه ثمانية عشر ميلا وارتفاعه ستة وأربعين قدما وسمكه أربعة وثلاثين قدما ، أما بروجها فكانت ترتفع فى الجو أربع طبقات ، وكان يكفى لحماية المدينة من ناحية البحر سور واحد ، لأنها تربض على شبه جزيرة كما أسلفنا القول ،

ومن الشمال والجنوب كانت تقوم على حماية المدينة ثلاث حوائط تتفاوت ضخامة وعلوا ، وكان أقربها إلى المدينة أقلها قوة وفخامة

أما موانى المدينة فقد أقيمت بحيث يسهل الاتصال بينها ويتيسر مرور السفن من واحدة لأخرى . وأعدت الميناء الخارجية للسفن التجارية ، وكان مدخلها من ناحية البحر مغلقا بسلاسل من حديد ، أما المينا ، الداخلية فقد أعدت للسفن الحربية ، وكانت تقوم فيها جزيرة ، حولها وحول الميناء مكان فسيح يصلح لحفظ عشرين ومائتى سفينة ، ويقوم على الجزيرة بيت أمير البحر وهو عال يمكنه من الإشراف على مايدور حول المدينة عن بعد ، وبين الميناءين الخارجية والداخلية - التجارية والحربية - سور مرتفع يسهل النظر من خارجه إلى ما وراءه ، وللميناء التجارية مدخل من ناحية المدينة ، وكانت القوات تتولى حراسة الميناء الحربية وتقوم على حمايتها .

ولما كانت المدينة تربض على شبه جزيرة ، فقد جنح مانليوس إلى حصارها برآ ، ومال سنسورينوس إلى الهجوم على سياجها بحرا ، ، فتخير أضعف جوانبه وأسرعها إلى الانهيار ، وخاض إليه مستنقعا ضحلا ، وشرع فى اقتحامه وبذل الجهد المض أملا

فى انهياره ، ولكن أهل المدينة صمدوا له واستماتوا فى الدفاع حتى كبدوا المحاصرين خسائر فادحة ، وأنزلوا الشر بالمهاجمين برا وبحرا ، وأبدا هسدروبال وضباطه من المهارة والحذق والنشاط ما انخلع له العدو واضطرب ، وكان أظهرهم حماسة وأبرزهم إقداما وأشـــدهم بأسـا : فامياس Himilco Phameas فاستجمـع « سنسوريتوس » قواه واستكمل عدته وهيأ لهدم السياج منجنيقين ، تولى أحدهما ستة آلاف مقاتل ، وقام بالثانى جمع غفـير من البحارة ، وتيسر لهم بهذا الهجوم أن يبعثوا العطب فى جانب من السور ويحملوا عليه فاذا هو طلل مهدم . . وانبثق الأمل العريض فى الأفق أمام الرومان ، وأحسوا بأن العـــدو لن يقوى على صراعهم بعد هـذا النصر . . . وأقبل عليهم الليـل ونشر جناحه والطرب يستخفهم والأمل يغـذى نفوسهم ، ثم أصبح الصباح فاذا الجانب المهدم مقام كما كان . . ! ! وذهل الرومان لخفة العدو ونشاطه وسرعته ، ثم حملوا على المبنى الجديد ولاقوا من رصانة الدفاع الحماسى المتقـد فوق ما كانوا يتصورون ، وهاجم الرومان فجوة فى السور لم تتناولهـا يد الترميم ، وحصروا فيها جهودهم ، ووقفوا عليها رجاءهم ، ولـكن أهل المدينـة وضعوا فى الفجوة

رؤسهم وحملوا اليها حياتهم ، وتكاتفوا ثم دفعوا منها جهودهم ، فردوا المهاجمين بعد أن دفعوا ثمن الحصار ... وكان باهظا ... وتقلص ظل الأمل فى رءوس الرومان ، وأحس قائدهم « سنسورينوس » بأن ملاحيه قد قاسوا من قيظ الحر وضغط الصيف فوق ما تحتمل طاقتهم ، فبارح المستنقع ونقل إلى البحر الواسع سفنه ، وحرص الشعب الباسل على استغلال الفرص ، فما قامت الرياح وهيأت نفسها لخدمته حتى سخرها وأرسل على جناحها فيض شره وأجيج غضبه ، وأطلق فيها سفنه لتنزل بالرومان عذابه .. وبدأ الأمل المتفتح يذبل ، والعزم المتيقظ يهمد ، والطموح الوثاب يضمحل .. وأعوزتهم النجدة فالتمسوها عند حليفهم القديم « ماسينيسا » وكانت علاقته بهم قد داخلها الفتور ودب إليها الجفاء ، لأنهم أهملوا شأنه حين جنحت بهم الرغبة إلى تدمير قرطاجنه ، وتمادوا فى إهماله حين مضوا وحدهم إلى تحقيق هذه الرغبة ، فلما امتنعت عليهم المدينة ونفدت قوتهم على غير طائل ، أرسلوا إليه فى طلب العون . فوعد بتلبية رجائهم « بعد ، أن تقدموا به .. ! » وكانوا أكبر من أن يحتملوا هذه الإهانة ، ويقبلوا المدد بعد هذا الجواب الجارح ، ثم مات هذا

الحليف فى التسعين من عمره ، فتىّ النفس موفور النشاط ، وانشغل سيبيو الذى التقت عنده ثقة هذا الرجل بتقسيم مملكة الملك وثروته بين أبنائه الثلاثة ، وسرعان ما ائتلف أحدهم « جلوسا » Gulussa وانتظم فى صفوف روما وجدّ فى تحقيق مطمحها ، وأظهر نشاطاً محموداً فى قتال « فامياس » ، ولكن سيبيو استمال هذا اليه وأغراه وحبب إليه الخيانة ،فاستخفته الوعود وحولت اتجاهه فاذا هو من سواعد الرومان المفتولة ، وأشدها انتصارا لسياستهم وحماسة لتنفيذ خططهم . . !

ولم يتغير موقف الرومان بهذه الخيانة ، فاستبدلوا قنصليهم وتولى القيادة بيزو Piso ومانسينوس Mancinus ولكن كفة الشعب المستميت المتفانى مازالت راجحة ، وصيحة الدعوة لهدمه تعلو على غير جدوى ، ونشاطه يتناسب فى ازدياده طرديا مع إخفاق الرومان واضمحلال جهودهم . . وقد امتنع هذا الشعب المحصور فى دياره على الرومان الذين يتسلطون على أوسع امبراطورية شهدها التاريخ القديم كله ، وقد لبث يهتف بالنجدة فلا يظفر بها ، ويلتمس العون فلا يعرف السبيل إليه ، لأنه ضعيف ، والضعيف لا تتعاون معه الشعوب رحمة به أو إشفاقا عليه ، وإنما

تتجنب الاقتراب منه وتتقى الاتصال به ، وقد تنفى عطفها عليه إن كان بينها وبينه صلات رحم أو وشائج مودة ، وإذا خطر لها التضامن معه والانتصار لقضيته كان ذلك حرصا على مصلحتها أو خوفا على كيانها . . . . لا . . بل إن أعداء روما الذين كانوا يرجون لقرطاجنه النصر ، أو يخافون على مصيرهم بعد سقوطها، لم يجرؤ واحد منهم على الائتلاف معها يوم هب الرومان لحصارها، وأطلقوا نذير الموت فى أهلها ـ ذلك لأنهم كانوا مطمئنين إلى ضعفها وخورها ، موقنين بسوء مصيرها ، ورغم أنها صمدت للدفاع وجازت الامتحان وأثبتت قدرتها على الكفاح،فإن القوم ما زالوا فى حيرة من أمرها يخشون التضامن معها والانتصار لقضيتها ، فأرسلت رسلها إلى ابنى ماسينيسا اللذين التزما العزلة بعد ممات أبيهما ، وكانا يظهران للرومان المودة فى حيادهما ، والاستعداد لنصرتهم ، وأقبلت رسلها على المغاربة المستقلين تنذرهم بالشر الذى ينتظر أن يحيق بهم على أيدى الرومان إن سقطت قرطاجنه وخلا الجو لطغيانهم ، واتصلت كذلك بالمقدونيين الذين كانوا فى حرب مع روما ! فكان نصيب هذه المساعى كلها إعراضاً لا حدَّ له . . !

وساءت العلاقات بين هسدروبال وقائد يحمل اسمه ويتولى الدفاع داخل الأسوار ، فاتهمه بالخيانة وأيد التهمة اتصاله بالخائن « جلوساً » فذهل الرجل لهذا الاتهام حتى وهن نشاطه وخمدت حماسته ، وضعف إقباله على القتال وخف حرصه على الدفاع ، فاستدعاه مجلس الشيوخ ورجمه الأعضاء فى قاعته بالمقاعد حتى لفظ نفسه الأخير . . !

أما فى روما فقد كان الأهلون يتوقعون لقرطاجنه انهياراً سريعاً وتحطيما عاجلا ، فلما صمدت للدفاع وأقامت على احتماله وأذاقت محاصريها الويل المر ، وكبدتهم الخسائر الفادحة ، أدرك روما الضيق والجزع ، فاتجهت أنظار الناس فيها إلى الرجل الذى توج بالنصر الحاسم ماضيه ، ووضع حداً لحروب هانيبال الجبار ، إلى « سيبيو » الذى انعقدت عليه الآمال فى تدمير قرطاجنه ومواراة أهلها التراب .

فمضى سيبيو ليرشح نفسه لمنصب يتولى فيه الإشراف على التجارة والمالية والشوارع والمبانى والألعاب فى مكتب البلدية Office of Aedile وهو يتوقع لمقدمه نتائجه ، فالتف حوله الشعب وأحاطه بثقته وهتف له ونادى به قنصلا على روما ، يتولى أمرها

ويقود جيشها ويأخذ مكان أحد القنصلين، وكان عقد خدمته لا يزال ممتد الأجل ، فأعلن القنصل احتجاجه على امتهان كرامته وحيدة الأمة عن احترام القانون والحرص على حرمته . . وكان مما يقوى موقفه في احتجاجه صغر سيبيو الذى لم يتخط السابعة والثلاثين من عمره ، والقانون لا يجيز انتخابه . ولكن الشعب قد ألح في مطلبه ولج في دعوته واشتط في ثورته ، وكان الانتخاب حقاً من حقوقه يمنحه من يشاء ويمنعه عمن يريد ، وتضامن الحكام معه فهددوا القنصل المحتج بإيقافه إذا أصر على منصبه ولم يخل الطريق لرجل الساعة . . فأذعن القنصل وتخلى عن مركزه كارهاً . .

واستهل « سيبيو » حياته الجديدة بإنقاذ مانسينوس من خطر تردى فيه ، ثم قاد فيلقاً ومضى به إلى ناحية يعلوها الوهن في سور قرطاجنه وحمل عليها حتى تيسر له أن يتسلل منها إلى داخل المدينة، ولكن الشعب قد أقبل يتصدى للقائه ، وتكدست جموعه في وجهه وصمدت لمقاومته ، وتفانت في الدفاع حتى امتنع عليه التقدم ، وخشى على نفسه التقهقر ، فأرسل في طلب زميله « بيزو » ليمده بالعون ويشد أزره ، ولكنه لبث في مكانه لا يريم حتى بلغ سيبيو وهو في « يوتيكا » رسالة من « مانسينيوس » يطلب نجدته

فخف إليه وأمنه من خوف وقواه بعد ضعف .. ولكن اليأس قد عاد فا كتنف القنصلين وخيم الضيق عليهما ، فارتدا إلى روما حسيرى القلب مهيضى الجناح مطأطئ الرأس ، وأدرك سيبيو علة الهزيمة التى حطت عليه ولبثت فى صحبته على كره منه ، فتبين وجوه الفساد الذى لحق بالأمة فى عصر التراخى والأهمال الذى تولاه أسلافه ، فأقام نفسه للعمل على إصلاحه وبعث النظام فى صفوف جيشه ، وتطهيره من الكسالى والنفعيين الذين لا يدخلون المعمعة إلا أملا فى الغنيمة ، ورغبة فى السلب وانتظاراً للنهب .

واطمأن بعد هذا الإصلاح إلى جيشه ، وداخلته الثقة بنفسه ومضى إلى المدينة يعالج حصارها ويقتحم أسوارها ، واعتزم أن يهاجمها من ناحية حى « مجارا » الذى تقيم فيه الطبقة الثرية المترفة ، لعله يقوى على تدمير العز الوارف بعد أن امتنعت عليه أحياء العامة وطغام المواطنين ، ولكن السور كان من الرصانة بحيث صد حملته ، وخيب أمله ورد رجاءه .. وكان يشرف على التحصين برج لبعض المساكن أقيم على غير حكمة ، فاحتله العدو وتسلل البعض منه إلى السور وانطلق إلى حى « مجارا » وطار إلى إحدى البوابات وعالجها فانفتحت وهرول إليها سيبيو على رأس قوة من

أربعة آلاف مقاتل حتى استقر بالمدينة ، وثبتت على أرضها قدمه وخفق قلبه بغبطة يمازجها القلق ، فقد كان الحى لا يصلح للحركات الحربية لما انتشر فى أرضه من شجر وضرب فى آفاقه من مجارى الماء ، ولكن الجيش الذى كان يحمى ذمار المدينة خارج أسوارها قد انخلع قلبه لهذا الأمر ، وداخله الوهم بأن الوطن قد طار من يده ، وأن العدو قد ملك أمره وأصاب رجاءه ، فهجر معسكره وتقهقر إلى « بيرزا » Byrsa أو أعلى المدينة Upper City فاستاء هسدروبال وملأ الغيظ شعاب نفسه ، وطار إلى الأسرى الذين استقروا فى السجون وأعد لهم مذبحة من أفظع ما روى التاريخ من مذابح ، وحملهم إلى قمة السور واستحل دمهم فتولاهم بعذابه وصب عليهم انتقامه المزبد وغيظه المستعر حتى إذا أحس التعب فى تعذيبهم ألقى بهم أحياء من أعلا السور ، فهووا إلى الأرض واستقروا على سطحها بعد أن شجت الرءوس وتحطمت الأجسام وسالت الدماء وزهقت الأرواح وانقطع الأنين . . ! أما أهل المدينة فقد زايلهم بعد هـــذا أملهم فى عطف العدو عليهم أو إشفاقه بهم ؛ ولبث حبهم للحياة يطوف برءوسهم ويستثير الدفين من حماستهم ، ويمدهم بألوان العجب فى نضالهم .

فأما « سيبيو » فقد انطلق إلى المعسكر الذى هجره أهله حين فجأهم الروع وأشعل النار فيه ، وتهيأ له بذلك أن يستولى على عنق شبه الجزيرة التى تربض المدينة على أرضها ، فيمنع عنها المدد ويحرمها الغذاء الذى يفد عليها من ناحية البر ، فأما ما تصيبه عن طريق البحر فالرجاء فيه ضعيف ، وأمره أهون من أن يقلق البال ويبلبل الخاطر .

ثم هيأ « سيبيو » نفسه لضرب الميناء ، فبنى سوراً ضخما عبر الفم ، فتوهم الشعب أول الأمر إخفاقه حين بدت له ضخامة السور وعظم مبناه ، ولكن الجيش كان مشغلا به منصرفا إلى إتمامه ، مواصلا ليله بنهاره فى العمل على إنجازه فانتصبت قامة السور فى غير توان أو تباطؤ — مما روّع الأمة وأفاق بالها ، بيد أنه لم يزعزع رجاءها فى المستقبل ، ولم يضعف أملها فى النصر ، بل شد أزرها واستثار حماستها ، وأجج نارها وأطلق لرسم الخطط فكرها وللعمل يدها وللبذل جهدها وللمقاومة نشاطها حتى إذا كان الرومان جادين فى حصارها مطمئنين إلى انكماشها بعد أن أدموا بالطعنات قلبها ، وأحرقوا أسطولها وذروه رماداً على مرأى من أهلها ، إذ بأسطول جديد يأتلف من خمسين بارجة يطلع عليهم وقد ركب الماء فى قناة تمتد من الميناء إلى البحر لم تكن موجودة من قبل . !

متى حفرت القناة .. ؟ ! متى أقيم هذا الأسطول . . ؟ ! حقيقة إن صوت المطارق كان يدوى فى آذان الرومان من غير انقطاع ، ولكنهم أهملوا التفكير فيه ولم يقلقوا عند ما صافح أسماعهم ، لأن وجود أسطول فى يد الشعب لا ينفعه ولا يوسع له فى رحاب الأمل مادام البحر فى حوزة الرومان ..!

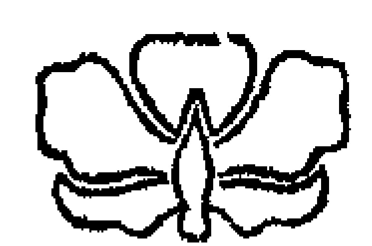
ثم قام القرطاجيون فى سفنهم بحركات عسكرية وهم فى بهجة بالغة وغبطة مفرطة ، وعادوا أدراجهم مقتنعين بإقلاق العدو وتشتيت الاطمئنان من رأسه ، ولو هاجموه وسارعوا إلى الاشتباك معه لكان من المحتمل أن يفقأوا عينه ويشجوا رأسه ويصيبوا بالعطب بعض مناحى جسمه - ولو إلى حين - فان أسطوله كان يكاد أن يكون مهملا لا ترعاه عين ولا يلحظه حارس . ولكنهم أساءوا استقبال هذه الفرصة التى عرضت لهم وفوتوها فمرت بهم وكأنها آلت على نفسها ألا تعود إليهم ..!

ثم تأهب الرومان لهذا الخطر الداهم ، ونازلوا العدو بعد يومين وصارعوا بأسطولهم أسطوله ، ولكن الحرب كانت بينهما سجالا . . فعادوا إليها فى اليوم الثانى ، واتجه الرومان إلى الأسوار من ناحية الحرب وأعدوا لها مناجيقهم ، أملا فى أن تندك أمامها وتخر طللا دارساً ، وأمطروها بوابل من ضرباتهم

فهدمت جناحاً كبيراً منها . . بيد أن القرطاجيين قد اندفعوا إلى المستنقع عراياً يحملون المشاعل المطفأة ، وخاض البعض حيث تيسر له الخوض وسبح الغير حيث علا الماء فوق قامتهم حتى إذا بلغوا الأرض أوقدوا مشاعلهم وهاجموا مبانى الحصار ، وأشعلوا النار فيها واستماتوا فى الدفاع عزلاً من كل سلاح إلا بما يعمر قلوبهم من إيمان بالحياة ، واحتملوا البأساء راضين ، وكلما رأوا الموت يطيح برءوسهم ، ويعدو بين صفوفهم ، كبر حبهم للدنيا فتفانوا فى القتال وقويت آمالهم ، واستيقظت حماستهم حتى استظلوا براية النصر وردوا العدو خاسئاً وهو حسير . . !

فأما سيبيو فقد أمر بذبح الفارّين من جحيم الموت وهو فى شدة الروع وهول الجزع . . ! وأخذه العجب لهذه الأمة التى كانت إلى الأمس القريب تخضع للذل وتستجيب للهوان عن رضا وطواعية - وحق له أن يعجب فى إسراف ، فإن هذا الشعب نفسه هو الذى سلم بالأمس القريب سلاحه ، وأرسل رسله إلى العدو تطلب الرحمة وتلتمس الغفران ، وتعلن استعداد الشعب لقبول ما يفرضه العدو من مطالب - بالغاً ما بلغ بها الهوان . . ! !

وها هو ذا اليوم يقاتل أعزل من كل سلاح،ولكنه موفور القوة مملوء بالتضحية لا يتوانى فى الدفاع ولا يتئد فى قتال الأعداء، فيصمد لهم على قلة عدده وحاجته إلى السلاح ، ووفرة قوتهم وعظمة سلطانهم . . فما سر هذا إذن . . ؟ ؟



أمـــة تفـــنى

وتتوارى من التاريخ

مصائر الشعوب . منع الزاد عن قرطاجنه . الشعب يعتلي البيوت ويواصل القتال . الاستيلاء على المدينة بيتا بيتا . إحراق المدينة . يلتمس بعضهم الغفران ــ ٥٠٠٠ يتحصنون في المعبد . يقومون باحراقه وهم فيه خلاصا من الذل . « هسدروبال » جاث على ركبتيه يستغفر القائد الظافر ــ زوجته تصب عليه لعناتها وتقتل طفليها وتنتحر نجاة من ذل الرومان . مصير قرطاجنه

تتأثر مصائر الشعوب ـ وحظوظ الناس ـ بمدى استغلالها للفرص التي تسنح في حياتها ، ومبلغ استجابتها للظروف التي تعرض في تاريخها ، ودقة الإحساس بتلقي المؤثرات والاستجابة لها ، تيسر للشعوب والأفراد أسباب الغنم وسبل النجاح .والتيقظ لاستغلال الفرص بعد فوات أوانها لا يجدى فتيلا ، فاذا كانت قرطاجنه قد استنفدت جهدها في مقاومة عدوها ، فقد جاء هذا بعد فوات الأوان الذي يتطلب اليقظة ويستلزم اتخاذ الحيطة . .

وقد أقبل الشتاء فاتجه القائد الروماني بجنده إلى الأقليم الذي

تستمد منه قرطاجنه الزاد وماتحتاج ، وبسط عليه طيلسانه ،ونشر في جنباته سلطانه ، وقطع عن البلد الزاد وسلط عليه الجوع ، وأطلقه يتمشى في شوارعه وينبث في بيوته ، ويمتد إلى بطون أهله في أمس الأوقات حاجة لاطمئنان البطن . . !

ثم مال « سيبيو » بعد هذا إلى أعلى المدينة ليغزوها ، ومضى إلى ميناء السفن الحربية ، وبدأ بالثانية وكانت مقاومة الأمة قد أدركها الغطب وأصاب الانحلال جهودها ، فاخترقها ومضى منها إلى السوق المجاورة حتى إذا بلغ معبد « أپولو » بما توفر له من كنوز ثمينة ، أطلق فيه الجنود أيديهم بالنهب والسلب حتى قيل إنهم انتزعوا من التمثال والمعبد نحو ألف وزنة من الذهب . . ! ثم تقدم عن طريق السوق الذى أسلفنا الإشارة إليها فاذا ثلاثة شوارع تواجهه وينتهى به كل منها إلى أعلى المدينة

وكانت البيوت في هـذه الطرق الثلاث ترتفع في الجو ست طبقات ، فاحتلها الشعب ثم أطلق منها ضرباته ووالى الدفاع في غير انقطاع ، ولكن المقاومة حين تفرقت في البيوت وتوزعت من غير قائد يتولاها ، ويشرف على تنظيمها ويحكم خططها ويرسم سبلها ، قد هان خطبها وتيسر للعدو لقاؤها واحتمال بأسها ،

وتراءى له أن يستولى على المدينة بيتاً بيتاً . . ! وأصبح القتال بين جموع تبلغ الآلاف عداً ، وبعض الأسر التى لاذت ببيوتها وهاجت فى غرفها على غير انتظام ، فتقدمت الجند شاكية السلاح موفورة الحماسة يعمر قلبها فخار النصر ، واستولت على الشوارع الثلاثة بيتاً بيتاً . . !

ولكن القتال لبث قائماً يتأجج ناراً فى شتى الطرق الأخرى فى المدينة ، والناس يخرون على الأرض صرعى ، وتهوى جثثهم مثخنة بالجروح ملطخة بالدماء حتى رفرف علم الرومان على جنبات أعلى المدينة ، ولكن الراية لم تخفق حتى كانت النار تهرول فى المدينة وتعدو فى شوارعها ، وتجرى فى بيوتها بأمر القائد الظافر..! اندلع الحريق فى البيوت وكان قد لاذ بها النساء والأطفال والعجزة والمرضى ممن لا يقوون على حمل السلاح ومواجهة العدو ، واستقر هؤلاء جميعاً فى دورهم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . ! وهنا هى الآن تحترق ويستحيل من بها وما فيها رمادا . . ! وسابق الهلع النار فى عدوها ووثبها ، فألقى البعض بنفسه من النوافذ حتى إذا هوى إلى الأرض تلقته سيوف العدو وغابت فى جسمه المحطم . ! ولبث البعض فى مكانه حتى أقبل عليه الدخان فخنقه ، وسارع

إليـه اللهب لخرقه ، وأحاله قطعة من فحم هش غذت جوع النار وأطالت بقاءها ومدت حياتهـا . ! وتهدمت البيوت على البعض فدفنت جثثهم واستلت أنفاسهم ، وتركت البعض يعانى ثقل الأطلال التى هوت عليه ، وحطمت بعض أعضائه ، وخلفته لا يملك الأنين ولا يقوى على التأوه . . !

سبعة عشر يوماً بلياليها تولت النيران فيها الإجهاز على الأطفال والمرضى والشيوخ والعجزة وربات الخـدور ممن ضلت سيوف الرومان سبيلها إليهم . . ! وقام اللهب بتدمير المدينة وهدم دورها وتهيئتها للبوم ينعق على أطلالها ، وللخراب يستقر على أرضها . . !

أما « سيبيو » فقـــد كان يواصل العمل من غير انقطاع ، فيختلس اللحظات القصار ليستريح فيها ، وكان النوم لا يقبل عليه حتى يفارقه رغم حاجته الماسة إليـه . . والفرص التى ضنت عليه بالنوم قد بخلت عليه بلحظة يأخذ فيها حاجته للزاد . . !

وفى اليوم الثامن عشر أقبلت عليه الوفود تترى من معبـد Aesculapius إله فن الطب تستغفره وتلتمس عنـده العفو عمن بقى من أهل المدينة ، وتتوسل إليه أن يرحمهم فيؤمنهم من خوف ويشبعهم من جوع . كانوا يدافعون هذا الدفاع المجيد حرصا على

الحياة العزيزة ، والآن أيقنوا أن الاستمرار فى الدفاع لن ينقذهم من الهلاك الزاحف عليهم من غير توان ولا اتئاد ، فلا بأس من إيقاف الدفاع والمسارعة إلى التسليم واستجداء الرحمة من القوى الظافر ، فإن أدت هـذه الطريقة إلى البقاء فهذا أعز ما يشتهون ، وإن أخفقت عند من بيده الأمر فلن يصيبهم أكثر مما كان ينتظرهم لو أقاموا على الدفاع وصمدوا فى كفاح العدو حتى الممات، ولـكن القائد الظافر قد قبل ضراعتهم ، ونشر عليهم جناح رحمته وكانوا خمسة آلاف امرأة ورجل ؛ بيـد أنه قد ضن بعفوه على الهاربين والفارين ، واعتزم أن يصليهم ناره ؛ ويتولاهم بعذابه ، فلاذوا بالمعبد وتواروا فيـه وكان بينهم تسعمائة رومانى و « هسدروبال » وزوجته وطفلاهما ، فما استقر بهم المـكان حتى ضعف رجاؤهم واضمحل أملهم ودنت ساعتهم ؛ وباتوا ينتظرون نفخة الصور وبداية الحساب العسير — وإذا كان المعبـد منيعا يقوى على حمايتهم من ضربات العدو فلن يقوى على حمايتهم من أهوال الجوع . . ! فملأ القلق الرءوس ، وساور اليأس النفوس ؛ وامتد الحرص على الحياة إلى هسدروبال ـ قائد قرطاجنه الأكبر، فحاول الهرب من رفاقه ؛ وألقى بنفسه فاذا هو جاث على ركبتـه

يلتمس العفو عند قدمى « سيبيو » !

وقبـل القائد الظافر ضراعته ، وسار به يعرضه على أنظار الفـارين الذين تـكدست جموعهم وتزاحمت أفواجهم فوق سطح المعبـد . . فصبوا على الخائن لعناتهم وحصبوه بسخطهم ، ووثب إلى نفوسهم عزم مبعثه اليأس ومصدره انقطاع الرجاء ، فأوقدوا فى المعبد ناراً ، وآثروها على الضراعة للقائد الظافر ، وقبول الذلة والهوان حرصا على الحيـاة . . . وبدا المعبد وكأنه سرادق من نار ، فتقدمت زوجة « هسدروبال » وقد ارتدت أفخر ما لديها من ثياب ، وتحلت بأجمل ما تملك من أدوات الزينـة ، ووضعت طفليها إلى جانبها والتفتت إلى « سيبيو » وقالت له فى مرارة اليأس وسورة الغضب وجنون الجزع :

أما أنت يا بطل روما وفخر رجالها فلا أطلب إلى السماء أن تنزل نقمتها بك ، لأنك لم تفعـل إلا ما اقتضته نواميس الحرب وسنن النزاع إذا اشتد واستعر ، أما هذا الهسدروبال ، هـــذا الخائن لوطنـه وآلهته وزوجه وولده ، فانى أضرع إلى السماء أو إليك باعتبارك رسولا لها أن تصليه عذابا ونـكالا . . . !

ثم التفتت إلى زوجها وهى تصر أسنانهـا وقالت له والغيظ

يطل من عينيها : « أيها الدنىء الخائن الجبان ، أأستقبل أنا مع طفلىّ الموت بين ثنايا اللهب ، وتتخذ النار الحامية مقبرة لنا ، وأنت ـ قائد قرطاجنه العظيم ـ تتوح انتصار العدو بخيانتك البشعة ، وتكلل ظفره بهوانك ومذلتك » !

ثم غيبت الخنجر فى جسم كل من طفليها وقذفت بجثتيهما إلى اللهب المندلع . . ! وفعلت بنفسها مافعلته بهما . . وراحوا طعاما للنار (الصورة ص ٢٢٧) .

* * *

وبهذا سقطت الامبراطورية الأفريقية بعد سبعةقرون حافلة بالمجد عامرة بالروعة والجلال ـ فما صافحت عين القائد المنتصر منظر اللهب ، وشهد الأطلال التى خلفها ، والنفوس التى أزهقها ، والأجسام التى أتى عليها ، والمتاع الذى طاح به ، والماضى الذى حاول وأده ، والعز الذى عالج دفنه حتى دبت الحسرة إلى نفسه ، وغالب الدمع عينه ، فجرى على خده وقد ذكر القدر الذى يبرم فى الممالك أمره ، ويجرى على الدول حكمه ، فيعز امبراطورية ويذل أخرى ، وهاله الأمر واشتد به الجزع حين طافت روما برأسه

وتوقع لشمسها المغيب ، وإن طال شروقها ، وامتد إلى الأفق البعيد نورها ، فراح يناجى نفسه بما أجراه « هومير » Homer على لسان هكتور Hector حين تنبأ لطروادة بالزوال .

ثم عاد « سيبيو » بعد هذه المأساة العنيفة إلى وطنه ، وهبّ الشعب كله لاستقباله والاحتفاء به ، وأقام له موكباً رائعا تقدمته الموسيقى وسارت فى ركبه عجلات تحمل الأسلاب والغنائم ، وطائفة من أهل قرطاجنه الذين منعهم الحرص على الحياة من إيثار النار على ذل الرومان ، يسيرون فى الموكب وقد نكسوا رءوسهم حياء وندما ، ويلى هؤلاء البطل الظافر يصطحب عبداً يهمس فى أذنه طوال الطريق : «تذكر أنك لست إلا رجلا ..! » وذلك حتى لا يداخله الغرور . ! ووراءه أعضاء المجلس ورجال الجيش الظافر يسيرون مزهوين فخورين . . .

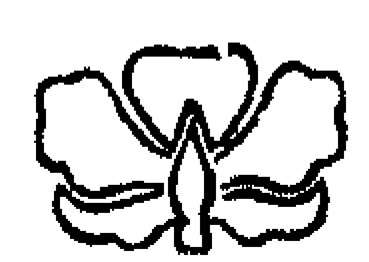
* * *

توارت قرطاجنه من الدنيا ، ونعقت غربان الدمار فوق أرضها ، تعلن خرابها وتنذر بالشر كل من فكر فى أمرها . وتقدم « جراكوس الصغير » The Younger Gracchus بعد مضى



«هسدروبال» جاث على ركبتيه يلتمس الغفران
من « سيبو » وزوجته على سطح المعبـد مع
طائفة من الشـعب الذى آثر الانتحار على ذل
الرومان وهى تصب على زوجها اللعنات، ثم تطعن
بالخنجر طفليها وتلقى بهما الى النار . وتفعل
بنفسها ما فعلته بولديها . . ! !

عشرين عاما باقتراح يرمى إلى إعادة بنائها لتكون موطنا لستة آلاف نسمة ، فتحرك فى القبر اسمها ، وطافت بالأرض ذكراها تبعث الجزع وتنشر القلق حتى مات الاقتراح وهو وليد . . ! فجدد يوليوس قيصر هذا المطلب بعد نحو ثمانين عاما ، ولكن رهبة الذكرى ردته حلما يطوف بالخواطر فى غفلة من العقل المدبر . . ! وسبحان من له الدوام . . .



تحليل هذا الكفاح

رده إلى علله

هوان العلم فى تقرير مصائر الشعوب — هوان الرخاء فى تقرير المصير — قيمة الخلق الرصين فى تقرير المصير — أدلة المعجبين بجهاد قرطاجنه — مناقشة أدلتهم — مرد جهاد قرطاجنه الى المحافظة على البقاء لا الى البواعث الروحية — سمو الوجود المعنوى على الوجود الحسى
الجهاد بين الغريزة والمثل الاعلى

سيرة النهوض حافلة بأمم شاخت بعد شباب فتى تهيأ لها ، زاخرة بدول عاودها الصبا بعد شيخوخة مضنية واحتضار قريب! فكيف أدرك الشباب شعوبا كان يعوزها ماء الحياة ..؟ وكيف لحقت الشيخوخة دولا كانت تهتز من فرط القوة ووفرة الصبا ؟ كيف استحالت قرطاجنه إلى ذكرى يحكيها التاريخ ، وقد كانت ملء الأسماع والخواطر والأمصار ، ومثار الروع والفزع عند كبرى الأمم ..!

لقد كان حظها فى الجهل رحب الأفق ، ونصيبها فى البداوة ملموس الجانب ، فهل كان هذا مبعث اندحارها ومصدر عجزها عن صون كيانها ..؟

إن تاريخ الانسانية يقول إن اضمحلال الأمم لا يتناسب تناسباً طرديا مع الجهل والبداوة ، عكسياً مع العلم والحضارة .! وهاك روما أوسع امبراطورية عرفتها الدنيا بأسرها فى العصور القديمة ، يقول عنها علماء الاجتماع : قد تهيأ لها إبان شيخوختها من بسطة فى العلم ووفرة فى المدنية وعلو فى مستوى المعيشة ، ما لم يتهيأ لها فى فتوة شبابها ومقتبل حياتها . فقد كان فيها يوم اضمحل عزها ومالت للمغيب شمسها : مئات الكتاب المجيدين والخطباء المفوّهين والمتفننين المهرة وغيرهم ممن لم يتوفروا لها يوم كانت تنشر طيلسانها فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتكتب الحياة أو توجب الفناء على ماشاءت من أمم الأرض وشعوبها . . !

ولم تستطع بهذا الغنى العقلى الذى تهيأ لها أن تدفع عن نفسها غارة البرابرة من قبائل الكلت والجرمان والهون والوندال وغيرهم ممن أصابوا من الجهل أوفر حظ ومن البداوة أعظم نصيب .! ولم تكن مأساة سقوطها فذة فى التاريخ ، فقد تكررت المأساة —

مأساة العلم — فى العصور الوسطى . إذ تمكن العرب من أن يفتحوا جناحا فسيحا من الدنيا ويقوّضوا الدولتين : البوزنطية والفارسية ، ويشيدوا دولة من أضخم الدول التى مرت بالتاريخ ، وهم قبائل من بدو رُحّل تمكنت البداوة فى نفوسهم وتغلغل الجهل فى عقولهم . ! وعن الفرس والرومان ومن عاش فى ظلهم أخذ العرب الغزاة العلم والحضارة والمدنية .. ! ثم إن العرب كانوا يوم أفل نجمهم وتوارى عزهم موفورى الحظ من العلم والحضارة فلم يمنع هذا سقوطهم ، كما لم يمنعهم الجهل فى بدء حياتهم من وثبتهم الجريئة يوم دحروا الفرس واكتسحوا الرومان . !

بل إن من سوءات المدنية الخصبة أن تلازمها ـ فى الأغلب والأعم ـ رغبة فى الترف وميل إلى التنعم ، وهـذا أظهر آيات الشيخوخة عند الشعوب . !

وإذن فلماذا تدب الشيخوخة إلى الدول الفتيـة ، أو يعود الشباب إلى الأمم الهرمة ؟ أهو فرط الغنى عند الظافر والعوز عند المغلوب .. ؟

إن البرابرة الذين أغاروا على الدولة الرومانية فى العصر القديم لم يكونوا أوفر منها حظا فى الغنى ، بل كانوا جياعا فقراء ،

وكانت على حظ كبير من الترف والنعيم . . !

كذلك كان العرب - الذين دحروا الفرس والرومان فى العصر الوسيط - جياعا لا يملكون قوت يومهم ، وكان المغلوبون على حظ كبير من الثراء ، وحسبك أن تذكر كسرى وقصوره ، وقارون وماله ..!

وهاهو جنوبى افريقيا غاص بالذهب ولكن الغربيين يستعمرونه .! وأهل الاقتصاد يقولون إن منطقة « الترنسفال » تنتج فى كل عام ½ ٥٢ فى المائة من ذهب الدنيا بأسرها ، وفى وسعك أن تتصور روعة هذا الانتاج الرائع إذا عرفت أن الولايات المتحدة - أعظم دول الأرض المتمدينة إنتاجا للذهب - لا تنتج أكثر من ١٣ فى المائة كل عام .! ويقولون إن منطقة كمبرلى أنتجت من الماس نحو خمسة وخمسين ومائتى مليون من الجنيهات فى أقل من نصف قرن . . !

بيد أن هذا الرخاء لم يمنع الغرب الجائع من استعمارها وفرض الذل على أهلها . ! بل لماذا نذهب بعيداً وأمامنا قرطاجنه كانت بلداً مثرياً يجرى الذهب فى أيدى أهله ، وكانت روما تنقصه ثراء ولكنها تمكنت من أن تواريه التراب . . !

وإذن فما مبعث الاضمحلال وما سر النهوض إن لم تكن وفرة الغنى أو بسطة العلم وازدهار الحضارة ..؟

هو الخلق ـ فيما أعلم ويعلم جمهرة علماء الاجتماع ـ فهم يقولون: « سقط الرومان لأنهم أضاعوا المثابرة والعزيمة والجلد الذى لا يعرف الوهن ، وفقدوا القدرة على التفانى فى نصرة المطلب واحترام القوانين إلى حد التقديس ، وتلك هى الصفات التى كانت سبباً فى عظمة آبائهم الأولين » .

ويقولون مثل هذا فى الدول الفارسية والبوزنطية والعربية وشتى الأمم التى أشرق نجمها وانتشر فى مناحى الأرض نورها ، ثم اضمحل مجدها وانكمش ظلها وأدركها الفناء . !

ويقولون : « إذا تتبعنا الدول الساقطة والظافرة واحدة بعد أخرى سلمنا بأن هذا هو ما يحكيه تاريخ الشعوب منذ فجر بداوتها حتى نهاية حضارتها ، وما يرويه عن انحدارها من شاهق قوتها حتى حضيض اضمحلالها ... »

وستعرف الآن أن هؤلاء العلماء قد أنصفوا حين ردوا نهضات الشعوب وانحلال الأمم إلى «الخلق» وإن اكتفوا بذكر مظاهره دون أن يحاولوا الغوص إلى قاعه مما أدى إلى الالتباس

فى تطبيق القاعدة على قرطاجنـه . ولا بأس الآن من أن نبـدأ بتطبيق هـذه القاعدة ، أكان ضعف الخلق فى قرطاجنـه مصدر اندحارها وسر تلاشيها . . ؟

سنلخص لك آراء الـكتاب الذين يملأهم الإعجاب بها والرضا عنها والثناء على نضالها ، ويرونها المثـل الأعلى لـكفاح الشعوب التى تؤثر الموت تحت راية الجهاد على العيش فى ظلال الهوان ، حتى إذا فرغنا من تلخيص آرائهم ، أخذنا فى نقضها والـكشف عن مواطن الضعف فيها .

فإليك مايقوله هؤلاء المعجبون :

يقولون إن هذا شعب لا يملك من أدوات القتال كثيراً ولا قليلا . . اغتصبت منه سهامه ومزاريقه وقسيه وخناجره وسيوفه وحرابه ودروعه ، وأحرق أسطوله على كره منه، وفرت ممتلكاته الواسعة من يده . . ضاعت إيطاليا ـ وفرت اسبانيا ـ وأفلتت منه صقلية ـ وتلاشت ممتلكاته فى شمال افريقيا ـ ولم يبق له إلا أرض وطنه الضيقة يحاصرها عدو ظافر قوى باغ ، يملى إرادته يمنة ويسرة ، ويهتف فاذا القدر فى ركابه ، يلبى نداءه ويستجيب لمطلبه ، فكافح هذا الشعب الضعيف الأعزل كفاح الأبطال حتى

فنى عن آخره . . . فأين الانحلال الخلق فى موقفه . . ؟ ماذا كان يضيره - لو كان يرجو الحياة أياً كان لونها - لو قبل مطلب عدوه فشدّ رحاله الى الصحراء، وأقام فيها وعاش فى آفافها . . !

أو ليس شعباً تجارياً أخص مميزاته اجتناب للاستقرار وميل للارتحال ، ورغبة فى التنقل المستمر الذى يتطلبه السوق أينما كان فماذا عليه لو قبل مشورة عدوه وبارح وطنه ، ولو كان فى هـذا جور على شعوره وعدوان على حقوقه . ؟ !

ثم ما حيلة الضعيف الكسيح الرجاء المنحل الأمل أمام القوى الجبار الذى لا يلين ولا يرحم ؟

ومع هذا فقد انفجر الشعب كله فاذا هو بركان يستعر ، لم يغذه خطيب ، ولم يقده زعيم ، ولم تكن مقاومته صدى لحماسة قائد أو خيال حاكم أو خداع مخاتل . . وإنما كانت ثورته صدى لأحساسه ، ومقاومته تتفجر من ذاته ، وفورة دمه تنبع من قلبه ، فكافح وقاتل حتى استشهد وهو شعب تجارى لم يشغل بالحرب نفسه .. فماذا تكون آيات الخلق الرصين إن لم تكن هذه آياته ؟!

ثم إن الكفاح بين هـــذا الشعب الأعزل، والعدو الذى لايجد فى الدنيا بأسرها منافسا له إذ ذاك، قد استمر ثلاث سنوات

طوال صمد فيها لأهوال القتال ، واستمات فى الدفاع عن كرامته ، وتفانى فى تحقيق مطلبه . وصبر على مرارة الكفاح هذا الزمن الطويل ، ولبث يجود بالنفوس عن سعة ، لايهوله مصرع أبنائه المعدودين بالعشرات والمئات ، ولا يخيفه الموت الزاحف ، ولا يروعه الهلاك المقبل حتى استولى العدو على البيوت بيتا بيتا ، وقطع رقاب أبنائه وأطلق النار فى أحيائه وبيوته ، لتأتى على من بقى منه عاجزاً ومريضا وكهلا وطفلا وامرأة . ! والشعب مازال موفور الأمل يجاهد عن عزم ويتفانى عن وفاء ويستميت عن إخلاص ويرجو عن سعة . ! فان لم يكن هذا هو الخلق الرصين من « مثابرة وعزيمة وجلد لا يعرف الوهن وقدرة على التفانى فى نصرة المطلب » فماذا يكون الخلق إذن . ؟!

لم يقل الشعب : لقد اعتدى العدو على كرامتنا وهو قوى مدجج بالسلاح ، ونحن ضعاف عُـزل فماذا نصنع ؟ وإنما كانت صيحته التى تغلغلت فى نفسه ورجّت كيانه : يطلب إلينا العدو أن نفارق وطننا ، فياهول المطلب ويا الشؤم الجشع .. ارخصى يانفوس وتقدمى ياضحايا ، واستشهدى يا قرطاجنه . . ولا تسل يا شعب عن مصيرك ولا تستفسر عن مقرك فى هذا الجحيم الذى أوقدته

بيدك ، وقذفت فيه بنفسك مرضاة لكرامتك وغسلا لأهانتك . وسر إلى حتفك طائعا مختارا ، فللموت الزؤام أهون على النفس الأبية من العيش تحت نير العبودية .

وإن الرءوس لتطيح ، وإن الجثث انهوى ، وإن الناس ليستشهدون وليس فيهم من يسائل نفسه عن نهاية الشعب المحتومة أمام هذا الجيش القوى اللجب بعدده وأسلحته وذخائره . . ولماذا السؤال ، والانتقام للكرامة من غير اعتبار لنصر أو هزيمة هو المطلب الأسمى الذى تتجه إليه النفوس أولا وآخراً . !

لا نصر ولا هزيمة ، ولا أمل ولا بأس ، ولا حياة ولا موت ، ولا مقدمة ولا نتيجة .. إنما يملأ الخواطر كلها شيء واحد لاثانى له : هو التفانى فى الدفاع انتقاما للكرامة ، وليكن بعد ذلك ما يكون . . فإذا لم يكن هذا هو الخلق الرصين فماذا يكون إذن ، ! ؟

ثم إن حركة الجهاد قد حملت على جناحها الشعب بأسره ، فلم يتخلف عن الكفاح إلا صغار الأطفال وضعاف المرضى والواهنون من الشيوخ الطاعنين فى السن ، وكانت الأمة كلها فرداً واحد يتفانى ويطلب الموت إذا عز العيش فى ظلال الكرامة

وامتنعت الحياة فى كنف الحرية . . فلا أغلبية ولا أقلية ، ولا حزبية ولا زعامة . . وحتى النساء كانت حماستهن لنصرة الوطن أشد من حماسة الرجال ، ولم تكن هذه الفورة التى شملت الأمة كلها بنت الساعة أو عفو الخاطر ، ولو كانت كذلك ما امتدت هذه السنوات الطوال فى حماسة تزداد وقدة واشتعالا . . حتى السيدات والآنسات اللائى سارعن إلى شعر رءوسهن فقدمنه أوتاراً للقسى فى مستهل الحركة ، قد لازمهن الوفاء وصاحبتهن الحماسة حتى استشهدت الأمة وتلاشى الوطن ، وإن كان الجزع قد أدركهن عند ما اغتصب العدو أبناءهن وأزواجهن وإخوتهن ليكونوا رهينة فى يده الأثيمة ، فإن ذلك موقف يجل عن الصبر حتى ليعتبر احتماله اتهاما للشعور وطعنا فى العاطفة .. فاذا لم يكن هذا الائتلاف الشامل لشتى طبقات الأمة فى هذا الظرف الدقيق هذا الزمن الطويل ، عنوان الرصانة فى أخلاقها فماذا تكون رصانة الأخلاق إذن .!؟

يقول هؤلاء المعجبون بحركة الجهاد :

إن هذه الحجج كلها ناطقة بأن هذا الشعب موفور الحظ من رصانة الخلق فى شدة مثابرته ، وصلابة عزمه ودقة إحساسه وقوة

جلده ، وحدّة تفانيه فى نصرة المطلب .

وإذن فلماذا دالت دولته وانحلت امبراطوريته إن صحّ هذا الدفاع عن كفاحه ..؟ هل أخفق العلماء الذين أسلفنا الاشارة إليهم فى وضع قاعدة لانحلال الشعوب . . ؟ أو أن سقوط قرطاجنه وتلاشيها من الوجود ظاهرة يبررها الشذوذ . ؟ !

لا شذوذ ولا استثناء — فيما نعلم — وإن القاعدة التى أقامها العلماء لتنطبق على قرطاجنه وغيرها على السواء . فلنمض الى حجج الذين أعجبهم جهادها لنهدمها واحدة بعد الأخرى ، حتى إذا أتينا عليها أبنّا عن سر الاندحار الذى لقيته قرطاجنه ، ليعرف القارىء أن « لوبون » وشيعته قد اكتفوا بسرد مظاهر الخلق دون أن يردوها إلى أصولها ، ويعزوها الى منابعها ، ويفصلوا بينها وبين ما يشبهها من مظاهر أخرى :

عرفت أن قرطاجنه قد أذنت لعدوها أن يختار من أهلها ، ثلاثمائة فتى من خيرة أشرافها ، وأن سفنه قد حملتهم الى روما أمام الأهل والصحاب والعشيرة وذوى القربى ليكونوا رهينة فى يد العدو . ! فكان الأثر الذى خلفته هذه الطعنة الدامية لا يتجاوز الحزن ولا يتعدى الأسى ، ولا يفضى حتى الى مظاهرة !

وعرفت أن « هسدروبال » الذى كان يتولى قيادة قرطاجنه الى مواطن النصر وساحات الفخار ، قد قبل صاغراً فى معاهدته الأخيرة مع « ماسينيسا Masinissa أن يمر وجيشه من ورائه أمام معسكر الأعداء عارين الا من ثوب واحد يستر عورتهم .! وأن جريمته لم تكن خطأً فرديا أدى اليه انحلال خلقه ، فان أمته قد وقفت من هذه الطعنة الأليمة موقفا لاهوان بعده ولا ذلة وراءه ، فقد حكمت - اثر هذا الموقف الذليل - على قائدها ممثلة فى مجلس شيوخها بالاعدام .! لا لأنه لطخ شرفها وسوّد تاريخها ، بل إمعانا فى ترضية روما وإسرافا فى الزلفى لأهلها .! لعلهم يغفرون لقرطاجنه إقدامها على قتال « ماسينيسا » من غير اذن منها .!

وعرفت أن الوفد الذليل الذى حمل هذا النبأ الى روما قد استقبل هناك استقبالا حافلا بالسخرية المرة ، وأن الوفود التى أعقبته فى استجداء الرحمة وطلب الغفران واعلان التوبة ورفع الندم والتبرع بالاستعداد لقبول الشروط المجحفة بالغا ما بلغ الهوان بها ، عرفت أن هذه الوفود المتعاقبة قد أرسلها مجلس الشيوخ القابض على زمام الأمور فى قرطاجنه ، وأنها لقيت فى روما ما تستحقه من سخرية فادحة ، ونالت عند مجلس شيوخها

ما هى جديرة به من صغار واحتقار .. وقد عرفت أن هذا الهوان الذى لاهوان بعده لم يكن له صدى ملموس عند هذا الشعب الذليل .. !

وعرفت أن هانيبال كان أعظم قائد عرفته الدنيا فى عصره ، وأنه دوّخ أشد أمم الأرض بأساً وأكبرها خطراً ، وأنه كوّن لأمته امبراطورية رحبة الآفاق رهيبة الصيت ، فلما دالت أيامه سعت روما الى طلبه ، وجدّت فى سعيها تلتمس الظفر به لتشفى غليلها منه ، فلم تتحرك أمته لنجاته ، ولم تفكر فى رد روما عن مطلبها الآثم ، بل كانت على استعداد لتسليمه إليها ، ومعاونتها فى الانتقام منه .. ! وعلمت أن البطل قد أحس بمدى تقديرها له وحرصها عليـــه ، فانطلق فى فضاء الأرض شريداً طريدا ، يلتمس النجاة ويتطلع الى نجدة الأغراب .. ! وأنباؤه تترامى إلى سمع قرطاجنه فلا تحرك فيهاصوتا لنصرته ، ولا لسانا يتولى إثارة الجمهور لحمايته ، حتى أقدم البطل على الانتحار نجاة مما ينتظره من ذل وهوان على يد أعدائه .. !

وعرفت أن قرطاجنه كانت أميرة البحر فى عصرها ، تنشر سيادتها على نطاق رحب فسيح ، وأن روما حين طالبتها بتسليم

أسطولها البالغ نصف ألف بارجة قد استجابت لها من غير تردد وتنازلت عنه من غير جهد ؛ وأن روما قد أوثقته بالشاطىء وأحرقته على مرأى من صحابه ، فلم تثر فى البلد ثائرة الشعب لهذا التحدى الجارح ، ولم يرتفع بالتبرم القوى صوت المعارضة بين جدران المجلس ، مع أن حزب المعارضة كان لايزال صاحب رأى ، وهو إن سكت عن إحراق الأسطول وتسليم القسى والسهام والمزاريق ، فقد أعلن استياءه الشديد فى قوة عندما هم المجلس بالنظر فى تقرير الغرامة . . !

ففكر بالله فى هذه الفضائح كلها ، واستوح العدالة واحكم فيما تحمله من دلالات الخلق وآياته ، أين كان الشعور بالكرامة طوال هذا العهد البغيض . . ؟ إن الجيل الذى احتمل هذا الصغار صابرا ، وتبرع باحتقار كرامته مختاراً ، هو نفس الجيل الذى تولى الكفاح الأخير ، وصمد له وأبان عن قدرة وجلد وتفان لا حد له ، فهل من دلالات الخلق الرصين أن يبدو فى يوم منحلا واهناً وفى يوم قويا صلدا . . ؟ !

أيخضع الخلق القوى المتماسك للظروف ويتكيف بالمناسبات أم يتخطاها ويعلو عليها ويعيش فوق هاماتها . . ؟ أيؤثر صاحب

الخلق القوى العيش تحت سماء الضيم يتنفس الذلة ويغتذى بالوان الهوان ، على الموت فى ظلال الشرف حتى تحدق الأخطار بحياته ، فتثير حرصه على البقاء ، وتسوقه الى النضال لتقرير مصيره .. ؟!

كيف يقال بعد هذا كله إن مرد هذا الكفاح إلى الخلق الرصين .. ؟!

إن ما أبدته قرطاجنه من استهتار بالكرامة ، وامتهان لقداستها ، واستجابة لمطالب عدوها ، لا يبرره شعورها بالهزائم المتلاحقه ، بل إن مرده الى الضعف المعنوى والخور الروحى . فلا ينبغى أن يقال إن الشعور بالاخفاق المرير ينسى الأمم كرامتها ويفقدها الإحساس بالاعتزاز والكبرياء ، ويلقى بها الى الرضا بالذلة والاستجابة للهوان ، وأن موقف قرطاجنه حيال هانيبال لا يفترق عن موقف فرنسا مثلا إزاء نابليون يوم نفاه الحلفاء .. وفرنسا دولة حية تكبر استقلالها وتعتز بكرامتها .

لا ينبغى أن يقال هذا ، فان فرنسا تخلت عن نصرة نابليون - بعد أن سقطت باريس فى يد الحلفاء - فترة من الزمان عادت بعدها الى إجلاله والإعجاب بجهوده والدفاع عنه ضد جشع أعدائه ، فقد شدت أزره حين عاد اليها من منفاه فى « إلبا »

وحاربت فى صفه حتى انهزم فى «واترلو» ثم منعت «هدسون لو» من أن يكتتب على قبره : هنا يرقد «الجنرال نابليون» وأصرت على أن يكتتب «الامبراطور نابليون» . !

ولبث النزاع قائما حول هذا اللفظ خمسة وعشرين عاما ظل فيها المكتوب على القبر «هنا يرقد» حتى نقلت فرنسا جثة بطلها إلى أرضها بعد ربع قرن من وفاته باحتفال مهيب رائع ينم عن تقديرها لبطلها ، واعترافها بخدماته ، وفخرها بتاريخه ، فاذا كانت غيبوبة الهزائم تنسى الأمم العظيمة كرامتها ، فان ذلك أمر لا يطول أمده ولا يمتد أجله كثيرا .

ولو كان رجل كنابليون مكان هسدروبال حين طلب اليه العدو أن يمر وجيشه من ورائه على معسكر الأعداء عارين إلا من ثوب واحد ، لرأيت كيف يرتفع الشرف العسكرى على الحياة ، وكيف تعلو الكرامة على لذاذات الدنيا بأسرها .

بل ان قادة نابليون قد نفضوا يدهم من نصرته وأعلنوه بذلك ، فهمّ بالمضى وحـــده الى قتال الأعداء ليخلص شرفه العسكرى من العار ، لولا أن منعه أحد مريديه وطالبه بالتنازل عن العرش فى سبيل فرنسا . . !

أما هـذا الجبان « هسدروبال » فان قادته وجنوده الذين لم يستشهدوا بميدان القتال قد لاذوا بمعبـد واستأنفوا القتال بعد استيلاء روما على قرطاجنه ، ثم آثروا الموت بين ثنايا النار على إذلال الرومان ، فأحرقوا المعبـد ، أما بطلهم هسدروبال فقـد انطلق الى القائد الظـافر وجثا تحت قدميـه يلتمس الغفران على نحو ماعرفت من قبل . . ! فأين هـذه الضعة من قداسة الـكرامة العزيزة . . ؟

سقنا لك هـذا المثال لمـا ينطوى عليـه من تباين واضح بين الأمتين ، وإن كان «الظاهر» فى موقف كل منهما متشابها فى كثير من الوجوه .

* * *

ورب قائل يقول : عرفنا الآن ما تنطوى عليه قرطاجنه من ضعف معنوى وخور روحى ، ولـكن ما سر هـذه الرصانة التى مدت فى كفاحها الأخير ، وما مصدر استماتتها فى الدفاع على هذا النحو العجيب . ؟ وما سبيل الرد على الحجج التى رويتها عن هؤلاء المعجبين بنضالها . . ؟

فى الحق ان بواعث الجهاد الأخير لا يمكن ردها الى الحرص

على الكرامة أو الاعتزاز بالنفس أو غسل الاهانة أو غير هذا مما يؤلف نسيج الخلق الرصين .

وإنما مرد هذه الحماسة المتقدة التى تبدت فى نضالها الأخير بما لازمها من صبر وجلد وعزيمة لا تعرف الوهن .. إلى الحرص على البقاء وتقرير المصير ..! وشتان بين الموقفين ، شتان بين من يثور احتراما لكرامته ، ومن يثور حرصا على حياته . الذود عن الكرامة مثل أعلى أوجده العقل ، والحرص على الحياة أمر تسوقنا إليه غريزة المحافظة على البقاء ، والعقل من شأن الانسان وحده ، أما الغريزة فهى نصيب مشترك بين الانسان والحيوان ، وما تؤدى اليه من حركة وطلاقة ونضال وما يشبه ذلك ، لافضل للانسان فيه ، لأنه مسوق اليه من غير تفكير ولا وعى .

فقرطاجنه قد خفت الى الدفاع الأخير مسوقة « بحيوانيتها » البحتة و « غرائزها » الصرفة ، ولم تكن بواعث نضالها « إنسانية » يوحى بها اعتزاز النفس واحترام الكرامة وتقديس الشرف ، إذ أين كان هذا كله يوم أسرفت فى التنازل عن وجودها المعنوى إبقاء على وجودها الحسى . . ! إن سنة البقاء لا تأذن بالحياة لمثل هذا الشعب التعس ، يستطيع الفرد أن يجد فى الدنيا مكانا يحيا

فيه وإن فرّط طول حياته فى وجوده المعنوى مسرفا فى هـــذا التفريط ، لأن النضال بين الأفراد أهدأ من النضال بين الشعوب ، ولأن لكل دولة قوانين ترعى الضعيف وتنصف المريض وتكفل الحقوق وتقيم العدل وتهيء للناس سبل العيش كرماء كانوا أو أنذالا ..! أما الشعوب فهى لا تخضع ـ ولعلها لن تخضع ـ إلى قوانين دولية تؤدى ما تؤديه القوانين الموضوعة للأفراد فى كل الشعوب ، تشهد بهذا عصبة الأمم التى أسفرت جهودها عن الافلاس المعيب كلما شب النزاع بين بلدين ، وما عهد النضال بين الصين واليابان بصدد منشوريا ، ثم بين الحبشة وايطاليا عنا ببعيد . .

وقرطاجنة قد سلمت فى وجودها المعنوى عن إفراط وإسراف ، فكان طبيعيا أن تنتهى الى هذا المصير الذى آلت اليه ، وإذا كان دفاعها الأخير رصينا ورائعا ، فإن مرد ذلك كما قلنا من قبل إلى « غريزة المحافظة على البقاء » التى يتساوى فيها الانسان والحيوان ، فأنت لا تستطيع الهجوم على حيوان ـ بالغا ما بلغ الجبن به ـ وتشعره بالخطر يحدق بحياته دون أن يتقد حماسة فى الدفاع ، واستماتة فى الحرص على الحياة تبلغ مواطن الاعجاب من نفسك

ولكنك رغم ذلك لا تصفه برصانة الخلق بعد ما ترى من حماسة بالغة وتفان عجيب .

ولكن المعجبين بهذا الجهاد يقولون : إن غريزة المحافظة على البقاء لو كانت وحدها مبعث هذا النضال الرائع لساقت أهل قرطاجنه إلى الرضا بمطالب روما الأخير ، فشدوا رحالهم الى الصحراء وعاشوا فى فضائه على أى وجه كان - ولكن هذا الكلام مردود بأن قرطاجنه كانت تشبه الرجل البخيل الذى لا يعرف الحياة بغير المال ، فهو لا يجد غضاضة على نفسه فى احتمال أقصى درجات الذل ما دامت خزائنه ملأى بالذهب . . ! ولكنه يتميز غيظا ويتحرق أسى ويموت كمداً يوم تنقص كنوزه درهما واحداً ، وهو على استعداد للدفاع عن ماله دفاعا مجيداً قد يفقد فيه حياته ، ويضحى فيه بوجوده ، فلا يقال إن هذا البخيل أدت به رصانة الأخلاق إلى التفانى فى الدفاع عن ماله ، بل يقال إن غريزة حب التملك قد قويت عنده حتى تغلبت على غريزة المحافظة على البقاء . . ! كذلك كانت قرطاجنه - تولت إمارة البحر وسيادة الدنيا بالتجارة ، ووقفت على جمع الذهب حياتها وجهودها ، وقد سكنت قداسة المال قلبها حتى أصبحت

لاتفهم الحياة بدونه ، ألم تر إليها كيف تنازلت عن أسطولها وسكتت عن إحراقه ، وسلمت فى أدوات قتالها من قسى وسهام ومزاريق ، ثم اشتعل الغضب فى رأسها ، وساور الضيق نفوس أهلها حين جاء ذكر الغرامة وطريقة دفعها . . !

مثل هذا البلد إذا طالبت أهله بالرحيل إلى الصحراء ومفارقة البحر الذى ورثوا حبه ، فقد طلبت اليهم أن يعيشوا أمواتا ، بل قضيت فيهم بالانتحار . ثم لا تنس أنهم أقدموا على الثورة وهم على يقين بأن روما قد وطنت عزمها على أن تفنيهم ، عاشوا على الشواطىء أو فى فضاء الصحراء ، لأن المطالب المتلاحقة المتكررة بما تحمل من سخرية وسخافة كانت لاتنذر بغير هذا المصير ، فلو أنهم استجابوا لهذا المطلب لطاردتهم روما فى الصحراء وشتتت جموعهم ، وراحت تتعقبهم فى حلهم وترحالهم حتى تفنيهم وتخلى الدنيا من جلجلة اسمهم ــ وللغرائز إلهام سريع لا يستغرق وقتا ولا يتطلب تفكيرا ، فغريزة المحافظة على البقاء عند كل قرطاجنى قد أوحت اليه بهذا المصير ، وساقته فى التو الى العمل على اجتنابه ، وفى هذا يتساوى الانسان والحيوان . . !

والحياة لاتعطى بالها لشعب يستجديها ويطلب عونها ، ولا

تئد فى مسيرها فتثقل رجلها لتنصت الى شكاته ، وتحيل عجزه الى قدرة ، وضعفه الى قوة ، لأن النصر فى النهاية للأقوى والبقاء للأصلح ، وما رأينا الضعيف ينتصر يوما إلا لتلحق به الهزائم أياما ، ولا يفر من وجه الإخفاق شهراً إلا ليدركه ويحط عليه شهوراً وأعواما ، ولن ينتصر حتى تدب فى بواطن نفسه عناصر القوة، ويسرى فى جسده ماء الحياة ، ويعرف كيف يسمو بمطامحه الروحية على مطالب الحياة الدنيا ، وليس للضعف عند الشعوب آيه أنطق من آية التسليم بالوجود المعنوى، إبقاء على الوجود الحسى .

وإن كافة الحجج التى رويناها عن المعجبين بقرطاجنه لتذوب وتنحل إذا أقمت نظرتك إلى نضالها على أنه دفاع عن حق البقاء ، وذود يراد به تقرير المصير ، فالقول بأن حركة الجهاد فى قرطاجنه قد شملت الشعب بأسره ، وأنها دامت حتى نعق بوم الخراب فى أرض الوطن ، وأن الشعب قد ثار لفوره دون أن يفكر فى نصر أو هزيمة ، فى حياة أو موت ، وأنه لم ينتظر الخطيب الذى يثيره والكاتب الذى يحفزه ، والقائد الذى يتولى أمره . . . كل هذا مردود عليه بأن الغريزة كفيلة بذلك كله ، ولو أنك حصرت فئة من الكلاب ونبهتها إلى ما يحيق بحياتها من هلاك زاحف لثارت

على الفور فى وجهك واستماتت فى المقاومة ، وتفانت فى النضال عن نفسها ، واستهانت بالحياة .. فى سبيل الحياة .. من غير خطيب يغذى حماستها ، أو كاتب يوقدنارها ، أو قائد يتولى أمرها وهى تفعل هذا من غير أن يتهاون بعضها ويكل أمر الدفاع إلى غيره ، فهو دفاع اليائس المستميت .. وكذلك كانت قرطاجنه ..!

لعلك أدركت من هذا التحليل ، النقص الذى ينطوى عليه تفسير علماء الاجتماع السابقين لمعنى الخلق ، فقد تناولوا مظاهره فأحصوها واكتفوا بسرد أكثرها دون أن يردوها الى عللها ويعزوها الى منابعها ويفصلوها عما يشبهها من مظاهر ترجع إلى أصول ومنابع وعلل أخرى .. فقد عرفت أن « المثابرة والعزيمة والجلد الذى لا يعرف الوهن ، والقدرة على التفانى فى نصرة المطلب » عناصر قد توفرت جميعها فى المرحلة الأخيرة من كفاح الشعب القرطاجنى ، فلم تكن دليلا على رصانة الأخلاق عنده ، لأن مردَّها جميعا إلى وحى « الغريزة » التى يتساوى فيها الإنسان والحيوان ، وليست تعزى الى البواعث النفسية والمطامح الروحية والمثل العليا التى يؤلف العقل نسيجها ، وتهيىء «العاطفة» خيوطها مما يبرر اطلاق الخلق على مظاهرها ..

وإذن فقد سقطت قرطاجنه لأســـباب نستطيع ردها الى انحلال الخلق . وبذلك يتمشى سقوطها مع القاعدة التى أقامها أهل الاجتماع فى سقوط الدول وانحلالها :

تقول سنن الجهاد عند الشعوب منذ فجر التاريخ الى يومنا الحاضر ، إن البقاء للأصلح ، وليس الأصلح من تبلغ به الوداعة الى حد التنازل عن كرامته ، والتهاون فى عزة نفسه ، والاستكانة للذل والخضوع للضيم وقبول الظلم والاستجابة لمطالب العدو بالغا مابلغ اجحافها ، بل أصلح الشعوب للبقاء من رفع وجوده المعنوى فوق وجوده المادى . وجودنا المادى لا يتطلب إلا الشراب والطعام والهواء والراحة - وفى طلب ذلك يتساوى الانسان والحيوان ، ووجودنا المعنوى لا يستقيم بغير الحرص على الكرامة وصيانة الشرف من كل أذى يصيبه أو يحوم حوله ثم هو يعلو ويسمو حين يلازمه التبشير بمثــل أعلى ، والاستماتة فى شأنه ، وذلك من شأن الانسان وحده . وقد تنازلت قرطاجنه عن وجودها المعنوى ، فحرمتها سنن الجهاد حقها فى البقاء وقضت فى أهلها أمرها بالفناء (١) .

---

(١) والتاريخ حافل بما يؤيد هذا الناموس ، ولا بأس من أن نسوق مثــالا آخر يختلف لونا وشكلا وان اتفق فى جوهر الموضوع الذى نحن بصدده : التنازل عن الوجود المعنوى وأثره فى الوجود الحسى :

دخل «نابليون» بولنده فى وقت قد انعقدت عليه آمال أهلها فى استقلال =

وقد كان من بواعث هذا التهاون فى الوجود المعنوى أن أهل قرطاجنه عباد مال ، والذهب إذا تمكن من النفوس واستقر فى شغاف القلوب ، هانت فى سبيله أسمى المطامح وأنبل المثل ، والشعوب إنما تحيا بمطامحها ، وتعلو على جناح مطلب أسمى تؤمن به وتعيش له ، وتتفانى فى العمل على تحقيقه ، أما الشعوب التى لاتفهم إلا لغة الذهب ، ولا تحترم إلا مظاهر المادة ، فمآلها الى انحلال ونهايتها الى اضمحلال .

وقد أدت بها قداسة المال الى ضيق المطامح ، فأصبح كل

وطنهم ، فالتفوا حوله وأحاطوه بهالات الاجلال والترحيب ، وبينما كانت عربته تسير فى شوارع المدينة والورود والازهار تتناثر عليه ، لمح سيدة فتانة الجمال مشرقة الوجه تملأها الحماسة والاعجاب به ، تشق الصفوف مرحبة بمقدمه هاتفة بحياته ... وما عادت السيدة الى بيتها حتى كانت عيونه ورسله وراءها . ! تغريها بشتى الطرق وتعرض عليها أثمن الهدايا لتقبل الاتصال بنابليون . ! وامتنعت السيدة وازدادت إلحاحا فى الامتناع بالحاح الرسل فى مطلبهم . . فاستعان البطل عليها بزعماء المدينة ، ولم يتورع هؤلاء الزعماء عن قبول مطلبه والسعى لدى زوجها وأولى أمرها فى قبول هذا العرض!

وأخيرا قبلت « مارى فاليفسكا » تحت تأثير هذا السعى الملح أن تدفع عفافها ثمنا لاستقلال بولندة . !

تنازل أهل بولنده عن وجودهم المعنوى فى سبيل استقلالهم ، فكانوا خليقين بموقف نابليون حيال مطالبهم واستخفافه باستقلالهم . . وحق عليهم ناموس البقاء السالف الذكر . والأمثلة الشبيهة بهذا كثيرة لا يكاد يحصيها العد .

مجد لا يدر الذهب معدوم التقدير عنـدهم . ! وقد عرفت موقف المعارضة من هانيبال فى مجلس الشيوخ بعد موقعة « كانى » وتبينت مدى تقـديرهم لهـذا السلطان الذى كان ينشره بطلهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، ومبلغ إحراج « ماجو » أمام « هانو » زعيم حزب السلام . .

هكذا يرتفع صوت المعارضة فى المجلس ويعلو حتى يخرس صوت المندوب الذى أوفده هانيبال وهو فى أوج مجده وشاهق عزه ، ولا يجد المعارض من أنصـار البطل من يعمل على إخفاته بالقوة إن عز إخفاته بالهدوء كما ألف القـادة فى كل زمان ومكان . . ذلك لأن انتصارات الحرب رغم ما أسفرت عنه من مجد ساطع ، لم تمنع بطلها من طلب العون ، ولم تدر على الوطن شيئا من الذهب . . ! الذهب . . !

ولهذا الموقف وأشباهه دلالتها فى نفسية الشعب ، وتقـدير مدى طموحه ، ومعرفة فهمه للحياة ، وكيف يعيش شعب لا مطمح له فى الدنيا إلا المال ، ولا مطلب عنده أسمى وأنبل من الذهب .؟ إن نواميس البقاء لم تخطىء حين قضت فى قرطاجنه بحرمانها من حق البقاء . . على أنه ليس طبيعيا ما أصاب هـذا البلد من مجد ، وما انتهى اليه من عظمة ، فقد نال هذا كله بسلاح لا يملـكه . . !

استأجر الجنود المرتزقة ، ووكل اليها أمر الاستعمار ، واعتمد عليها حتى . حتى فى الدفاع عن كيانه . . ! وليس من رصانة الخلق أن تسلط الأشرار يهاجمون الناس ويمتهنون حقوقهم ويعتدون على أملاكهم ، فاذا هموا بصد عدوانك وأخذوا فى قتالك ، انزويت فى دارك ، واستأجرت من يقوم بالدفاع عنك حتى لاتجد الأجر الذى تدفعه ، وترى الهلاك مقبلا عليك فاتحا فاه يريد ابتلاعك ، فتأخذ حينئذ ـ وحينئذ فقط ـ فى الدفاع عن نفسك والذود عن حياتك متفانيا ، شأن اليائس المستميت . .

فقرطاجنه أصابت مجدها بسلاح غير سلاحها ، فلم تكن أهلا للاحتفاظ به ، ثم فقدته فكان فقدانه عن جدارة واستحقاق . . !

استبان لك من هذا أن قرطاجنه قد تلاشت من الوجود لأن جهادها قد أعوزته البواعث الروحية ، وأن ما بدا من جلادها وصبرها وتفانيها ووفائها مرده الى الغريزة التى لا يمتاز بها أسمى الناس على أحط الحيوانات ، وأنها لم تكن أهلا لهذا المجد الطارىء والعز الوارف وغيره مما جاءها به هانيبال وهملكار وهسدروبال ، وأنها استحوذت عليه بسلاح غيرها ، فسرعان مافارقها إلى غير رجعة ، وفر منها غير آسف على عشرتها ، وأنها لقيت ماينبغى أن يلقاه كل شعب يضحى بوجوده المعنوى إبقاء على وجوده الحسى .

ولا تهلعن للنهاية الأليمة التي صارت اليها قرطاجنه . ولا تحسبن أن الرومان كانوا وحوشا حين واروها التراب ، فتلك سنة النضال بين الشعوب ، وهذه هي نواميس التنازع على البقاء .. فان الجريمة التي ارتكبها الرومان منذ نيف وعشرين قرنا ، قد أقدم على ارتكاب مايشبهها الساسة في العصر الحديث . . !

والقارئ يذكر مااستقر عليه رأي العصابة التي اجتمعت في باريس بعد الحرب العظمى الأولى لتسوية مشاكل العالم على أساس مبادئ « واسون » الأربعة عشرة . . ! ويذكر الجريمة التي اشترك في ارتكابها ساسة الروسيا والنمسا وبروسيا في القرن الثامن عشر يوم أزالوا « بولندة » من المصور الجغرافي . . ! ويذكر موقف « عصبة الأمم » من نزاع الحبشة وايطاليا ، ثم نزاع الصين واليابان ، ويذكر كيف عصف مؤتمر سان فرنسيسكو بميثاق الأطلنطي بعد انتهاء الحرب العالمية الأخيرة . . !

إن الطبيعة لا تعرف الرحمة في نزاع الجماعات ، وقانونها الذي لا يتغير قط ولا يصيبه التعديل أبداً :

إن الغلبة للأقوى . . والبقاء للأصلح . . ؟

تاريخ الحوادث

الواردة فى هذا الكتاب

هذه دراسة اجتماعية لمأساة تاريخية ، وقعت أحداثها منذ نيف وعشرين قرنا من الزمان ، ولكن مناظرها لا تزال تتكرر بين الحين والحين فى تاريخ الصراع بين الشعوب، وهذا الكتاب الذى « يحكى » سيرة الكفاح بين روما وقرطاجنه ، لا يهتم بالحروب إلا من حيث دلالتها على الروح المعنوية فى كلا الشعبين ، ولهذا تعمدت الإيجاز فى سردها ، وحاولت الخروج عن نطاقها ، وتصوير آفاق أخرى تدخل فى نطاق البحث الاجتماعى .

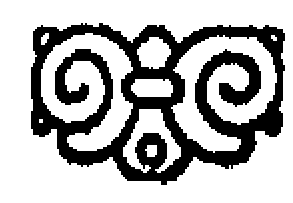
على أن القارىء الذى يريد أن يفهم الجو المعنوى الذى كان يتنفسه هذا الشعبان ، قد لا يقنع بقصة هذه الحوادث التى تتعاقب أمام ناظريه ، وتتسلسل مردودة إلى عللها وأصولها ، وربما شعر بالحاجة إلى معرفة الزمن الذى وقعت فيه هذه الحوادث ، ولهذا آثرت أن أسجلها فى هذا الثبت ليرجع إليها من أراد :

	ق . م
نشأة روما	٢١ ابريل ٧٥٣
نشأة قرطاجنه	٨٥٠
أول معاهدة بين قرطاجنه ورما	٥٠٩
رحلة هانو وهميلكو Hanno & Himilco لاستعمار إفريقيا الغربية واستكشاف المحيط الأطلنطى	٥٠٠
إخفاق بيروس فى صقلية وعودته إلى بلاده	٢٧٦
موت بيروس	٢٧٢
سيادة روما فى ايطاليا	٢٧٠ - ٢٦٦
قطاع الطرق المتمردون يطلبون النجدة من قرطاجنه وروما . إرسال النجدة من كليهما	٢٦٥
بدء الحرب البونية الأولى (لامتلاك صقلية)	٢٦٤
هزيمة قرطاجنه فى مايلى Mylae	٢٦٠
اندحار الأسطول القرطاجنى فى :	
إكونومس Economus	٢٥٦
حملة رجيلس Regulus لفتح إفريقيا	٢٥٦
هزيمته على يد اكزانتيب	٢٥٦
مولد هانيبال Hannibal - حصار ليليبيوم	٢٤٩

ق . م

أهم مصادر الكتاب

1. Mommsen (Theodore), The History of Rome
2. Church (A. J.) & Gilman (A.), Carthage
3. Nathan Davis, Carthage & her remains
4. Gilman (Arthur), Th Story of Rome
5. Berkley (E.) A new History of Rome
6. Pelham, Outline of Roman History
7. M. Dureau de la Malle, Carthage
8. E. De Sainte Marie, Mission à Carthage
9. Baker (G. P.), Hannibal
10. Spenser Wilkinson, Hannibal's march through the Alps
11. Universal History of the World Vol. III ed. by J. A. Hammerton
12. Hallword, (B.L.) The Cambridge ancient History ed. by Coock, Adcock & Charlesworth. Vol. VIII
13. The Historians' History of the World. - ed. by H. S. Williams L. L. D. & others Vol. II & V
14. Huchinson's History of the Nations. Vol. 1-11



فهرس الصور

صفحة

فهرس الكتاب

كتب المؤلف

ا ـ تأليفاً :

١ ـ التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام : صدر فى سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية فى اكتوبر ١٩٤٥

٢ ـ الأحلام ـ بحث مقارن : قامت بنشره مكتبة الآداب فى سبتمبر ١٩٤٥

٣ ـ الشعرانى إمام التصوف فى عصره : صدر فى سلسلة أعلام الإسلام فى أغسطس ١٩٤٥

٤ ـ قصة الكفاح بين روما وقرطاجنه : قامت بنشره لجنة الجامعيين لنشر العلم فى نوفمبر ١٩٣٦ ، وأعادت طبعه مكتبة الآداب فى أوائل فبراير ١٩٤٦

٥ ـ التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى : تقوم الآن بطبعه مكتبة الآداب

٦ ـ النزاع بين الدين والفلسفة : يطبع قريباً

ب ـ ترجمة :

٧ ـ تراث الإسلام : قامت بنشره لجنة الجامعيين لنشر العلم (والمؤلف فيه ترجمة الجزء الذى وضعه ا . جيوم عن الفلسفة والإلهيات)

٨ ـ علم الغيب فى العالم القديم : وضعه « شيشرون » قامت بنشره مكتبة الآداب ويظهر فى أوائل فبراير ١٩٤٦

٩ ـ تاريخ علم الأخلاق : وضعه هنرى سدجويك أستاذ الفلسفة الخلقية فى جامعة كامبردج وسيطبع فى جزءين قريبا .

